نحو كيان جديد (الحلقة 21)

العدل والإنصاف

محمد سرور بن نايف زين العابدين

التحرير
توقفنا في الحلقة الماضية عند عرضنا لبعض الشواهد من تاريخنا الدالة على عدل الإسلام حتى مع الكفار، ونمضي في هذه الحلقة في الحديث عن العدل والإنصاف.

عدل أئمة السلف:
كان جمهور أئمة السلف - رحمهم الله - يُنْزِلُون الناس منازلهم، فلا يظلمون أقرانهم بسبب اختلاف الاجتهادات، ولا يحابون أقرب الناس إليهم فيعطونهم مالا يستحقونه. ولقد كانت هذه حالهم مع المبتدعين، أو حتى مع الكفار امتثالاً لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنئآن قوم على ألا تعدلوا...}، ونعرض فيما يلي نماذج من عدلهم:
1 - عن عاصم بن كليب، عن أبيه قال: انتهينا إلى علي رضي الله عنه، فذكر عائشة، فقال: خليلة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
قال الذهبي: وهذا يقوله أميرُ المؤمنين في حق عائشة مع ما وقع بينهما، فرضي الله عنهما. ولا ريب أن عائشة نَدِمَتْ ندامةً كُلِّيَّةً على مسيرها إلى البصرة وحضورها يوم الجمل، وما ظنت أن الأمر يبلغ ما بلغ. فعن عمارة بن عمير، عمن سمع عائشة إذا قرأت: {وقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ} [الأحزاب/ 33] بكت حتى تبل خمارها.
وعن عمرو بن غالب: أن رجلاً نال من عائشة عند عمار، فقال: اُغرُبْ مقبوحاً، أتؤذي حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم (1).
----
1 - سير أعلام النبلاء للذهبي، مؤسسة الرسالة، 2/177 .
----

2 - وعن عبد الرحمن بن شُماسَة، قال: دخلت على عائشة، فقالت: مما أنت؟ قلت: من أهل مصر. قالت: كيف وجدتم ابن حُدَيجْ في غزاتكم هذه؟ قلت: خيرُ أمير، ما يقف لرجل منا فرسٌ ولا بعيرٌ إلا أبدل مكانه بعيراً، ولا غلامٌ إلا أبدل مكانه غلاماً. قالت: إنه لا يمنعني قَتْلُه أخي أن أحدثكم ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إني سمعته يقول: (اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه) (1) (2).

---

1 - أخرجه مسلم في صحيحه، رقم: 1828 ، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل.

2 - سير أعلام النبلاء، مصدر سابق: 3/38 ومعاوية بن حديج له صحبة، وولي إمرة مصر لمعاوية وهو الذي قتل محمد بن أبي بكر الصديق لأنه كان أحد الذين حاصروا عثمان بن عفان، وقيل: كان من بين الذين شاركوا في قتله [عن سير أعلام النبلاء: 3/37 و 3/481].

---

3 - سئل أحمد بن حنبل عن الشافعي، فقال: (لقد منَّ الله علينا به، لقد كنا تعلمنا كلام القوم، وكتبنا كتبهم، حتى قدم علينا، فلما سمعنا كلامه، علمنا أنه أعلمُ من غيره، وقد جالسناه الأيام والليالي، فما رأينا منه إلا كلَّ خير، فقيل له: كان يحيى وأبو عبيد لا يرضيانه - يشير إلى التشيع وأنهما نسباهُ إلى ذلك -، فقال أحمد بن حبل: ما ندري ما يقولان، والله ما رأينا منه إلا خيراً) .

وللخبر تتمة عند البيهقي، وهي: ثم قال لمن حوله: اعلموا رحمكم الله تعالى أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله شيئاً من العلم، وحُرِمَه قرناؤه وأشكاله، حسدوه فرموه بما ليس فيه، وبئست الخصلة في أهل العلم).

قال الذهبي: من زعم أن الشافعي يتشيع فهو مفترٍ، لايدري ما يقول (1).

4 - قال يونس الصَّدَفيُّ: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة.

قال الذهبي: هذا يدلُّ على كمال عقل هذا الإمام، وفقه نفسه، فما زال النظراء يختلفون (2).
---
1 - سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، 10/58 والتتمة في هامش الخبر.
2 - سير أعلام النبلاء: 10/16 .

عدل الدعاة مع إخوانهم الدعاة:
أخي الداعية، هاقد رأيت أن عدل الإسلام قد اتسع للحيوانات، وأن الله جلَّ وعلا قد أدخل امرأة النار بسبب ظلمها لهرة، وشمل عدل الإسلام أيضاً الذين كفروا من أهل الكتاب، وتوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من يظلمهم:
(ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة).
أظن أنه قد آن لنا بعد هذه الرحلة في رحاب العدل أن نتساءل: أما آن للدعاة أن يعدلوا مع إخوانهم الدعاة؟!، وهذا هو بيت القصيد [كما يقولون] في كل ما ذكرناه عن العدل والإنصاف، كم يشعر أحدنا بالمرارة عندما يرى بعضاً من إخوانه يتحرج من إيذاء الحيوان وظلمه ولا يتحرج من إيذاء وظلم إخوان له؟!.
أخي الداعية: تذكر أن إخوانك الذين تختلف معهم هم في مجموعهم صفوة هذه الأمة، وهم الأمل المرتجى بعد الله سبحانه وتعالى:
- فمنهم من قضى سنيَّ عمره يدعو ويعلم ويربي، وقد نفع الله به خلقاً كثيراً تأثروا به واستنوا بسنته، وهو وإياهم كانوا سبباً في هداية الضالين، وتوبة العصاة المفسدين.
- ومنهم من رزقه الله المال، فسخّره لنصرة دين الله والإنفاق في مختلف وجوه الخير، وقلة من الرجال من يتحكم بالمال ولا يتحكم المال به.
- ومنهم من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا، واستعذب الموت في سبيل الله، والجود بالنفس أقصى غاية الجود.
- ومنهم من قال بشموخ واستعلاء: {رب السجن أحب إلى مما يدعونني إليه}، وعندما ابتلاه الله بالسجن صمد

صمود الأبطال، وما وهن ولا استكان، وعندما فرّج الله كربه خرج من سجنه وهو أشد اقتناعاً بدعوته.
- ومنهم من فارق الديار والأهل والخلان فراراً بدينه باحثاً في أرض الله الواسعة عن مكان آمن يعبد فيه ربه، ويلتقط أنفاسه ليكمّل مسيرة الجهاد في سبيل الله.
هؤلاء الإخوة لابد وأن لهم أخطاء ومن ذا الذي يخلو من الذنوب والأخطاء؟ ولابد أن تجد نفسك مضطراً لتفنيد هذه الأخطاء، وبيان مخالفتها للأدلة الشرعية، فلا بأس مما تفعل، ولكن لا تكتب وأنت في حالة غضب. ولا تتهم إخوانك في نواياهم، وأحسن الظن بهم، ولا تنس فضلهم في العمل الإسلامي، وإياك وظلمهم:
- قال محمد بن سيرين: (ظلم لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما تعلم، وتكتم خيره) (1).
هذا إذا ذكرت أسوأ ما فيه ولم تذكر أحسن مافيه، فكيف إذا أشعت عنه مقالة السوء دون تمحيص ولا توثيق، وغفلت عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حسب امرىء من الكذب أن يحدّث بكل ماسمع).
---
1 - البداية والنهاية: 9/275 .

- وقال سعيد بن المسيب: (ليس من شريف ولا عالم ولاذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، فما كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله) (1).
- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض رده على الرافضة الذين يظلمون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ويفترون عليهم: (ومعلوم أنا إذا تكلمنا فيمن هو دون الصحابة، مثل الملوك المختلفين على الملك، والعلماء والمشايخ المختلفين في العلم والدين، وجب أن يكون الكلام بعلم وعدل لا بجهل وظلم؛ فإن العدل واجب لكل أحد على كل أحد في كل حال، والظلم محرم مطلقاً، لا يباح قط بحال) (2) اهـ .
---
1 - البداية والنهاية: 9/100.
2 - منهاج السنة، لابن تيمية : 5/126 .

وعندما خالف الدعاة هذه الآداب الشرعية، وكثرت الردود والاتهامات بينهم، وعرف عامة الناس عيوبهم ونقائصهم المزعومة هانوا في أعينهم، وتجرأ الأعداء عليهم، واستغل هذا في ضرب ذاك، وصدق فيهم قول الشاعر:

يا معشر القراء ياملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد

درس لا ينسى: كنا أربعة نسير في محاذاة نهر، وشغلتنا المناظر الخلابة عن تجاذب أطراف الحديث حتى خُيّل إلي وكأني أسير وحدي... قطع الدكتور الشيخ محمد أمين المصري رحمه الله [وكان أحد الأربعة] بسؤال باغت به أحدنا:

- فلان [ذكر اسم أحد الدعاة المشهورين] أليس له حسنات؟!.

- أجاب المسؤول: بلى، له حسنات.

- الشيخ: اذكر لي اثنتين منها؟

وعندما عدد المسؤول اثنتين من هذه الحسنات، قال الشيخ: إذن له حسنات، ثم صمت، وصمتنا لأن المسألة التي أثارها لا تزال غير واضحة عندنا.

وعاد بعد هذا الصمت ليقول بتأثر بالغ:

سألت فلاناً [ذكر اسم داعية معروف عندنا] نفس السؤال فأنكر أن يكون له حسنة واحدة... ثم عدنا إلى صمتنا، ولم تعد لنا حاجة بالنهر وجماله الأخاذ.

كان بيننا - الثلاثة - وبين الداعية الذي يسأل عن حسناته خلاف، ومع أننا لم نذكر هذا الخلاف من قبل أمام الشيخ، ولكنه لابد وأن يكون على علم به، فأراد أن ينصحنا بشكل غير مباشر وكان لسان حاله يقول:

تذكروا أن لصاحبكم حسنات، وتذكروا أنه من العاملين لنصرة دين الله، وحذار أن تكونوا من الذين يبالغون في الحب والكره.

رحم الله الشيخ رحمة واسعة، فلقد كان عالماً جهبذ، ومربياً قديراً، وداعية مؤثراً، وكان ينأى بنفسه عن الصراعات الشخصية أو الحزبية، ويحرص على إقامة جسور مع مختلف الجماعات والعلماء، ولا يقصر في نصحهم، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومواقفه في مسجد المرابط معروفة ومحمودة.

ومما يؤسف له أن الشيخ لم يعط حقه في الساحة الإسلامية، ولعل السبب في هذا الإهمال عدم قناعة الشيخ بتربية الأتباع الذين يجيدون فن التعصب لشيوخهم (1).

----

1 - ولد الشيخ عام 1914 م في مدينة دمشق، وفي عام 1941 م انتسب لكلية أصول الدين بالأزهر، وتخرج منها بعد أربع سنوات، وعمل مدرساً في ثانويات دمشق، وفي عام 1951 عين ملحقاً ثقافياً للسفارة السورية في باكستان، وكان له جهود طيبة في نشر اللغة العربية خلال الخمس سنوات التي أقامها هناك، وفي عام 1956 سافر إلى بريطانيا للتحضير لرسالة الدكتوراه وحصل عليها في عام 1959 وكان موضوعها (معايير النقد عند المحدثين) ثم التحق بجامعة دمشق في نفس العام 1959 كمدرس في كلية الشريعة، وفي عام 1965 تعاقد مع جامعة الملك عبد العزيز - كلية الشريعة - في مكة المكرمة، وقبل وفاته بثلاث سنوات انتقل إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة رئيساً للدراسات العليا فيها، وكان له دور في وضع مناهجها، وتوفي رحمه الله في شهر رمضان 1397 هـ الموافق لعام 1977 على إثر عملية جراحية أجريت له في أحد مستشفيات سويسرا، ودفن في مكة المكرمة رحمه الله . [عن مقدمة كتاب المسؤولية - وهو من كتب المُتَرْجَمْ له - للشيخ محمد سليمان].

مثال تطبيقي: انطلاقاً من هذا الدرس البليغ الذي علمنا إياه الشيخ محمد أمين المصري رحمه الله، فإني سوف أطرح هذا السؤال ثم أجيب عليه:

س : هل للجماعات الإسلامية حسنات؟!

ج : بلى، لهم حسنات.

س : اذكر واحدة منها؟!

ج : للسلفيين دور لاينكر في الدفاع عن عقيدة ونشر لواء السنة، وفضح أهل البدع والضلالة، ومن أجل ذلك فقد تعرضوا للأذى والمحن والتشهير، فما زادهم ذلك إلا صموداً وثباتاً وعطاءً.

ومن آثار هذه الجهود المباركة، إقبال هذا الجيل من أبناء الأمة الإسلامية في كل مكان على كتب التوحيد

والحديث، وتبني معظم الجماعات الإسلامية لكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وشرح العقيدة الطحاوية، واهتمام دور النشر بطباعة هذه الكتب لأنها تحقق من وراء ذلك أرباحاً طائلة.
ومن آثار هذه الجهود المباركة أيضاً أن أصحاب البدع والأهواء صاروا يخرجون الأحاديث التي يستدلون بها في مؤلفاتهم، لأنهم إن لم يفعلوا ذلك فلن تشهد كتبهم رواجاً وانتشاراً، وكان معظم الكتاب قبل عقود قليلة لا يفرقون بين الحديث الصحيح والضعيف، ومن الأمانة أن ينسب هذا الإنجاز الكبير إلى الجماعات الإسلامية.
أما الإخوان المسلمون فقد كان لهم شرف تأسيس عمل جماعي تنظيمي يهدف إلى عودة الخلافة الإسلامية، وتحرير بلاد المسلمين من الاستعمار والتبعية، وعندما دعا داعي الجهاد عام 1948 م من أجل تحرير فلسطين، لبوا النداء، وسالت دماء كثير من أعضائهم على ربى الأرض التي باركها الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سموات، ولا يصح أن يذكر تاريخ القدس في العصر الحديث دون أن تذكر استماتة الإخوان في الدفاع عنها عام 1948، ولا يزال الإخوان المسلمون - مع غيرهم من الإسلاميين - يقاومون سياسة الاستسلام التي يسميها المنهزمون سلاماً، وما حركة حماس إلا فرعاً من فروع الإخوان المسلمين.
أما جماعة التبليغ فلا زالت تقدم الدليل تلو الدليل على أنه من الممكن أن يتنقل الداعية من بلد لآخر داعياً في سبيل الله على نفقته الخاصة لا يتلقى مكافأة على ذلك من أحد، ولا ينتظر جزاءً ولا شكوراً إلا من الله الواحد القهار - إن أكرمه ومنّ عليه بالأجر والثواب - ، لقد كانت جماعة التبليغ سبباً في توبة الضالين، وهداية المشركين الكافرين (1).
----
1 - وأقول مثل ذلك في بقية الجماعات الإسلامية التي لم نأت على ذكر محاسنها.

كان العلماء والقادة المؤسسون يتعاونون فيما بينهم على البر والتقوى، ويسدون الثغرات التي من الممكن أن يتسلل الشيطان منها فيفسد ذات البين بين الإخوة

ويزرع الأحقاد والأضغان في النفوس، ويتمثلون قول الإمام الشافعي للذي اختلف معه في مسألة: (يا أبا موسى، الا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة).
وليأذن لي القارىء الكريم في الانتقال قليلاً إلى الأجواء التي ولدت في ظلها أهم هذه الجماعات:
يتحدث الشيخ حسن البنا - رحمه الله - عن موجة الإلحاد والإباحية في المجمتعات الإسلامية فيقول:
(كما كان ينفس عن نفسي كذلك التردد على المكتبة السلفية، وكانت إذ ذاك قرب محكمة الاستئناف، حيث نلقى الرجل المؤمن المجاهد العامل القوي العالم الفاضل والصحفي الإسلامي القدير [السيد محب الدين الخطيب]، ونلتقي بجمهرة من أعلام الفضلاء المعروفين بغيرتهم الإسلامية وحميتهم الدينية، أمثال فضيلة الأستاذ الكبير السيد محمد الخضر حسين، والأستاذ محمد أحمد الغمراوي، وأحمد باشا تيمور رحمه الله، وعبد العزيز باشا محمد رحمه الله، وكان إذ ذاك مستشاراً بمحكمة الاستئناف، ونسمع منهم بعض ما ينفس عن النفس، كما نتردد على دار العلوم، ونحضر في بعض مجالس الأستاذ رشيد رضا رحمه الله، ونلقى فيها الكثير من الأعلام والفضلاء كذلك، أمثال الشيخ عبد العزيز الخولي رحمه الله، وفضيلة الأستاذ الشيخ محمد العدوي فنتذاكر هذه الشؤون أيضاً. وكان للسيد رشيد رحمه الله جولات قوية موفقة في رد هذا الكيد عن الإسلام) [مذكرات الدعوة والداعية، ص: 51].
وعن قرار الجماعة القاضي بإصدار جريدة الإخوان المسلمين يقول البنا:
(لم نجد إلا جنيهين دفعهما الشيخ رضوان محمد رضوان، وهما رأس مال هذه المجلة، وقد كان، وحملت الجنيهين، وذهبت بكل بساطة وإيمان إلى المكتبة السلفية... وهناك تفاهمت مع السيد محب الدين الخطيب - جزاه الله خيراً على كل شيء - أن يكون مديراً للمجلة، ولكن تطبع بالسلفية، وأن يكون الجنيهان دفعة أولى، وما بقي بعد ذلك فعلى الله، وابتسم الرجل المؤمن المجاهد المحبوب، ووافق على ذلك هو الآخر بكل بساطة وإيمان، فصدر التصريح وبدأ الطبع، فظهرت جريدة الإخوان المسلمين الإسبوعية العدد

الأول بتاريخ الخميس 28 صفر 1352 هـ ، وذلك يوافق أواخر شهر مايو 1933 م). [المذكرات، ص: 140].
وفي موضع آخر من ا لمذكرات يتحدث الشيخ حسن البنا رحمه الله عن مجلة المنار بعد وفاة رشيد رضا (1) رحمه الله:
(توقفت المجلة عن الصدور مرة ثانية. وقد عز على الإخوان أن يخبو ضوء هذا السراج المشرق بالعلم والمعرفة من اقتباس الإسلام الحنيف، فاعتزموا أن يتعاونوا مع ورثة السيد رحمه الله على إصدار المنار من جديد، وقد تم الاتفاق على ذلك، وصدر العدد الخامس من السنة الخامسة والثلاثين في 18 يوليو 1939) [ص: 253].

1- توفاه الله في: 23/5/1354 هـ الموافق: 22 أغسطس 1935 م .

وكان الشيخ حسن البنا هو رئيس التحرير الجديد.
وفي عام 1372 هـ أصدر الأستاذ سيد قطب رحمه الله كتابه (دراسات إسلامية)، واختار الأستاذ محب الدين الخطيب ليقدم الكتاب إلى القراء، وكان مما قاله الخطيب في هذه التقدمة:
(... كان من حق هذا السِّفر النفيس، أن يتولى تصديره رجل أصلب مني عوداً، وأشد قوة، وأحدث سناً، وأجرأ على مواجهة الناس بالحق. إنه كتاب السنة في أدب القوة، ولا أعرف كتاباً في هذه السنة يتحدث عن الحق بلسان الحق، كما تحدث أخي الألمعي البليغ الأستاذ سيد قطب في هذا الكتاب.
لذلك كان من الظلم له أن يكتب مقدمته إنسان معتدل متئد وهو في العقد السابع من حياته. لقد واجه سيد قطب بكلمة الحق طوائف كثيرة في كتابه هذا، وكلمة الحق مرة، والذين صفع وجوههم بها يتصرفون بأكثر مافي الأرض من قوى الباطل، وهم كثيريون ملء الدنيا، ولا يقف في وجوه هؤلاء إلا المؤمن القوي، فهنيئاً للأستاذ سيد قطب ما متعه الله به من قوة الإيمان).
وقد سمعت العلامة عبد الرزاق العفيفي (1) رحمه الله يقول: (كان الشيخ حامد الفقي يكثر من نقد الأستاذ حسن البنا، وكنت أقول له:

ياشيخ حامد: حسن البنا يقول للشباب في المعاهد والجامعات [إلى الإسلام در] (2)، وعمله هذا مرحلة من مراحل الدعوة وهو مأجور عليه إن شاء الله، فدعه وشأنه وكمّل معهم المرحلة التي تلي المرحلة الأولى.
----
1 - من رموز الدعوة السلفية، كان رئيساً لأنصار السنة في مصر، ثم انتقل إلى الجزيرة العربية، فكان عضواً في هيئة كبار العلماء، ونائب رئيس لجنة الفتوى.
2 - يستخدم العسكريون هذه العبارة في تدريباتهم.

أرأيت أخي كيف كان محب الدين الخطيب مدير تحرير أول جريدة تصدر للإخوان المسلمين، وحسن البنا كان رئيس تحرير مجلة المنار بعد وفاة صاحبها رشيد رضا، كما أن حسن البنا كان من كتاب المجلات السلفية، ومن شاء مزيداً من المعلومات فليتصفح أعداد مجلة الفتح وغيرها.
أظنك أخي قد لمست العطف الأبوي الذي تجلى بسرعة استجابة الخطيب لكل ما طلبه منه الشاب حسن البنا مع ما في ذلك من مغامرة مادية ومعنوية، إذ كيف يتكفل هذا الرجل صاحب الخبرة الطويلة بنفقات مجلة لا يملك أصحابها إلا جنيهين؟، ثم يغامر بسمعته فيقبل إدارة مجلة يملكها شباب ليس لهم سمعة في عالم الفكر والأدب، وقد يعرضونه لمواقف قانونية هو في غنى عنها.
لم يحاول محب الدين تثبيط همة حسن البنا، ولم يقل لهذا الشاب صاحب الهمة العالية لماذا إصدار جريدة أخرى؟ هذه مجلة الفتح التي قد عرفها الناس وأنت أحد كتابها، وصفحاتها مفتوحة لبقية إخوانك... لم يقل هذا ولا غيره لأنه كان يعلم حاجة الدعوة إلى همة الشباب الوثابة، كما أنه كان مقتنعاً إلى أن ساحة العمل الإسلامي لا ينبغي أن تكون وقفاً على شيوخ الأزهر.
وكان الإخوان المسلمون يقدّرون ثقة مرشدهم بخبرة الخطيب وحكمته وسداد رأيه، فعندما نفذّت أجهزة أمن فاروق مؤامرة قتل البنا، طلب الإخوان من نائب المرشد العام أحمد حسن الباقوري استشارة الخطيب في مسألة الثأر للمرشد فأبى عليهم ذلك وحذّرهم منه (1).

---
1 - انظر كتاب (بقايا ذكريات)، أحمد حسن الباقوري.

إنها السنن: هكذا كان الرجال المؤسسون يتعاونون على البر والتقوى وطاعة الله... وهكذا كان الأئمة الأربعة، يتتلمذ صغيرهم على كبيرهم، ويعدلون في تقويم بعضهم لبعض، وقد ذكرنا قبل قليل دفاع الإمام أحمد عن الشافعي، وبيان فضله عليه، وما لم نذكره كثير جداً، وكان من المفترض أن يتمسك التلامذة بنهج شيوخهم، غير أن الذي حدث مع مرور الزمن وتقادم العهد خلاف ذلك. لقد أصبح التزمت والتعصب المذهبي مشكلة المشاكل في تاريخنا، وقلد الأتباع هواة تفجير الخلافات بين أبناء الأمة الواحدة، وخالفوا أئمتهم في دعوتهم إلى الوحدة والائتلاف وهي أصل من أصول الدين الإسلامي، ألا فليحذر إخواننا من استبدال التعصب الحزبي بالتعصب المذهبي.
أخي الداعية: هل أنت ممن يتحدثون أمام الناس عن صالح أعمال إخوانهم من الدعاة الذين يختلفون معهم في الاجتهاد أو الانتماء؟.. وهل تسر إذا سمعت الناس يشيدون بإنجاز حققته جماعة إسلامية لست عضواً من أعضائها، ثم تذهب إليهم مهنئاً مباركاً بما حققوه؟، أم أنك تصمت، ويضيق صدرك، ثم تنطلق قائلاً:
نعم الأمر كما تقولون، ولكن!!، وبعد (ولكن) تذكر مثالب هذه الجماعة، ويفقد هذا الإنجاز معناه، وتصبح موافقتك الشكلية فرصة عندك لانتقاد هذه الجماعة، ومحاولة لتشويه سمعتها.
إن كنت من الصنف الأول فاحمد الله تعالى الذي منّ عليك بنعمة العدل والإنصاف، وإن كنت من الصنف الثاني فحاسب نفسك قبل أن تُحاسَبْ.
وهل يرضيك اغتياب جلسائك للغير، فتشاركهم الحديث، وتقدم لهم معلومات يجهلونها وقد يختلط فيها الحق بالباطل، أو تقابل الحديث بابتسامة تنم عن الموافقة وإن لم تتكلم، أم أنك تتذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من رد عن عرض أخيه كان حقاً على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة) (1)، فتذب عن عرض أخيك، وتنصفه في غيبته، وتدفع عنه الظلم، وتلقّن

المستمعين درساً في حرمة الغيبة والنميمة... لا تتردد أخي المسلم في اختيار الطريقة الثانية.

---

1 - أخرجه أحمد في المسند: 6/449، وقال صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى: (من حمى مؤمناً من منافق [أراه قال] بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلماً بشيءٍ يريد شَيْنَهُ به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال)، صحيح أبي داود: 4086، 3/924.

وأنت يامن أكل بعض إخوانك لحمك، وتمادوا في ظلمك، لا تقابل السيئة بمثلها، قال تعالى: {والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين} [آل عمران: 134]، وإياك والاستدراج إلى مهاوي الفتن، واترك مجالاً لظالميك ليحاسبوا أنفسهم، وتمثل قول الشاعر:

وإن الذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني عمي لمختَلِفٌ جِدّا

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

ولا أحمل الحقد القديم عليهمو ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

لهم جُلُّ مالي إن تتابَعَ لي غِنىً ... وإن قل مالي لم أُكَلِّفْهُمُ رِفْدَا (1)

---

1 - للشاعر: المقنع الكندي، ديوان الحماسة.

اعلم أخي الداعية أن من العدل المسارعة إلى الاعتذار من أخيك عندما ترتكب خطأً نحوه، كما أنه من العدل قبول الحق من المخالف، وإن كان هذا المخالف جماعة، ولا يجوز لك استئذان جماعتك في مسألة قبول الحق، فالحق أقوى من الجماعات ومن الرجال مهما بلغ شدة إعجابك بهم، وعظيم تقديرك لعلمهم وفضلهم... فارفع شعار العدل في جميع أمورك إذا أردت أن تعود هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس.

نحو كيان جديد (الحلقة 21)
الحوار بين أهل السنة

السلفية بين الولاة والغلاة

التحرير
كل من يتطلع إلى مشروع كبير الأهمية، كثير النفع، لابد أن يتجه في البداية نحو أقرب الناس إليه ممن يشترك وإياهم بقناعات يصعب أن تنفصم عراها، ومن هنا نفهم لماذا اتجه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بداية الدعوة إلى عشيرته الأقربين، ثم إلى الذين يعرفهم جيداً من أصحاب الخلق والفضيلة.
وأقرب الناس إلينا ونحن نعمل من أجل كيان جديد "أهل السنة"، فهم أهلنا وعشيرتنا، بل إن رابطة العقيدة أقوى وأمتن من رابطة النسب، فليس هناك ما يمنع من قيام هذا الكيان إذا صدقت النوايا، وتحددت الأهداف، واتخذت التدابير اللازمة لإنجاح هذا الحوار، أما حوار السني مع من وقع في بدعة مكفرة فإنه - وإن كان مطلوباً - قليل الجدوى لاسيما إذا كان هذا المبتدع من الداعين إلى بدعته، ولا ينبغي هدر الوقت في أمور قليلة الجدوى، وعلى حساب أمور أخرى تبشر ببزوغ فجر الأمل المرتقب إن شاء الله.
ونقصد بأهل السنة الصنفين الآتيين:
الصنف الأول: أهل السنة الذين يلتزمون بعقيدة السلف ومنهجهم، وهؤلاء هم عصب هذه المحطة، وعماد كيانها المنتظر.
الصنف الثاني: لا ينكرون - بشكل عام - انتماءهم لأهل السنة، ولا يدركون بصورة واضحة ماذا يعني هذا الانتماء، وماهي التكاليف المترتبة عليه؟!، والتعامل مع هذا الصنف ليس بالأمر اليسير لأن المكانة الاجتماعية وضعتهم في مقام من لا يقبل إلا أن يكون أستاذاً، وهو

لا يحمل مؤهلات الأستاذ، غير أنه لابد من الرفق بهم، والصبر على أخطائهم.[1]
أما الصنف الأول، فالحوار معهم يقودنا لامحالة إلى الحديث عن صنفين آخرين من الناس يرفعان شعار السلفية، وكل منهما يعتقد أنه الجهة الوحيدة التي تمثل هذا الاتجاه، ولا يرى أية شرعية لغيره، ومن ثم فالقول الصادر عنهم في نظرهم صحيح دائماً، ومن يخالفه مخطيء دائماً بل مبتدع وضال مضل.
ولو كان لي حق الاختيار لآثرت عدم الكتابة عن هذين الحزبين لأسباب كثيرة: منها أن أفكارهم ومواقفهم تتعارض مع أجواء الحوار التي تسيطر عليها روح التفاؤل، ومنها حرصي على تجنب خوض معارك مع أمثالهم، ويعلم الله أنني لو التفت إلى ما يقولونه عني لما عملت بغير الردود، وحسبك بالسلبيات التي تثيرها الاتهامات والرد عليها ثم الرد على الرد، وهذا الذي يريده أعداؤنا ويعملون من أجله.
ولكنني لست مخيراً لأن الإعلام العالمي روَّج بضاعة بعض هؤلاء الحزبيين، وأعطاهم أضعاف حجمهم الحقيقي، وصار كل من يريد أن يشوه مفهوم الدعوة الإسلامية يشير إلى هذين الحزبين أو إلى أحدهما، وإنني لو قفزت عن عرض هذه المشكلة لجاء من يسألني: عن أي الجماعات السلفية تتحدث؟!، ولماذا لا تتحاورون فيما بينكم، وتعملون من أجل تحقيق وحدة الصف السلفي؟!، ولا يجوز لي إغفال الجواب على مثل هذا السؤال الجاد.
وإذا كان لابد لي من ركوب هذا المركب فقدوتي في ذلك أئمة السلف الذين صنفوا كتب الفرق، وبينوا انحرافاتهم عن المنهج الحق، وواجهوا أهل الأهواء ففندوا أباطيلهم، وحسبي في ذلك قول الإمام أحمد بن حنبل الذي قيل له: "الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع، فقال: إذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين، وهذا أفضل".[2]
وأسأل الله تعالى أن يكون عملي هذا خالصاً لوجه الله تعالى، وأن لا يجعل لنفسي حظاً فيما أقوله وأكتبه.
هذا وقد قسمت البحث إلى الفصلين الآتيين:

---

[1] - سوف أتوسع في الحديث عن هذين الصنفين - إن شاء الله - في الجزء الثالث من الوحدة الإسلامية - منهج الوحدة - .
[2] - مجموع الرسائل والمسائل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: 4/110.

الفصل الأول: حزب الولاة.
الفصل الثاني: حزب الغلاة.
وقسمت الحديث عن حزب الولاة إلى الفقرات الآتية:
1 - نبذة عن نشأتهم.
2 - من يوالون ومن يعادون؟
3 - التستر بالعلماء.
4 - فقه الواقع.
5 - الحاكمية.
6 - نتائج بنوها على أكاذيب لفقوها.

<u>نبذة عن نشأتهم</u>

ليس في إطلاق هذه التسمية أي تجن عليهم، ومن يعد إلى رسائلهم وأشرطة محاضراتهم يجد أن أهم ما يجتمعون عليه ويفاصلون من أجله مسألة الولاء التام والانقياد الكامل لمن يسمونهم "ولاة أمور المسلمين"، وقد يتفقون مع غيرهم في جميع أمور الاعتقاد، ويختلفون معه في هذه المسألة فيخاصمونه من أجلها أشد المخاصمة، ويصبح عندهم مبتدعاً وهجرُه واجب.
أما إنهم حزبٌ - مع أنهم يحاربون الأحزاب ويرونها ابتداعاً في الدين - فهذا أيضاً حقيقةٌ، وما الحزب إلا قاعدة، وقيادة، ومنهجٌ، وأهدافٌ، وهم كذلك، ولا يغير من الحقيقة شيئاً عدم اعترافهم بالاسم، أو اختلاف أهدافهم ووسائلهم عن أهداف ووسائل الأحزاب الأخرى، ومن أهم ما يميزهم عن غيرهم طبيعتهم العشوائية في العمل، فهم حزب فوضوي لا ينضبط أعضاؤه إلا في مسألة الولاء لصاحب الأمر والنهي والسلطان.
ظهر هذا الحزب فجأة بعد حرب الخليج الثانية[3]، وبعد ولادة ما يسمى بالنظام العالمي الجديد الذي انفرد الأمريكان بقيادته، وبعد أن أصبحت هذه القيادة الأحادية لا تخشى من الحديث عن أهدافها الرامية إلى إخضاع المنطقة لسيطرتها الكاملة، وأنها لن تقبل بعد الآن منافساً لها، كما كان الحال أيام الحرب الباردة، كما أنها لن تقبل المساس بوكلائها اليهود، وستمنحهم دوراً قيادياً متميزاً بعد فرض ما يسمونه بالسلام على الحكام

[3] - دخلت القوات الأمريكية وحلفاؤها الكويت بتاريخ: 26/2/1991 م.

العرب الذين لا هـمَّ لهم إلا المحافظة على كراسي الحكم، ولو كان ذلك على جماجم شعوبهم.
ومما يعلمه الأمريكان بالضرورة أن الإسلاميين وحدهم سيقاومون هذه الأهداف بما يتيسر لهم من إمكانات، وأنهم لن يستسلموا بحال من الأحوال، إذن: فهم أعداء النظام العالمي الجديد، وهم الإرهابيون الأصوليون، ولابد من تعبئة الرأي العام العالمي ضدهم، ولابد من استخدام جميع الأسلحة في حربهم وفي اجتثاث شأفتهم، ومن أخطر هذه الأسلحة وأشدها فتكاً شق الصف الإسلامي من داخله.
وإن أكثر ما يثير أمريكا ووكلاءها ويزعجهم اكتشافها لهذا التيار المتميز من العلماء وطلبة العلم الذي ترددت أصداؤه في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وخاصة قبيل وأثناء حرب الخليج الثانية، هذا التيار السلفي الذي يرفع لواء الدعوة الإسلامية بمفهومها الشمولي، والمتحرر من التبعية للظلمة والدفاع عن نقائصهم، والتستر على مخازيهم، وأبرزها سعيهم الحثيث لإرساء جذور العلمانية، وموالاتهم أعداء الإسلام... هذا التيار - أو قل هذه النهضة - باستقلاليتها، ومفهومها الشمولي، وطرحها الجاد؛ أرعبت الذين يتاجرون بهيكل الدعوة السلفية الذي جردوه من روحه، وحنطوه ووضعوه في خزانة للعرض فقط، فلابد - إذن - لمحاربة هذه النهضة من اللجوء إلى رفع الراية نفسها التي اجتمع عليها أنصار هذا التيار، على طريقة أصحاب الأهواء في استغفال جماهير الناس، وسحب البساط من تحت من يجتمعون عليهم ويثقون بهم، وهي لعبة مكشوفة وإن أحدثت شيئاً من البلبلة والتشويش، وأمرها إلى افتضاح وزوال إن شاء الله.
هذه هي الظروف العالمية والإقليمية التي رافقت ولادة حزب الولاة، وقد أحسن أحد الإخوة الأفاضل عندما أطلق عليهم لقب "طالبان"، وطالبان حزب أفغاني صنعته المخابرات الباكستانية، وزودته بكل ما يحتاج إليه من مال وعتاد وخبراء، ووجهته نحو كابل لإسقاط الحكومة المعادية لحكومة باكستان، وأصبحت أجهزة الإعلام العالمية بين عشية وضحاها تنقل تهديدات فضفاضة يطلقها رجال نكرات لا يعرفهم أحد

من قبل، ولا يثق بطريقة نشوئهم، وصحة مواقفهم، وسلامة أهدافهم.
ولسائل أن يسأل: كيف ينشأ هذا الحزب فجأة ومن غير مقدمات في أرض الجزيرة العربية المعطاء، ثم يكون له امتداد في العالم الإسلامي، وإذا قبل بعض الناس - في البلد الذي نشأ فيه هذا الحزب - بالقيام بأدوار مؤسفة تخدم الظالمين في بلدهم وحدهم؛ فما الذي يدعو الآخرين في غير هذا البلد إلى الزج بأنفسهم في هذه الفتنة؟!
وفي جوابنا على هذا السؤال نقول: إن الذين صنعوا هذا الحزب استخدموا فئتين من الناس:
الفئة الأولى: مشبوهة، والذين يعرفونهم يعرفون عنهم الكثير من الشواهد التي تؤكد ارتباطهم الوثيق بالظالمين، ومثلهم كمثل الجند الاحتياطي يُدعون عند الحاجة، فلا يتخلف أحد منهم، ويتكون منهم خلال أيام قليلة جيش بأسلحته الكاملة... وقد صدرت الأوامر الصارمة لهم بالتحرك خلال حرب الخليج الثانية، فتحركوا، واستنفروا كل من كان على شاكلتهم في بلدان العالم الإسلامي، وراحوا ينفذون الأوامر والتعليمات الصادرة إليهم.
الفئة الثانية: وهؤلاء معروفون أيضاً، ويتوارثون هذه الصنعة جيلاً بعد جيل، فميادين معاركهم وحروبهم الطاحنة لا تتجاوز الساحات الإسلامية، ويظنون بأنهم المسؤولون عن الدعوة السلفية، ومن لا يعرفونه ليس سلفياً ولو كان من دعاتها الأخيار، وإذا سئلوا عنه، فلا يجيبون إلا بعد الاختبار، ويكفي أن يجدوا عنده غلطة واحدة ليصبح عندهم من المجروحين، لأن كل من وقع في بدعة فهو مبتدع... وهذه القاعدة دفعتهم إلى تضخيم أخطاء الدعاة والجماعات، والانصراف التام إلى تجريح الناس وتفسيقهم وتضليلهم.
وإن هذه المعارك التي لا يخبو لهيبها دفعتهم إلى التعاطف مع كثير من الجهات الرسمية في اعتداءاتها المستمرة على الدعاة العاملين لأن عدو العدو صديق، ولهم في ذلك تبريرات سقيمة وسمجة، ولولا الإطالة لذكرت أمثلة كثيرة على ذلك.

وهؤلاء وأولئك ساروا في طريق واحد، ولم يعد هناك كبير فرق بينهما، بالاضافة إلى بعض الطيبين الذين يحسنون الظن بهم، فيقعون في حبالهم.
وإذن: لا دخان بلا نار، فالجيش الاحتياطي موجود، والحاجة ماسة إلى استنفاره استنفاراً يتناسب مع خطورة الأوضاع التي يخشاها الظالمون، والجدير ذكره في هذه المسألة ظهور هذا الجيش بطريقة لم تكن معهودة من قبل.
وفي ختام الحديث عن نشأة هذا الحزب فإنني أتوجه بالشكر لدعاة كرام سبقوني في التصدي لدعاة الفتنة، فتتبعوا كتبهم وأشرطة محاضراتهم، وفندوا شبهاتهم، وكشفوا تناقضاتهم وجهلهم.
وقد استفدت كثيراً مما كتبوه، وعرفت جوانب مشرقة من فضائل هؤلاء الإخوة الدعاة من خلال هجوم زعماء حزب الولاة[4] عليهم ماكنت أعرفها من قبل، ورحم الله من قال:

وإذا أراد الله نشـــــــر فضيلة طويت أتاح لها لســـان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ماكان يعرف طيب عرف العود

فجزى الله إخواننا خير الجزاء عن كل جماعة وعن كل داعية دافعوا عنه وعنها، وذبوا عن عرضه وعرضها، وأسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته الحسنى أن يصدق فيهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:
"... وما من امرىء ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته".[5]

<u>من يوالون ومن يعادون</u>

من أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، قال تعالى: {إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون} [المائدة: 55 - 56].

---

[4] - فليراجع من شاء كتاب "جماعة واحدة لا جماعات، وصراط واحد لا عشرات" لربيع المدخلي.
[5] - أخرجه أبو داود، وأحمد، وقال الألباني: حديث حسن، انظر صحيح الجامع الصغير: 5/160.

وقال جل وعلا: {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله، إن الله عزيز حكيم} [التوبة: 71].
وقال: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق} [الممتحنة: 1].
وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب"[6] .
وللحديث روايات أخرى من المفيد ذكرها، ففي حديث عائشة: "من عادى لي ولياً" وفي رواية لأحمد: "من آذى لي ولياً" وفي أخرى له: "من آذى" وفي حديث ميمونة مثله: "فقد استحل محاربتي" وفي رواية وهب بن منبه موقوفاً: "من أهان وليي المؤمن فقد استقبلني بالمحاربة" وفي حديث معاذ: "فقد بارز الله بالمحاربة" وفي حديث أبي أمامة وأنس: "فقد بارزني".
"والمراد بولي الله" المواظب على طاعته المخلص في عبادته، وقد استشكل وقوع المحاربة، وهي مفاعلة من الجانبين مع أن المخلوق في أسر الخالق، والجواب أنه من المخاطبة بما يفهم، فإن الحرب تنشأ عن العداوة، والعداوة تنشأ عن المخالفة، وغاية الحرب الهلاك، والله لا يغلبه غالب، فكأن المعنى: فقد تعرض لإهلاكي إياه، فأطلق الحرب وأراد لازمه، أي أعمل به ما يعمله العدو والمحارب"[7].
قلت: توعد الله جل وعلا من آذى له ولياً واحداً بالمحاربة[8]، ومن حارب الله فقد تعرض لهلاكه... فكيف بمن آذى جمهور أولياء الله من العلماء والدعاة والجماعات الإسلامية؟!، وكيف بمن وضع هؤلاء الأعلام المصلحين الذين جاهدوا ويجاهدون من أجل أن يكون الدين كله لله في مرتبة اليهود والنصارى؟!، وكيف بمن يعتقد أنهم أضر على الإسلام من الكفار؟!.

---

[6] - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب التواضع.
[7] - فتح الباري: 14/126 ، وهذا شرح ابن حجر للحديث، مكتبة البابي الحلبي.
[8] - أوجب الله على كل مسلم محبة أخيه المسلم ومناصرته والذب عن عرضه، وحرّم جلَّ وعلا الظلم والبغضاء والشحناء بين المسلمين، وشبه صلى الله عليه وسلم المسلمين بالجسد الواحد، كما أقسم صلى الله عليه وسلم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان مؤمناً. ولن يكتمل الإيمان إلا بالتحابب بين المسلمين. وقد تحدثت عن ذلك كله في الجزء الأول من الوحدة الإسلامية، فصل "الأدلة من الكتاب والسنة على وجوب الدعوة إلى الوحدة والائتلاف".

وكيف بمن والى الظالمين، وانحاز إليهم في اعتداءاتهم المستمرة على أولياء الله وحملة راية الهدى والصلاح؟!، أحسب أن هناك أكثر من قارىء سوف يتساءل: وهل هناك من طلاب العلم من يفعل ذلك؟!.

<u>شواهد من أقوالهم:</u> نعم هذا ما يقوله سلفيو حزب الولاة، فهذا شيخهم وإمامهم ربيع بن هادي المدخلي[9] يقول عن بعض ما كان يحدث من اشتباكات في أفغانستان بين بعض الأحزاب والجماعات الإسلامية وبين جماعة سلفية:
"... حتى الجماعات القطبية التي تلبس السلفية وقفت كل فصائلها مع أعداء السلفية وسفاكي دمائها يؤيدونهم وينصرونهم لا يختلف موقفهم عن مواقف الروافض وغلاة التصوف، واتخذت هذه الجماعات أرض أفغانستان مراكز ومباءات لحرب السلفية وللدراسات التكفيرية وتعلم فنون الإرهاب والتخريب والتدمير في سائر بلاد المسلمين"[10].
<u>تعليق:</u> وها هنا وقبل المضي في سرد شواهدهم أود تسجيل الملحوظات التالية عن قوله الآنف الذكر وعن سائر ما يكتبون:
1 - القطبية أو السرورية مصطلحان يعنيان عندهم كل سلفي يختلفون معه، وأحياناً يقولون "الإخوانية"، وعلى العموم فإن عباراتهم غير منضبطة.
2 - ما قاله المدخلي غير صحيح، ونحن في مجلة السنة استنكرنا اعتداء الأحزاب على السلفيين في "كنر"، ويستطيع من يشاء العودة إلى عدد المجلة الصادر بهذا التاريخ، ونؤكد أن ما كتبناه قد اطلع عليه قوم المدخلي منذ ذلك التاريخ.
3 - قوله هذا ليس أكثر من تقرير علني لأجهزة المخابرات.
ويشير في موضع آخر إلى مخاطر الإخوان المسلمين وجماعة التبليغ فيقول:
"والذي أدين الله به أنه لولا اعتراض هذه الجماعات لجهود أهل السنة حقاً وتغلغلهم في الجامعات والمدارس السلفية وتشويههم المنهج السلفي وأهله

---

[9] - انفرد ربيع المدخلي بقيادة هذا الحزب بعد وفاة محمد أمان بن علي الجامي.
[10] - جماعة واحدة لا جماعات، ربيع المدخلي، ص: 73.

بالافتراءات والشائعات - الإعلام الخبيث - لإطفاء نور التوحيد والسنة وإحلال مناهجهم الفاسدة منهج الإخوان والقطبيين لكان العالم الآن يضيء بأنوار الإسلام الحق، ولكان حال المسلمين اليوم غير الحالة التي يعيشونها اليوم حالة الدماء والإرهاب والتخريب في كل مكان"[11].
وماذا في جعبة المدخلي بعد اتهامه للجماعات الإسلامية بتشويه المنهج السلفي بالافتراءات والشائعات لإطفاء نور التوحيد والسنة؟!.
إن سهام المدخلي التي لا يوجهها إلا صوب الجماعات الإسلامية لا تنتهي، انظر إليه وهو يقارن بين المشركين الذين حاربهم الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وبين الجماعات الإسلامية التي تخصص المدخلي بعداوتها:
"لو كان الإمام محمد يحمل فكر عبد الرحمن[12] لما رفع راية الجهاد ضد جماعات أقرب إلى الفطرة وأصدق لهجة وأفضل أخلاقاً من الجماعات التي ينافح عنها عبد الرحمن التي شهد عليها عبد الرحمن نفسه برداءة أخلاقها وتناحرها فيما بينها وإشاعة الأكاذيب والافتراءات وهذا وأخزى منه يدركه من ينظر إلى أعمال وتصرفات هؤلاء بجدية ويزنها بميزان الحق" [جماعة واحدة: 108].
ويعتقد المدخلي ان غايات الجماعات الإسلامية تضر ولا تنفع، انظر إلى مثل هذا التعميم في قوله:
"فهي جماعات مختلفة المنهاج والغايات والمقاصد، كل جماعة تدعو إلى منهجها، وتسعى لتحقيق غاياتها التي تضر ولا تنفع، وتغرس في نفوس أتباعها الحقد والبغضاء لكل من لا ينضوي تحت رايتها وتفتعل من الأكاذيب والشائعات التي تحطم خصومها ومخالفيها، وكثير منها يبالغ في عدائه للمسلمين فيكفرهم ويرى سفك دمائهم واستحلال أموالهم وأعراضهم، ويفعل بالمسلمين مالا يفعله باليهود والنصارى". [جماعة واحدة: 99].
ويقول عن الإخوان المسلمين في شريط صوتي:
"الإخوان المسلمون أضر على الإسلام من الكفار الواضحين لأن المسلمين لا يخدعون بالكفار ولكن

---

[11] - جماعة واحدة لا جماعات، ربيع المدخلي، ص: 75.
[12] - يقصد: العالم السلفي الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق حفظه الله.

يخدعون بهؤلاء المضللين المبتدعين يخدعون بهم ويقعون في البدع والضلالات بسببهم".
ويكرر المدخلي مثل هذا القول الظالم المجافي للحقيقة والصواب في سائر كتبه ودروسه، ومن ذلك قوله:
"فيصدق عليهم - أي الجماعات الإسلامية - قوله تعالى: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله}"[13]، أما اتهامهم بموادة اليهود والنصارى أو أشد من ذلك فيصعب تعداده من كثرته.
ويقول عن الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق: "إن عبد الرحمن يحترم رؤوس أهل البدع المعاصرين، ورؤوس أهل الفتن الحزبيين مثل سيد قطب، والبنا، والمودودي، وكما بلغني الترابي ومن دار في فلك هؤلاء ويدافع عنهم ويتولاهم" [جماعة واحدة: 194].
ربيع المدخلي كان سلفياً، ولم تمنعه سلفيته من الانخراط في صفوف الإخوان المسلمين، ثم اكتشف بعد عشرة طويلة أنهم أعداء للمنهج، فكيف خفيت عليه هذه المسألة عندما كان يتتلمذ على كتبهم وعلى شيوخهم مع أن الكتب لم تتغير وكذلك الشيوخ...
واكتشف أيضاً أن الجماعات الإسلامية أخطر على الإسلام من الجماعات التي حاربها الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، كما اكتشف أنهم أضر على الإسلام من الكفار الواضحين.
وأثنى المدخلي على سيد قطب في كتابه "منهج الأنبياء"، ثم اكتشف ضلالات كثيرة له ويستغرب في كتابه [جماعة واحدة، ص 163] كيف لم يكفر السلفيون سيد قطب، بل ويعتبره رأساً من رؤوس الفتن الحزبيين.
هذه الاكتشافات الخطيرة التي انفرد المدخلي وأعضاء حزبه بها، والتي كانت موضع استنكار العلماء الكبار الذين نحترمهم ونجلهم، ويحترمهم ويجلهم المدخلي أيضاً، لا نستطيع فصلها عن موقف حكومة بلده من هذه الجماعات، كما لا نستطيع فصلها عن موالاة هذا الحزب لمن تواليه هذه الحكومة، وعداوتهم لمن تعاديه، وهم لا يتسترون في اتخاذهم لهذا الموقف، ولا يخشون من المشي بالنميمة ضد إخوانهم الدعاة، ولم تعد هناك أية

---

[13] - أهل الحديث هم الطائفة المنصورة، ص: 46 - 47.

حاجة إلى تجميع أدلة تثبت قيامهم بدور الجاسوسية لمصلحة ولاة أمرهم، فكتبهم وأشرطة محاضراتهم أصبحت تقارير علنية دون أي خجل أو حياء، وليقرأ من شاء تقريرهم المشهور: (التقرير السري العالمي بين التخطيط والتطبيق)، فإنه إن فعل سيجد هبوطاً مؤسفاً في الأخلاق والمروءة، كما أنه سيجد حشداً هائلاً من الأكاذيب التي يعجزون عن تقديم أي دليل عليها، وسيتساءل بمرارة: هل هؤلاء طلاب علم، وأين هم من علم الدراية والرواية الذي يدرّسه بعضهم في المعاهد والجامعات؟!.

وسيكتشف من يقارن بين هذا التقرير ومؤلفاتهم ومحاضراتهم أنه تلخيص مكثف لها مع بعض الإضافات التي يقتضيها مثل هذا الموضوع السري.

ترى ألا يدري هؤلاء أن عقيدة السلف لا تنفصل عن أخلاق السلف؟!، رحم الله من قال:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في الصـدور لعُظِّما
ولكن أهـــانوه فهان وســـودوا محياه بالأطـــــماع حتى تجهما

نحو كيان جديد (الحلقة 22)
الحوار بين أهل السنة
السلفية بين الولاة والغلاة
حزب الولاة

محمد سرور زين العابدين

وقفنا في الحلقة الماضية عند ذكرنا لشواهد من أقوالهم الدالة على عداوتهم للدعاة والجماعات وموالاتهم للظالمين، وفي هذه الحلقة نكمل ما بدأنا به، ثم نبين حقيقة موقفهم من العلماء الذين يتسترون بهم.

*** * ***

عقيدة المخالفين:
من حق كل من يتابع أخبار هذه الفتنة العمياء، أن يعرف اعتقاد العلماء والدعاة والجماعات الذين يناصبهم المدخلي وأعضاء حزبه العداوة والبغضاء:
فبعضهم: سلفيون في الأصول والفروع، ويبدو ذلك واضحاً أمام كل من يستعرض إنتاجهم العلمي، ويسبر غور مواقفهم، ولقد كان لهم دور كبير في شرح عقيدة أهل السنة والجماعة... وفي تفنيد شبهات أعداء الإسلام، كما كان - ولا يزال - لهم دور لا ينكره منصف في التصدي للمبتدعين، وبيان تهافت أقوالهم، وكان ربيع المدخلي شديد الإعجاب ببعضهم، وهو الذي أطلق

على أحدهم: (ابن تيمية عصره)، وشوهد وهو يوزع بعض كتبه على محبيه.
وحتى في مسالة إنكار المنكر[1] فإنهم لم يخالفوا نهج أئمة السلف في القديم والحديث، ولم يجد المدخلي أي غضاضة في التوقيع على بعض العرائض التي قُدِّمِتْ للمسؤولين وأغاظتهم، كما شارك بعض كبار العلماء في التوقيع على هذه العرائض.
ومن جهة أخرى، فلم يؤثر عن أحد من هؤلاء العلماء والدعاة قول أو فعل مماثل لأقوال وأفعال الخوارج أو غيرهم من الغلاة المبتدعين، وعلى العكس فإن مؤلفاتهم حافلة بالرد على الخوارج وأمثالهم، والناس في العالم يعلمون جيداً أن هؤلاء حماة الدعوة السلفية، والقلة القليلة من الناس الذين يعرفون المدخلي ومن هم على شاكلته، يشهدون بأنهم دعاة تخريب وهدم وتجريح، ومن كان هذا هو صنيعه فإنه لن يجني من الشوك العنب، وسيعلم الذين استأجروهم بأنهم استسمنوا ذي ورم.
ولن يضر علماء هذا الجيل، وأمل هذه الأمة بعد الله تعالى قول المدخلي:
"يسعون لإحلال منهج سيد قطب التكفيري الجاهل (منهج السلفية الجديدة) و (سلفية المواجهة) (سلفية المعتقد وعصرية المواجهة) محل هذا المنهج السلفي العظيم" [جماعة واحدة: ص: 167].
ولن يضرهم أيضاً قول صاحب شريط "الأخطار الداخلية التي تهدد وحدة الأمة": (يأتي الناس فيرون أن هناك خلاف بين من ينتسبون إلى الخط السلفي، طبعاً هناك أناس يزعمون أنهم من السلفيين، لكن ماهم من السلفيين لسنا وهم بشيء، ما نريدهم هؤلاء)[1].
هكذا يرى هذا النكرة أنه مسؤول عن قبول الراغبين بالانتساب إلى السلفية، ورحم الله من قال:
يقولون هذا عندنا غير جائز ومن أنتم حتى يكون لكم عند
أهكذا أصبح السلفيون، وما الموجب لهذا كله؟!
يجيبنا على هذا السؤال أحد كبار العلماء الذي دفعته غيرته الدينية إلى تأليف كتاب يلجم به أفواه هؤلاء الذين

[1] - وهي التي أغضبت الولاة وعملاءهم.
[1] - انظر كتاب (تنبيهات)، لمؤلفه: حامد بن عبد الله العلي، دار التجديد، الكويت، فقد تولى المؤلف جزاه الله خيراً الرد على الأفكار التي طرحها صاحب الشريط.

لبسوا أثواب الجرح والتعديل ليبثوا من خلالها أحقادهم وأكاذيبهم، وعندما تأخر صدور هذا الكتاب، سأله عنه أحد أصدقائه المقربين. فأجاب:
تبين لي أخيراً أن هؤلاء القصابين يعملون في هذا الجانب نيابة عن الدولة، ولا أريد الإقدام على عمل أظهر من خلاله وكأني أواجه الدولة، ومع أني قد انتهيت من تأليف الكتاب فقد قررت عدم نشره.
وكما قال الشيخ - وإن كان قوله جاء متأخراً - هؤلاء يعملون نيابة عن غيرهم، ولو رضي الغير لرضوا تبعاً له، ولقال المدخلي كما قال من قبل: (خلاص، خلاص، نحن إخوة، وليس بيننا خلاف).
أما البعض الآخر الذي يناصبهم المدخلي وصحبه العداوة والبغضاء، فهم جماعات الدعوة، وفي مقدمتهم الإخوان المسلمون، فهم عند المدخلي عقدة العقد، وما من نقيصة في الدنيا إلا وينسبها إليهم، وينقل عنه قوله: إنني أحب فلاناً مع - أني لا أعرفه - لأن الإخوان المسلمين يكرهونه!!.
وهذه الجماعات تنتمي لأهل السنة والجماعة على العموم، وفيهم جهل أحياناً، وقد يقع ناس منهم ببعض البدع، وقد يتعصبون لجماعاتهم تعصباً غير محمود... لكنهم مع هذا كله لم يتخلوا عن أهل السنة والجماعة، وإن مثل هذه الأخطاء لا تبرر شدة عداوة حزب الولاة للجماعات الإسلامية، وإضافة إلى الشواهد التي ذكرناها قبل قليل، نسوق فيما يلي تفسيراً غريباً للحرب العالمية المعلنة ضد الإسلام والمسلمين، يقول صاحب شريط "الأخطار الداخلية التي تهدد وحدة الأمة:
"لكن نحن نقول: إن هذه الجماعات قد أعطت الجانب السياسي، أو ما سموه هم (حرب القصور) أكثر من حجم القضية فجعلوا المشرك يريدون أن يحاربوا من سموه طاغوتاً.
هذا مشرك شرك أكبر، وذلك لعله موحد قد وقع في معصية، فجاء الصراع على الدنيا، واشتغلوا بعد ذلك بالتكفير، وما يسمونه بالجهاد، ونحن نسميه بالإفساد في الأرض... ويأتي السؤال العجيب أنه لمصلحة من تخرب بلاد المسلمين من الذين يستفيد".
ويضيف قائلاً: "... وكل هذا، النتيجة ستكون أن تحكم طائفة من الناس، فتقتل بعد ذلك باسم الدين الطوائف

الأخرى... ولكن نحن نقول: هذا الانحراف في إظهار ما أسموه بتوحيد الحاكمية وإهمال بقية أنواع التوحيد في ابتداعهم هذا، وتجميع الناس عليها واحتياجهم إلى التكفير بعد ذلك ما أسموه بالجهاد..."[1].
أعترف بأنني لم أفهم هذا المقطع، ولا أريد أن أقول للمحاضر: لم تقول مالا يفهم، خشية أن يقول لي: لم لا تفهم ما أقول، فيضيع القارىء بيني وبينه، ومن ثم فخير لي ان ألوذ بقلة الفهم بدلاً من القول:
- الداعية عند هذا المحاضر مشرك أما الحاكم فهو مسلم، ولعله قد وقع في معصية، والمسلم العاصي لا يقارن بالمشرك في الموازين الإسلامية الصحيحة.
- الجهاد يسميه المحاضر بالإفساد في الأرض، وليته شرح هذه النظرية حتى لا نسيء الظن به، بل ليته فرق ما بين الجهاد الشرعي، والجهاد غير الشرعي.
- إذا حكمت جماعة إسلامية لا ينتظر منها المحاضر إلا التقتيل وسفك الدماء.
- الانحراف جاء في إظهار ما أسمته الجماعات الإسلامية بتوحيد الحاكمية، وهذا الانحراف هو الذي قاد إلى التكفير وإلى ما أسموه بالجهاد (على حد قوله)، وفي جوابه على أحد الأسئلة في نهاية المحاضرة قال: إن ما أسموه توحيد الحاكمية محدث ارادوا (أي الجماعات) به قتل توحيد الألوهية فأبدلوه بالحاكمية.
مما يحزّ في النفس أن ما قاله هذا المحاضر يتفق مع أفكار القوم التي يدندنون حولها، فعندما يسمع أحدهم باعتقالات وإعدامات في صفوف الإسلاميين في بلد من بلاد المسلمين تراه يسكت عن هذا الحاكم المستبد - هذا إذا لم يتضامن معه - وينحي باللائمة على ضحايا الظلم والعدوان من أهل الصلاح والإيمان، أما إذا اختلف حاكم من حكام تلك البلاد الإسلامية (وهو ذو تاريخ حافل بالظلم والإجرام مع أصحاب الاتجاه الإسلامي) مع ولي أمرهم فيتذكرون أنه طاغية ومرتد وجزار وغير ذلك من الأقوال والنعوت التي ينتصرون بها لولي أمرهم، وليس لله تعالى.
وخلاصة القول: إن أعضاء حزب الولاة يوالون الظالمين، ويتبرأون من العلماء والدعاة والجماعات

---

[1] - في هذا الشريط وفي غيره من المحاضرات التي اعتمدت عليها نقلت أقوال المحاضرين بما حوته من أخطاء وركة ودون أي تدخل مني، فأرجو أن ينتبه القارىء لذلك.

الذين يضطهدهم الولاة بسبب مواقفهم الشرعية التي يتقربون بها إلى الله سبحانه وتعالى، ولا يكتفون بالبراءة منهم، بل يعتبرونهم من ألد الأعداء، ويرمونهم بما يشاءون من الاتهامات كالابتداع في الدين، وتفريق وحدة الأمة، والخروج على ولاة الأمور، وهم قبل ذلك وبعده لا يستحقون عندهم نصرة، ولا يعطفون عليهم إذا ألمت بهم مصيبة، وهم (أي الولاة) يلتقون في موقفهم هذا من إخوانهم مع العلمانيين، هؤلاء يدفعهم كفرهم وخبثهم، وأولئك تدفعهم أهواؤهم وحماقاتهم، ولكن النتيجة: عداوة لا رحمة فيها.
ترى كم يخسر المسلمون، لو حذفنا العلماء والجماعات الإسلامية من حياتهم، فهل فكّر حزب الولاة بهذا؟!

التستر بالعلماء
عندما نكتب [أو يكتب غيرنا] منددين بالمنافقين من علماء السوء الذين يبيعون دينهم بدنياهم ينبري محامو الولاة للرد علينا:
أنتم تهاجمون العلماء وتقتانون لحومهم المسمومة، ثم يحاولون إثارة الرأي العام السلفي بقولهم: إنهم يقصدون العالم الفلاني وإخوانه في فتواهم كذا وكذا، ونحن - علم الله - لا نقصد العلماء الذين يذكرون أسماءهم ولا نكن لهم إلا كل حب ومودة وتقدير، وقد يجدون أحياناً من لا يزال يحسن الظن بهم، ويصدق أقوالهم، وطالما قلنا وكررنا القول: لقد استفاض علم الناس بحرصنا على إشاعة روح المحبة والتآلف بين عامة المسلمين، فكيف بخاصتهم من العلماء العاملين الذين نفع الله بعلمهم وبجهادهم؟!
وفي طليعة هؤلاء العلماء الذين نحبهم ونوقرهم ونجلهم أئمة الدعوة في هذا العصر أمثالُ: الشيخ رشيا رضا، والشيخ محب الدين الخطيب، والشيخ محمد ابن إبراهيم آل الشيخ، والشيخ عبد الحميد بن باديس وإخوانه قادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والشيخ بهجة البيطار، والشيخ عبد الرزاق العفيفي رحمهم الله رحمة واسعة، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.
ومن الأحياء: الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ محمد ناصر الدين الألباني حفظهما الله، وبارك في عمريهما.

وهؤلاء ليسوا عندنا جميع علماء أهل السنة الذي نحبهم ونجلهم، فغيرهم من الأموات والأحياء كثير وكثير، ولا نقبل أن يكون تقديرنا لهم نابعاً من منطلق إقليمي أو انتقائي.
ومن ثم فإننا لا نعتقد لأحد منهم العصمة، ولا نلقده في كل ما يقوله ويفتي به، وليس في ذلك[1] خلاف بين أئمة السلف في القديم والحديث، وإنما يقع الخلاف عندما نجد أنفسنا مضطرين إلى مخالفة أحد هؤلاء الشيوخ الأفاضل في قول قاله، فترتفع أصوات نفر من أهل الأهواء الذين يتدثروا بدثار السلفية قائلين: من أنت حتى تستدرك على الشيخ وتخالف قوله؟!.
إنني عندما أخالف الشيخ أعلم جيداً بأنني لست أكثر من تلميذ يقدّر شيخه، ويحسن الظن به، ويحرص أشد الحرص على التأدب معه وعدم التطاول عليه، ومع ذلك كله فقد يغلط التلميذ على شيخه، وقد يغلط الشيخ على تلميذه، وكل ابن آدم خطاء.
ونهجنا هذا معلوم عند كل من يعرفنا ويتابع كتاباتنا، وليعد من شاء إلى مجلة السنة العدد الصادر في شهر شوال من عام 1413 هـ، وقد علمت من خلال اطلاعي على بعض أشرطة (الولاة) أن العدد المذكور وصلهم وفهموا مضمونه، ورغم ذلك فهم يراوغون، ويتسترون بشيوخ كرام لا يرضون مسلكهم، ولم يفوّضوا هؤلاء المشبوهين حق تمثيلهم، والدفاع عنهم.
أما غضب (الولاة) مما نكتبه عن النفاق والمنافقين، وإن كنا لا نقصدهم في كثير من الأحيان فيندرج تحت باب قوله تعالى: {يحسبون كل صيحة عليهم} [المنافقون: 4]، وقوله: {في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً} [البقرة: 10]، ويندرج تحت قول الشاعر:
ومهما تكن عند امريء من خليقة وإن خالها تخفي على الناس تعلم
إننا فيما نكتبه عن النفاق والمنافقين ملتزمون بالأدب النبوي: مابال أقوال يفعلون كذا وكذا، فإذا لم يرضى (الولاة) بالستر، وألحوا في السؤال: من تعنون؟!، فأبشروا ولا كرامة:

---

[1] - هذه ميزة رائعة امتاز بها المنهج السلفي عن غيره من المناهج الأخرى، وهيهات للمقلدين الجامدين من الوصول إلى هذا المستوى.

إننا نقصد العلماء الذين أفتوا بمشروعية البنوك الربوية وأباحوا فوائدها، ونقصد أيضاً العلماء يفتون بقتل الدعاة إلى الله، وينحازون إلى صف الطغاة فيبررون جرائمهم، ويزينون قبائح أفعالهم، وهذه الأوصاف تنطبق على نفر منكم - معشر الولاة -، وأولهم كاتب تقرير (التنظيم السري العالمي بين التخطيط والتطبيق)، وجزى الله خيراً كل من ساعد على وصول هذا التقرير إلى أيدي الناس ليعلم الخاصة والعامة فساد أخلاقكم، وسوء معادنكم، كما تنطبق هذه الأوصاف على كتاب تقارير أخرى لم تصل إلى أيدي الناس، وعلى كل من يوالي أعداء الله ويعادي الدعاة ويتبرأ منهم، ولكن هذه الأوصاف لا تشملكم جميعاً، فبينكم من لا يزال يجهل حقيقة هذه الفتنة، وإذا كنتم قد علمتم الآن من نقصد، فتحملوا مسؤولية أعمالكم، وأسفروا عن وجوهكم، ولا تتستروا بغيركم، واعلموا بأننا سوف نستمر في الحديث عن النفاق والمنافقين، وعن كل من يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً.

وما دمنا في صدد الحديث عن الهجوم على العلماء لابد من القول:

إن الذين يعيشون على نهش لحوم العلماء هم الذين جعلوا من الغيبة والنميمة قواعد شرعية، وذلك في قولهم: إن كل من وقع في البدعة فهو مبتدع، وكل من وقع في الكفر فهو كافر، وقالوا أيضاً: المبتدع لا تذكر له حسنات، وهذا هو خلاصة كتاب ربيع المدخلي: (أهل السنة والجماعة في نقد الرجال والكتب والطوائف).

وبعد التأصيل والتقعيد جاء دور التطبيق، وتولى هذه المهمة غلمان أحداث - لا علم ولا أدب عندهم - راحوا يستعرضون سير العلماء والدعاة والجماعات - في القديم والحديث، وكل من وقع في خطأ سجلوا اسمه في قوائم المبتدعين، وسلقوه بألسنة حداد، وتوسع بعضهم في تطبيق القواعد التي رسمها المعلم في كتابه... فكانت هذه الفتنة التي يتحمل المدخلي وزرها ووزر من عمل بها دون أن ينقص ذلك من وزره شيئاً.

وكان للعلماء الذين يتستر بهم المدخلي وصحبه موقف: فبعضهم كان موقفه قوياً، ليس فيه أدنى مجاملة، قال أحدهم في كتاب رد به عليهم:

(وفي عصرنا الحاضر يأخذ الدورُ في هذه الفتنة دورته في مسالخ من المنتسبين إلى السنة متلفقين بِمِرْطٍ ينسبونه إلى السلفية - ظلماً لها - فنصبوا أنفسهم لرمي الدعاة بألسنتهم الفاجرة المبنية على الحجج الواهية، واشتغلوا بضلالة التصنيف).
وقال أيضاً: (ويالله كم صدت هذه الفتنة العمياء عن الوقوف في وجه المد الإلحادي، والمد الطرقي، والعبث الأخلاقي، وإعطاء الفرصة لهم في استباحة أخلاقيات العباد... الخ)[1].
وبعضهم أصدر أكثر من بيان دعا فيه الذين يقعون في أعراض الدعاة وطلبة العلم إلى التوبة مما يفعلونه، وحذّرهم من تفريق وحدة المسلمين وتشتيت صفهم، وهكذا فإننا لا نعرف عالماً واحداً ممن يعتد بقوله وفتواه قد وافق المدخلي وطلابه فيما ابتدعوه، وكان لكل منهم طريقته وأسلوبه في الرد.
صدم المدخلي من ردود العلماء عليه، وسارع كعادته في الرد على بعضهم، وفي تلفيق التهم عليه، وكان بالأمس يطنب في الثناء عليه، وفي عرض مؤلفاته عليه قبل نشرها، وبعض العلماء لا يستطيع الرد عليه بسب علو مكانته، واهتمام عموم السلفيين بفتاويه ومواقفه، وإنه إن فعل فلسوف يخسر الستار الذي يتستر به، ويواجه خصومه من خلفه، ولهذا فقد اكتفى بالهمز واللمز، وهذا الذي ينكره على غيره من الذين يخالفهم ويسميه "منهج الموازنات" أو "المصالح"، وقد يبلغ هذا الهمز حد التصريح، ومن الأمثلة على ذلك مايلي:
1 - سأل طلاب كلية الشريعة بجامعة الكويت ربيع المدخلي عن كلام ينقله الدكتور عبد الرزاق الشايخي عن الشيخ عبد العزيز بن باز، فأجاب وهو في حالة انفعال: (يلبسون على الشيخ، ابن باز ما يعرف الحقيقة، الشيخ ابن باز هم يلبسون عليه... يصيغون السؤال بطريقة تجبر الشيخ أن يوافقهم)[1] .
قلت: لو قال هذا القول غيره لبالغ في التشنيع عليه وفي تسفيهه، فالحقيقة إذا كانت تخالف قناعات المدخلي لا يعرفها ابن باز، وإذا كانت توافق قناعاته

---

[1] - انظر كتاب (تصنيف الناس بين الظن واليقين) للشيخ بكر أبو زيد، دار العاصمة، الرياض، ص: 28 و 29.

[1] - انظر كتاب البديع في بيان منهج د. ربيع، للدكتور عبد العزيز بن خليفة الشايجي، ويقول المؤلف: إن قول المدخلي مسجل بشريط صوتي.

يعرفها الشيخ، ويعرف علم الأولين والآخرين، ولكن المدخلي لم يقل فيما إذا كان هو وفرقته قد اشتغلوا بالتلبيس على الشيخ (بطريقة تجبر الشيخ أن يوافقهم)!!، إن أساليب أصحاب الأهواء متشابهة مهما اختلفت مشاربهم، ومهما تباعدت أزمانهم وأوطانهم.
2 - حفل تقريرهم السري الذي رفعوه لولي أمرهم وأسموه: (التنظيم السري العالمي) بلمز كبار العلماء، ومن ذلك قولهم: (ولما أدرك التنظيم السري هذا الأمر جيداً؛ تعامل مع العلماء الكبار الذين لهم شعبية بكل حذر وانتباه، وأحاط أتباعه، والمتأثرون به هؤلاء العلماء من كل جانب؛ فمنهم من لازمهم بحجة الدراسة عليهم، ومنهم من سعى لهم للحصول على وظائف حساسة في إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد سابقاً - وزارة الشؤون الإسلامية حالياً -، ومنهم من صاروا من المقربين إليهم؛ فكل هؤلاء مارسوا في الفترة الماضية - ولا يزالون - أساليب التعتيم الإعلامي معهم فيما يخص الأحداث الداخلية ونقل أخبارها إليهم، إلى جانب تشويه سمعة السلفيين ومشايخهم المعروفين الذين تصدوا لهذا التنظيم وقادته، وكانت من نتائج هذه الإحاطة وذلك الاحتواء أن حقق التنظيم جل المكاسب التي خطط لها، ومن ذلك: عدم وقوف العلماء في مواجهة علنية مع قادة التنظيم العلنيين الذين سموهم بقادة الصحوة، بل مهدوا لشهرتهم بتقريظ رسائلهم وكتاباتهم وحثوا على التلقي والأخذ عنهم، مما جعل لهم شهرة وصيتاً عالياً داخل البلاد وخارجها، حتى قاربت مستوى شهرة العلماء الكبار - إن لم تكن قد فاقتها - عند عامة المجتمع، أما عند أتباعهم فلاشك أنهم لا يعبرون العلماء، بل قادتهم عندهم هم العلماء وفقهاء الواقع) اهـ.
قلت: قال ربيع المدخلي سابقاً وهو في حالة انفعال: (ابن باز ما يعرف الحقيقة، الشيخ ابن باز هم يلبسون عليه)، وهاهم في تقرير سري يَشُونَ بابن باز وغيره من كبار العلماء، ويتكرر اللمز والوشاية في أمكنة كثيرة من تقريرهم، وبالتالي فهو - أي ابن باز - ليس مثل المفتي السابق الشيخ محمد بن إبراهيم في قوة الشخصية، وفي قدرته على مواجهة الأحداث، انظر إلى قولهم في موضع آخر من التقرير: (إنه ما يزال كثير من العلماء

الكبار غير متصورين لحقيقة هؤلاء الدعاة، فضلاً عن تصورهم لحقيقة التنظيم السري العالمي)، ولهذا فهم يطالبون وزير الداخلية بتنظيم دورات توعية لكبار العلماء، ويرشحون نفراً منهم وآخرين من رجال الأمن كأساتذة في هذه الدورات، فهل هناك إهانةٌ لكبار العلماء أكبر من هذه الإهانة؟!.

3 - فتاوى ابن باز وغيره من العلماء ليست حجة عندهم إذا خالفت ما يروجون من آراء ومواقف، فهذا واحد منهم يقول في رده على المخالف: (لو كان فتاوى المشايخ عندك حجة مقدمة على الدليل إذن لن ننكر لا على أشعري ولا شيعي ولا على صوفي لأن عندهم مشايخ، وإذا قلت: إن هؤلاء مشايخ أهل السنة نقول والنعم منهم نحطهم على رؤوسنا ولكن نقول لك إن الذي خالفهم خالفهم بأدلة وحجج مستعد أن يناظرك عليها، وأن مشايخنا لما يتكلمون هذا الكلام نعتذر لهم، الذين ماعرفوا حالهم نعتذر لهم بهذا العذر، لكن نحن ملزمون بما عرفنا، النقطة قد تكون فتاوى المشايخ ليس مبنية على تزكية الجماعة نفسها بل مبنية على دعوة الجماعة، ثم جماعة التبليغ والله أنا اتعجب، الشيخ ابن باز يقول اخرجوا معهم كي تعلموهم وأنت تمدحهم كجماعة دعوية، زين الناس يخرجون علشان يعلمونهم دينهم، شلون بالله وعندهم بدع، وعلموهم وما يطلع معهم إلا طالب علم، ما يُؤمَنُوا على العامة هؤلاء...) [1] ، ثم يستدل أيضاً بكلام لابن عثيمين ولا يرى فيه تزكية لهذه الجماعة.

مرة أخرى أقول إن اهل الأهواء عندما يحاضرون ويكتبون في مسالة ينتصرون فيها لأهوائهم، لا يخشون من الوقوع في تناقضات، ولا يتقون الله فيما ينقلون عن غيرهم. لقد كذب على الشيخ ابن باز فيما قاله الشيخ عن جماعة التبليغ، بل ولا أعرف أحداً منهم وافق الشيخ في هذه المسألة، فقليل منهم سكت حتى لا يناقض نفسه، وأكثرهم قال مقولة صاحبهم: فتاوى المشايخ لا تقدم على الدليل، والذي خالفهم خالفهم بأدلة وحجج مستعد أن يناظر عليها، وهذا الذي اشتدوا في إنكاره على غيرهم!!

---

[1] - انظر الفرسان الثلاثة، شريط صوتي، وأبقينا القول بأخطائه اللغوية والعامية.

ثم نسمع في شريط آخر شيخاً من شيوخ المحاضر الأول يقول: (ويعني نرجع جميعاً ونقف علىقول علامتنا وإمامنا في هذا العصر الشيخ عبد العزيز بن باز فلا قول لأحد منا). لكنه لم يقف عند قول إمامه في جماعة التبليغ وغيرها من الجماعات، ولا في مسألة التبديع والتكفير، إنما يقف معه فيما يعجبه، ويبالغ فيقول في أحد أشرطته قولاً لم يسبق إليه، ويرفضه الشيخ عبد العزيز بن باز كما يرفضه كل عالم غيور على دينه.

يرد هذا المتعالم على الذين خالفوا فتوى هيئة كبار العلماء في السعودية في مسألة دخول القوات الأمريكية فيقول: (من كان من طلاب العلم إذا رأى إجماع أهل العلم، علماء كبار أجمعوا وأقروا على الجواز ثم هو يخالف، إيش موقفه هذا؟ هذا ما هو فقط مجرد مخالفة هم قطعاً خالفوا لأنهم يبنون مخالفتهم تلك على تحليلات سياسة... على تقريرات يعني سياسية من الجرائد والمجلات الأجنبية والإذاعات وغيرها)، وفي موضع آخر من محاضرته وصف المخالفين لفتوى هيئة كبار العلماء بالسفه.

مما يدعو إلى العجب أن هذا الذي يعتبر الفتوى (إجماعاً) يحمل شهادة دكتوراه في علوم الشريعة الإسلامية، ومن المفترض أن يكون قد درس الإجماع وأنواعه ومتى ينعقد... ولكن لنترك حديثه عن الإجماع، ولنعد إلى تقريره بوجوب الوقوف عند قول العلامة ابن باز، ولا قول لأحد منهم أو من غيرهم بعد قوله، هل كان صادقاً فيما قرره؟!، وهل يلتزم بما يقول الشيخ؟!، لقد أجاب على ذلك بقوله:

(يعني لا يقارن عبد العزيز بن باز ولا غير عبد العزيز ابن باز بما كان عليه شيخ الإسلام رحمة الله عليه، شيخ الإسلام رحمة الله عليه مثل أمور الفتوى وقضايا الإفتاء تختلف عن قضايا التقرير والبيان، ما أحد قرر وبيّن فساد مذاهب الصوفية والمتكلمين مثل شيخ الإسلام رحمة الله عليه، لكن لما ييجون الصوفية أنفسهم يسألون شيخ الإسلام عن بعض مشايخهم وبعض شيوخ طريقتهم يتكلم بكلام جيد جداً يوافق من؟ يوافق كثير من أهواء الصوفية، شيخ الإسلام رحمة الله عليه أثنى على أحمد الرفاعي، أحمد الرفاعي الخبيث الزنديق

أثنى عليه. عندما تكلم مع الرفاعية وناقش الرفاعية قال لهم خلوكم مثل شيخكم، شيخكم كان عنده بعض الكلمات يقول مذهبنا على الكتاب والسنة... [ويمضي الدكتور في هذيانه إلى أن يقول] شيخ الإسلام رحمة الله عليه له ثناء والله نستحي أن نقوله له ثناء على أبو زيد البسطامي الخبيث المجرم صاحب مذهب وحدة الوجود على هذه الدنيا [ويقول بعد شيء من الاستطراد]: مذهب البسطامية يعني مذهب اليزيدية، خبيث مجرم زنديق ملحد في دين الله عز وجل يثني عليه شيخ الإسلام، ولكن نقول: دينُ الله عز وجل لا يتعلق بشيخ الإسلام ولا بغير شيخ الإسلام، أخطأ، فإن أردت أن تقول: قل أخطأ شيخ الإسلام).

أين البداية من النهاية؟، وأين القول من التطبيق؟، لقد كان يقول قبل قليل: نرجع جميعاً ونقف على قول علامتنا وإمامنا في هذا العصر الشيخ عبد العزيز بن باز، فلا قول لأحد منا، ثم رمى بقول إمامه عرض الحائط في مسألة الجماعات وغيرها، وأتبعه بقول شيخ الإسلام ابن تيمية مع اعتقاده بأنه لا يقارن به ابن باز ولا غيره، ولا يحد الدكتور أي حرج من القول (شيخ الإسلام رحمه الله له ثناء [على البسطامي الخبيث المجرم الزنديق الملحد] والله نستحي أن نقوله).

سنواصل في الحلقة القادمة إن شاء الله الحديث عن تسترهم بالعلماء.

نحو كيان جديد (الحلقة 23)
الحوار بين أهل السنة

السلفية بين الولاة والغلاة

محمد سرور زين العابدين

تحدثنا في الحلقة الماضية عن تستر حزب الولاة بالعلماء، وأنهيت الحلقة بعرض مثالين على ذلك:
الأول: عندما قال الشيخ عبد العزيز بن باز قولاً يرضاه المحاضر الدكتور. قال معقباً : "ويعني نرجع جميعاً ونقف على قول علامتنا وإمامنا في هذا العصر الشيخ عبد العزيز بن باز فلا قول لأحد منا.
والثاني: عندما كان لهذا الدكتور نفسه رأي يخالف ابن باز وابن تيمية، قال: "دين الله عز وجل لا يتعلق بشيخ الإسلام ولا بغير شيخ الإسلام، أخطأ، فإن أردت أن تقول: قل أخطأ شيخ الإسلام".
وسوف أعقب في هذه الحلقة على قول الدكتور الأخير، ثم أمضي في الحديث عن تسترهم بالعلماء، ثم أنتقل إلى نقض موقفهم من فقه الواقع.
أين البداية من النهاية؟ وأين القول من التطبيق؟، لقد كان يقول قبل قليل: "ويعني نرجع جميعاً ونقف على قول علامتنا وإمامنا في هذا العصر الشيخ عبد العزيز بن باز فلا قول لأحد منا"، وهاهو يرمي بقول إمامه في الجماعات عرض الحائط، ثم يتبعه بقول شيخ الإسلام ابن تيمية مع تأكيده بأن قول ابن تيمية لا يقارن به قول ابن باز ولا غيره، ولا يجد هذا الدكتور حرجاً من القول: "شيخ الإسلام رحمة الله عليه له ثناء والله نستحي أن نقوله له ثناء على أبو زيد البسطامي الخبيث المجرم صاحب مذهب وحدة الوجود على هذه الدنيا".
ماذا أبقى الدكتور من القول؟، وأين هذا الحياء الذي يدعيه تجاه شيخ الإسلام ابن تيمية؟!، ثم يقرر المتعالم أخيراً القاعدة التالية:

"دين الله عز وجل لا يتعلق بشيخ الإسلام ولا بغير شيخ الإسلام أخطأ...، فإن أردت أن تقول: قل أخطأ شيخ الإسلام".
إذن: لماذا يعتبر فتوى هيئة كبار العلماء في السعودية في مسألة دخول القوات الأمريكية في حرب الخليج الثانية إجماعاً؟!، وكيف جوز له عقله اعتقاد فتوى مجموعة من العلماء في بلد من بلدان العالم الإسلامي إجماعاً مع أن عددهم لا يتجاوز العشرين، وخالفهم فيما أفتوا به عدد كبير من علماء المسلمين، وإن كان قد وافقهم آخرون؟!.
ومن بين الذين خالفوهم عدد من العلماء السلفيين، كان في طليعتهم فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ومع أنه في مرتبة ابن باز عندهم، فقد تعرض لنقد واسع، وهاجمه بعض طلبته في بعض وسائل الإعلام السعودية [الصحف]، واتهموه بمختلف الاتهامات، وهذا حال من يقول ما يغضب ولي أمرهم.
كنا نريد من هذا المتعالم تعميم القاعدة التي انتهى إليها: "فإن أردت أن تقول: قل أخطأ شيخ الإسلام"، وأن لا يحرِّم على غيره ما يبيحه لنفسه ولرفاقه في الحزب.
4 - قرر الدكتور إياه في شريط صوتي القاعدة التي خاضوا أهم معاركهم من أجلها: "أبداً كل من قام بالبدعة، كل من فعل بدعة فهو مبتدع ما في كلام، قولاً واحداً" [1].
ويضيف قائلاً: "... ومن وقع في الكفر فقد كفر، ومن وقع في البدعة فقد ابتدع، ومن وقع في المعصية فقد عصى. ومن دخل في الإسلام فقد أسلم... الآن لو جانا أكبر كافر على وجه الأرض وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، إيش نقول: نقول أسلم فلان. إن قال كلمة كفر واستهزأ بالله وبرسول الله... نقول: كفر فلان، والآن يتردد هذا الكلام، الآن الذي يقال ويحكى أن ما نكفر المعين واللي وقع بالبدعة ما هو مبتدع، واللي وقع بالكفر... يا شيخ ماعاد يبقى كفر في الدنيا أبداً، يعني إن جينا نبرر، ويعني نأخذ الناس بمقاصدها ما هو صحيح، من وقع في الكفر فقد كفر،

---

[1] جميع هذه الأقوال والتي تليها وردت في شريطين تحت عنوان: (الفرسان الثلاثة)، فليعد إليهما من يشاء.

ومن وقع في البدعة فقد ابتدع فهو مبتدع، ومن وقع في المعصية فهو عاص ومن دخل في الإسلام كذلك فهو مسلم، مافي فرق أبداً" اهـ.
إذن القرار نهائي "قولاً واحداً - كما زعم"، وغير قابل للمفاوضة أو المساومة، ولا يجيز التبرير، ومن نافلة القول: إن القاعدة عامة لا تخص قوماً دون قوم، ويعبر عن ذلك بقوله: "مافي فرق أبداً"... ويشاء الله سبحانه وتعالى أن تتكشف تناقضات هذا الدكتور على رؤوس الملأ من خلال رده على السؤال التالي:
"السائل: عندما ألبسوا الملك فهد الصليب اختلف علماء السعودية في تكفيره.
الدكتور يقاطع السائل قائلاً: لا، لا مو صحيح.
السائل: وهناك من قال: إنه مرتد، وهناك من توقف فيه (الجمهور يضحك)... القول يا شيخ يتردد هنا بين شباب كثير.
الدكتور: هل لبس الصليب كفر؟
السائل: يقولون إن...
الدكتور مقاطعاً: هل يعني من يفعل الكفر كافراً!!، إذا كان الحكم بغير ما أنزل الله قالوا فيه كفراً دون إيش؟ دون كفر، وبعدين هل هو فعلاً صليب أنا سمعت أنهم اختلفوا فيه.
السائل: قالوا: إنها قلادة وفي آخرها...
الدكتور مقاطعاً: يعني هذه... هذه طقوس وهذه يعني: إيش يسمونها؟ ما أدري شنو بروتوكول يعني تعارفوا عليها، إذا جاء هنا يلبسونه الوسام، وكل دولة لها إيش؟ لها أوسمة، تبادل الهدايا وتبادل مثل هذه الأمور من هذا الباب يعني كما كان في عهد هارون الرشيد وتبادل الهدايا مع الملوك والكفار ومع غيرهم" اهـ.
آثرت نقل القاعدة التي قعدّها الدكتور وحزبه: "من وقع في الكفر فقد كفر"، وهي عنده عامة شاملة - كما زعم - ثم نقلت الحوار الذي دار بينه وبين السائل بتمامه لأصل من وراء ذلك إلى النتائج التالية:
أ - من أين سمع نبأ اختلاف الناس بهذا الذي تقلده فهد في احتفال بلدية لندن[1] به؟!، فالناس في جميع بلدان العالم (مسلمهم وكافرهم) شاهدوا على شاشة التلفاز الصليب وهو يتدلى على صدر فهد، ونشرت الصحف

---

[1] دخلت زيارة ملك السعودية لبريطانيا يومها الأول في: 25/3/1987 م.

الأجنبية الخبر والصورة، ولم نسمع أن أجهزة الإعلام السعودية قد نفت هذا الخبر رغم الضجة التي أثارها، فهل الدكتور ملكياً أكثر من الملك؟، أو أن أحد شيوخه في حزب الولاة أخبره بأمر هذا الاختلاف، فتجاهل تواتر الخبر، وأغلق عقله على قول شيخه؟.
ب - قال الدكتور: "هل لبس الصليب كفر؟"، وقال أيضاً: "هل يعني من يفعل الكفر كافراً؟"، هذه قاعدتك أيها الدكتور التي قررتها بحزم ودون أي استثناء، فهل تصبح غير قابلة للتطبيق إذا كان هذا الذي فعل الكفر هو ولي أمر قادة حزب الولاة؟، أم أن الصليب قد تحول إلى هلال[2] ببركة خادم الحرمين؟!.
ليت هذا المتعالم بيّن لنا كيفية تطبيق هذه القاعدة، ولماذا لم يلتمس مثل هذه الأعذار لإخوانه الدعاة وطلاب العلم؟.
ج - لا أعتقد أن رجلاً واحداً من أهل نجد[3]، وفي مثل سن فهد بن عبد العزيز يجهل حكم لبس الصليب لاسيما إذا كان غير مكره على لبسه، ولو كان الدكتور ملماً بعض الشيء بفقه الواقع لأدرك ذلك، وهناك أمثلة كثيرة تنفي الأعذار التي التمسها الدكتور للملك السعودي: منها: أن اليهود الحاكمين في تل أبيب لا يقبلون في زياراتهم للدول الأخرى، "أي بروتوكول" يتعارض مع تقاليد دينهم.
ومنها: ما يذكره مسؤول التشريفات الجزائرية في عهد الشاذلي بن جديد في ذكريات له نشرتها إحدى الصحف قال: زارت رئيسة وزراء بلد إسلامي الجزائر، وكان من عادتها أن لا تصافح الرجال في لقاءاتها وزياراتها الرسمية، وخشينا أن يغلط الرئيس فيمد يده لمصافحتها، فترفض مد يدها، فيؤثر مثل هذا الموقف على علاقات البلدين، لهذا فقد اتفقنا مع الرئيس أن يستقبلها وقد وضع يديه خلف ظهره، وقد كان ذلك.
فإن قال الدكتور: لا يجوز تشبيه خادم الحرمين باليهود أو بامرأة؟! قلنا له: أوترضى لخادم الحرمين موقفاً أضعف من موقف امرأة أو من موقف الزعماء اليهود؟ ومن ثم فحديثنا معك عن "البروتوكول"، أو عن هذا الذي سميته طقوساً، فلا تنقلنا إلى موضوع آخر،

---

[2] وهذا لا يعني جواز اتخاذ قلائد على شكل هلال في الاحتفالات العامة التي تقام لرؤوساء الدول.
[3] التي أكرمها الله بدعوة التوحيد التي نهض بها الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

فتتشعب بنا السبل، وكل الذي أردنا أن تفهمه أن الضيف الزائر لا يجبر على "بروتوكول" يتعارض مع تعاليم دينه أو تقاليد بلده، فإن كان لا يرضيك هذا ولا ذاك فإليك هذا المثال الذي لا تستطيع رده أو الاعتراض عليه.

دُعي الملك فيصل بن عبد العزيز لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية في عهد الرئيس نيكسون ووافق الأول على تلبية هذه الدعوة، غير أنه اعترض على البروتوكول الأمريكي الذي يقتضي استقبال وزير خارجية الولايات المتحدة لأي زعيم يزور بلده، ثم يصطحبه معه إلى البيت الأبيض فيستقبله هناك الرئيس الأمريكي، وأصرّ فيصل على أن يستقبله نيكسون في المطار أو تلغى الزيارة التي كان قد أعلن عنها، وأمام إصرار فيصل اضطر نيكسون إلى خرق "البروتوكول" الأمريكي، واستقبل فيصل بنفسه في المطار، هذا مع أن أمريكا أكبر وأعظم من بريطانيا.

د - كان هذا الدكتور يقول: "يعني لا يقارن عبد العزيز بن باز ولا غير عبد العزيز بن باز بما كان عليه شيخ الإسلام رحمة الله عليه"، وبعد نقله لطائفة من أخطاء شيخ الإسلام ابن تيمية - على حد زعمه - انتهى إلى القول:

"دين الله عز وجل لا يتعلق بشيخ الإسلام ولا بغير شيخ الإسلام، أخطأ، فإن أردت أن تقول: قل أخطأ شيخ الإسلام".

ولا ندري لماذا يكيل هذا المتعالم بمكيالين؟، لأن هذا الخطأ الذي نسبه لشيخ الإسلام - إن صح - أقل عشرات المرات من وقوف من يسمي نفسه خادم الحرمين في محفل عام من محافل النصارى، ثم يقبل طائعاً مختاراً على تقليدهم إياه الصليب... فلماذا لم يقل[4] : أخطأ الملك السعودي، ولا نريد منه غير أضعف الإيمان، ترى هل شيخ الإسلام أهون عنده من فهد؟! أم أنه خشي أن يغضب شيوخ حزبه فراح يراوغ ويداور، وآثر رضى الناس على سخط الله؟!، ألا قاتل الله التقليد الأعمى، والتعصب الحزبي الذميم، والهوى المتبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه.

---

[4] مع أنه كويتي الجنسية، ومثل هذا القول لا يعرضه لأية مسؤولية.

حقاً إن المرء الغيور على دينه ليقف مبهوتاً أمام هذا الذي آلت إليه أحوال الناس في بلد التوحيد!! إذا كان المخاطب رجلاً فقيراً لاحول له ولاقوة ضخم المتعالمون غلطته، وشككوا بنواياه، وسلقوه بألسنة حداد، وإن كان ملكاً أو من أسرته أو من حاشيته التمسوا له جميع الأعذار... وهذا الذي دعا أحد العلماء السلفيين إلى القول لهؤلاء المتعالمين: أنتم تتصدون لشرك القبور، وتسكتون عن شرك القصور، والشرك كله شرك، وكله يتطلب المواجهة دون رغبة أو رهبة.
تصورت وأنا أستعرض هذه المآسي أن الإمامين الجليلين: محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود عادا من جديد، وعُرضت عليهما هذه المسألة ماذا سيفعلان؟!.
أما الأول رحمه الله فقد نهض بدعوته من أجل إزالة جميع مظاهر الشرك، وعرَّض نفسه للقتل مرات ومرات من أجل أن تعود دعوة التوحيد صافية نقية كما كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام، ومن أجل ذلك واجه تزمت المقلدين، ونفاق المنافقين، وحسد الحاسدين، وبطش المستكبرين، ولم تأخذه في الله لومة لائم.
أما الثاني فقد عاهد الأول على أن يكون خادماً لدين الله لا أن يكون الدين خادماً له، ورفع راية الجهاد في سبيل الله، وارتضى بوثيقة مكتوبة أن يكون الحكم للصالحين من أبنائه وأحفاده، ولست أشك بأن الإمامين الجليلين سيأمران بقطع عنق من يتقلد الصليب من أحفادهما إن لم يكن مكرهاً على هذا الفعل.. فقليلاً من التقوى والورع أيها المتعالمون: {واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون}.
5 - محمد بن محمود الحداد عضو نشيط من أعضاء حزب الولاة، وكان من الأعضاء المؤسسين لهذا الحزب في ثوبه الجديد [أي بعد حرب الخليج الثانية]، ومن أشهر الداعين إلى نظريتهم المسماة: "منهج أهل السنة والجماعة في نقد الرجال والكتب والطوائف"، وأراد أن يطبق هذا المنهج على جميع العلماء في القديم والحديث دون أي استثناء، وكان المدخلي وزملاؤه يرون عدم تهييج الناس عليهم، وخاصة أئمة الدعوة السلفية،

وما زال الخلاف يتفاقهم بينهم حتى أدى إلى انشقاق الحداد ومعه نفر من القائلين بقوله، ورافق وقوع هذا الانشقاق صدور كتب وأشرطة يرد بها كل طرف على الطرف الآخر، ولما كان الحداد على علم بأحوال بيتهم من الداخل، فقد بيّن حقيقة موقف ربيع المدخلي من العلماء الذين يتستر بهم:
يقول المدخلي: "لا تردوا على الألباني... لا تهيجوا علينا الألباني... سلفيتنا أقوى من سلفية الألباني"
وقال الحداد معلقاً على قول ربيع المدخلي في كتابه الحد الفاصل (الشيخ الإمام ابن باز): "دعك من النفاق والتمسح بالأحياء، ألست الذي قلت فيه - وصوتك مسجل: (ابن باز طعن السلفية طعنة خبيثة)، ولما ذكرت ذلك في (القول الجلي) وغيره، فرددت على القول الجلي بمجازفاتك، ولم تذكر حرفاً عن هذه الكلمة ولا اعتذاراً، ولا أنها من آثار (مرض السكري الشهير)".
ويقول - أي المدخلي - عن الشيخ محمد بن صالح العثيمين: "لتخرج رايات الشرك من نجد - يعني بسببه".
"أما القدامى [1] فحدِّث ولا حرج: أحمد يؤول، وابن تيمية أعلم من السلف الصالح، وشعبة يتهالك في ركاب رافضي، ومحمد بن عبد الوهاب عنده حماس واندفاع الشباب".
ويقول الحداد عن شيخه المدخلي: "... ثم الكذب - دعك من الكلام عنه، فثمة كذبات كثيرة مسجلة عليك في محاضرات عامة ومجالس خاصة، ومنها الكذبة بزعامة السلفيين، والأخرى بأن صاحبك عانق فلاناً! فهل تنتظر أن نخرج كتاباً أو شريطاً بصوتك في كذباتك فقط؟!، أعرف أنك تتدين بها (المصلحة العامة)" اهـ.
قلت: إن قال قائل: الحداد يقول هذه الأقوال بعد أن اختلف مع المدخلي، فلا يصح الاعتماد عليه، فجوابي على ذلك أنني ذكرتها بعد اعتمادي على طائفة من أقواله وأقوال أنصاره تكفي للحكم عليهم بأنهم يستخدمون التقية في موقفهم من العلماء، وأنهم يقولون في مجالسهم الخاصة أو عندما يُحْرَجون أقوالاً تخالف ما يحرصون على إظهاره، ومن جهة أخرى فصاحب نظرية "منهج أهل السنة والجماعة في نقد

---

[1] لا يزال الحداد ينقل أقوال المدخلي.

الرجال والكتب والطوائف" لابد أن يكيل بمكيال واحد مع الجميع، وإن فعل غير ذلك فهذا منه مخالفة لمنهجه، ولابد أن تدخل هذه المخالفة في إطار "المصالح والمفاسد" وهذا الذي يأخذه القوم على غيرهم، ومن جهة ثالثة: فإن التشنج والانفعالات وردود الأفعال السريعة - وهي من أخص صفات المدخلي - تقود حتماً إلى مثل هذه النتائج، والله أعلم.

نعود إلى الحديث عن هذا الفصيل من حزب الولاة الذي انشق عن فصيل المدخلي:

لقد حافظ "الحداد" على ولائه التام لولاة الأمر في السعودية - مع أنه مصري الجنسية -، فدافع عن الصليب الذي تقلده فهد في احتفال بلدية لندن، وهاجم الذين ينقدون وجود بنوك ربوية في السعودية، أما الأئمة والعلماء في القديم والحديث فكان له منهم موقف آخر قوامه تكفير بعضهم، وتبديع بعضهم الآخر، ومن هؤلاء العلماء الذين تعرضوا لنقده اللاذع:

- ابن حجر العسقلاني، حيث قام بتمزيق كتابه فتح الباري أمام أنصاره.

- الإمام النووي، أيضاً فقد مزق كتابه شرح صحيح مسلم.

وكذلك فقد بدع: البيهقي، والذهبي، وابن حزم، وابن الجوزي، والعز بن عبد السلام، والشوكاني، وغيرهم، وغيرهم لأن دعاة هذا المنهج يكتشفون كل يوم عدداً من الأئمة الذين يستحقون التجريح والتبديع والتكفير، وكان إذا مر ذكر الشيخ رشيد رضا يقول عنه: (السفيه المدعو رشيد)، ولم يسلم من تجريحه من المعاصرين إلا العلماء الذين يغضب ولاة الأمر في السعودية لغضبهم، ووافق المدخلي في تجريح من جرحهم، أما ولاة الأمر في مصر، فلا يعنيه أمرهم[2] إلا إذا كان يتعرض لخلافهم مع الدعاة، ومن الأمثلة على ذلك أنه عندما يتعرض لسيد قطب يكيل له ما يشاء من التبديع والتكفير، ثم يضيف: أراد الخروج على ولاة الأمور!! فقتلوه.

إذن: إن "حزب الولاة" هم الذين يقعون في أعراض العلماء الذين يتسترون بهم، وهم الذين قعدّوا القواعد التي تبيح لهم الغيبة والنميمة والنقد والتجريح... وهذه

---

[2] انظر: "أضواء على فكر دعاة السلفية الجديدة"، للدكتور عبد الرزاق بن خليفة الشايجي الذي نقل أقوال الحداد مما كتبه وقاله، وكذلك شريط الحداد الذي أسماه "أهله السنة بين فئتين .. بين المهدية والصلاحية".

القواعد هي التي صنعت غلو الحداد، وغلو الحداد لابد وأن يتبعه غلو أشد.
أما الدعاة السلفيون الذين يعتقدون أن وحدة المسلمين أصل من الأصول، ويتجنبون كل ما يؤدي إلى الفرقة والشقاق، فهم الذين يحبون العلماء ويقدرونهم، ولكنهم لا يتبعون الواحد منهم في كل ما يقوله ويفتي به.

فقه الواقع

للإسلاميين من العمل السياسي موقفان متباينان:
فناسُ منهم يرون أن العمل السياسي يدخل في إطار الاجتهاد، ولا علاقة له بالحلال والحرام. والاجتهاد في مفهومهم ليس له أي صلة بالاجتهاد الشرعي وضوابطه، إنه آراء تمليها مصالح الفرد أو الجماعة، وتتشابه في كثير من جوانبها مع آراء العلمانيين، إلا أنهم يحرصون على تغليفها بغلاف إسلامي، ومن الأمثلة على هذه الاجتهادات:
1 - مداهنة أهل الكتاب، وزياراتهم في الكنائس وغيرها مهنئين مباركين لهم في أعيادهم، والدخول معهم بحوارات هدفها إقامة جبهة موحدة لأهل الإيمان.
2 - التحالف مع الأحزاب والتكتلات العلمانية من أجل قيام حكومة وطنية برلمانية تلتزم في دستورها وقوانينها رأي الأغلبية.
وآخرون انصرفوا إلى دراسة العلوم الشرعية، وزهدوا بالأحزاب والأعمال السياسية، وقصروا نشاطهم على الدروس المتنوعة في التفسير والحديث والفقه وغير ذلك، وقد استفاد الطلبة من علمهم الجم، ومن استقامتهم على المنهج الحق، وبعدهم عن مواطن الشبهات، لكنهم رغم علو مكانتهم العلمية، فقد كانت فتاويهم لا تخلو من ثغرات لأن بعضهم كان يقع في أخطاء عندما يسقط الفتوى على واقع لم يحسن الاطلاع عليه، وفهم المناط شرط أساسي من شروط صحة الفتوى.
تعهدت فئة من السلفيين بتدارك النقص عند الطرفين السابقين، ونجحوا في تقديم دراسات سياسية وفتاوى شرعية جمعت بين الأدلة الشرعية المحققة، وبين

الإحاطة بواقع العصر ومشكلاته إحاطة جيدة مقرونة بالأدلة والبراهين. فلم يلق جهدهم الإصلاحي الجديد ارتياحاً من دعاة الاتجاه الأول، وقالوا لهم: أنتم لا تفهمون بالسياسة، ومواقفكم هذه تنم عن ضيق أفقكم، وقصور باعكم في هذا الميدان، ولهذا فقد حاولتم حشر الدين في الصغيرة والكبيرة، وما الحرمة في زيارتنا للنصارى في كنائسهم وتهنئتهم بأعيادهم؟ أوليس هذا الذي نفعله نوعاً من أنواع المجاملة التي تحكمها المصالح المرسلة؟!

فقال السلفيون: لقد أوقعتم أنفسكم بجملة من الأخطاء، وتسرعتم في أمر يحتاج إلى روية: فنحن لم نحاول حشر الدين في الصغيرة والكبيرة كما زعمتم، ولكن الدين كل متكامل يشمل عظائم الأمور وصغارها، ومن جهة أخرى فقد اقترفتم أعمالاً خطيرة تصل إلى حد الكفر، ومن هذه الأعمال زيارة النصارى في كنائسهم، وليس صحيحاً البتة: أن مثل هذا الأمر تحكمه المصالح، وإنما يحكمه الشرع، فاتقوا الله، ولا تقدموا أقوالكم على قول الله ورسوله، وحذار أن تكونوا من الذين وصفهم الله جل وعلا بقوله: {قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً}.

قال الآخرون: من أين جئتم، نحن لا نعرف للسلفيين مثل هذه الاهتمامات، فلماذا لا تتركون السياسة لأصحابها الذين خاضوا غمارها منذ عدة عقود، ودفعوا من جراء ذلك الثمن باهظاً؟!.

قال السلفيون: إن السلفية تعني العودة إلى منهج رجال خير القرون أي إلى الدولة التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى الدولة التي أقامها الخلفاء الراشدون ومن جاء بعدهم رضوان الله عليهم... وهؤلاء قدوة لنا في عقيدتهم، وسياستهم وإدارة شؤون حكوماتهم، وفي عبادتهم، وفي سائر أمور دنياهم وآخرتهم، وماكانوا يعرفون هذه التقسيمات التي تتحدثون عنها.

ولعلكم نسيتم أن السلفيين وحدهم - دون غيرهم - أقاموا دولة في العصر الحديث، أقامها الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وتعرفون جيداً

ماذا تعني الدولة، ولم تكن السياسة فيها منفصلة عن قضايا الاعتقاد.
ولعلكم نسيتم أيضاً أساتذة السياسة الشرعية في العصر الحديث... قاتل الله التعصب الحزبي، فمن ابتلي بهذا المرض لاينظر إلا بعين واحدة، ولو نظرتم بالعين الأخرى لأدركتم أهمية مجلة المنار [1898 الموافق 1315] ودورها الرائد في العالم الإسلامي، وأهمية مجلة الفتح [1344 هـ الموافق 1926]. لقد كان أساتذة الذين ينقدون السلفيين اليوم تلامذة من تلامذة الشيخين الفاضلين: رشيد رضا، ومحب الدين الخطيب... فعودوا - إن أردتم - إلى مذكرات وكتب التلامذة لتقرأوا فيها اعترافهم بفضل هؤلاء الرواد وعظيم انتفاعهم بهم.
هذا أيها الأخوة جوابنا على سؤالكم: من أين جئتم... ولماذا لا تتركون السياسة لأهلها؟، وأظنكم علمتم من ردنا عليكم أننا غصن من غصون شجرة باسقة مترامية الأطراف، وممتدة في شعاب الزمن، تعطي أكلها كل حين، ولم ينقطع عطاؤها في أي حقبة من حقب التاريخ، وفضلاً عن ذلك فإننا لم نكتف بما قدمه الرواد ولم نترك الأخذ بالأسباب، لا، بل شمرنا عن سواعد العمل، وخبرنا حلو السياسة ومرها، واخترنا السياسة الشرعية عن قناعة ودراية، وحرصنا على ممارسة النشاط السياسي من خلال التزامنا بعقيدة السلف ومنهجهم، ومع ذلك آثرنا مخاطبتكم بالدليل، ونصحكم برفق، فلا تستكبروا، وتداركوا مافاتكم، واعرضوا مواقفكم وأنشطتكم السياسية على الشرع، وتجنبوا أي رأي أو قول يخالف الدليل.
وبينما كان السلفيون الأحرار يسدون ثغرة من الثغرات المهمة التي كان يأتيهم من قبلها النقد واللمز والتجريح إذ بأصوات منكرة شاذة ليست من أولئك ولا من هؤلاء يرتفع صراخها قائلة:
"إن فقه الواقع مؤامرة خبيثة على العلوم الشرعية، وعلى علماء الأمة، وهدف الداعين إلى هذا الفقه إسقاط الشريعة، وتحريف نصوص القرآن والسنة"
اهـ... والذين زجّوا بأنفسهم في هذه المعمعة معروف لحساب من يكتبون ويفتون، ومعروفة مواقفهم السلبية تجاه الدعاة إلى الله، وهم لا يجهلون عقيدة

الذين ينادون بفقه الواقع، وإن النماذج التالية التي سنستعرضها من أقوالهم كافية للحكم على مقاصدهم، كما أنها كافية لبيان الجهة التي انتدبتهم لتأدية هذا الدور:

يقول مؤلف كتاب القطبية: "إن فقهاء الواقع يريدون حشر الشباب السذج، البسطاء، الأغرار في دهاليز السياسة وظلماتها المخيفة، ومكرها الدفين، ليكونوا على شاكلتهم متابعين لهم، فلا يفقهون علماً، ولا يسمعون نصحاً، فاللهم رحماك رحماك"[1] .

ويقول المدخلي: "إن أغرب ما يقع فيه المتحمسون لفقه الواقع أنهم يقدمونه للناس، وكأنه أشرف العلوم وأهمها، ولقد غلا فيه بعضهم غلواً شديداً، فجعل العلوم الشرعية من مقوماته، ونسج حوله من الهالات الكبيرة بما لم يسبقه إليه الأولون والآخرون، وهو في حقيقته لا يسمى علماً ولا فقهاً، ولو كان علماً أو فقهاً؛ فأين المؤلفات فيه؟ وأين علماؤه وفقهاؤه في السابق واللاحق؟! وأين مدارسه" [2] .

ويستطرد المدخلي قائلاً: "لماذا لا يسمى علماً ولا فقهاً إسلامياً؟ لأنه ذو أهداف سياسية خطيرة منها:

1 - إسقاط المنهج السلفي، لأن فقه الواقع لا يختلف عن مبدأ الصوفية في التفريق بين الشريعة والحقيقة؛ إذ هدفهم من ذلك إسقاط الشريعة.

2 - الاستيلاء على عقول الشباب، والفصل بينهم وبين علماء المنهج السلفي بعد تشويه صورتهم بالطعون الفاجرة.

3 - اعتماده على التجسس.

4 - اعتماده على أخبار الصحف والمجلات التي تحترف الكذب.

5 - من أركان هذا الفقه المزعوم التحليلات السياسية الكاذبة الفاشلة، وقد أظهر الله كذبها وفشلها، ولاسيما في أزمة الخليج.

6 - إنه يقوم على تحريف نصوص القرآن والسنة، ويقوم على تحريف كلام ابن القيم في فقه الواقع.

7 - يقوم على الجهل والهوى.

8 - يقوم على المبالغات والتهويل"[1] .

---

[1] القطبية هي الفتنة فاعرفوها، الطبعة الثانية، ص: 106.

[2] أهل الحديث هم الطائفة المنصورة الناجية، ربيع بن هادي المدخلي، ص: 93.

[1] المصدر السابق، ص: 93 ، 94.

وبعد أن ينسف المدخلي هذا العلم من أساسه في قوله: "وهو في حقيقته لا يسمى علماً ولافقهاً ولو كان علماً أو فقهاً؛ فأين المؤلفات فيه؟ وأين علماؤه وفقهاؤه في السابق واللاحق؟! وأين مدارسه" يعود فيعترف بوجوده، ولكنه غير العلم الذي ينادي به دعاة فقه الواقع المعاصرون، يقول المدخلي:
"وأما فقه الواقع الذي يحتفي به علماء الإسلام - ومنهم ابن القيم - والسياسة الإسلامية العادلة؛ فمرحباً بهما، وعلى الرأس والعين، وإن جهلهما وتنكر لهما الإخوان المسلمون، وقد اعتنى بهما علماء الإسلام عناية فائقة في مؤلفات خاصة وعامة"[2] .
كيف ينكر هذا العلم من أساسه، ثم يعود ويعترف بوجوده مع تأكيده على اهتمام علماء المسلمين به؟!، ولإشغال القارىء عن هذا التناقض المخجل الذي أوقع نفسه به، فقد اتجه في رده الثاني اتجاهاً آخر في قوله: "وإن جهلهما وتنكر لهما الإخوان المسلمون"، مع أنه ماكان يرد على الإخوان المسلمين، وإنما كان يرد على علماء سلفيين... هكذا المدخلي، وليس هذا هو أول ولا آخر تناقض يقع به بسبب تسرعه وأهوائه.
وإذا كان المدخلي قد اعترف بوجود فقه الواقع، فإن معظم زملائه وطلابه لم يتراجعوا، وموقفهم هذا يضعنا أمام السؤال التالي: هل هناك علم اسمه "فقه الواقع" وهل المنادون بفقه الواقع اليوم يخالفون منهج ابن القيم وغيره من علماء السلف؟!.
نجيب على هذا السؤال فيما يلي:
إن فقه الواقع ليس اسماً أو مصطلحاً جديداً حتى تثار حوله هذه الضجة، ويتهم كل من يدعو إليه بمختلف الاتهامات. ولقد تحدث عنه علماؤنا من قبل، واعتبروه شرطاً من الشروط التي يجب أن تتوفر في الفتوى والمفتي، فمن العلماء من سماه فقه الواقع، ومنهم من سماه فقه النوازل، ومنهم من سماه فقه الأحداث.
يقول الشيخ محمد ناصر الدين الألباني:
"فمعرفة الواقع للوصول إلى حكم الشرع واجب من الواجبات التي يجب أن يقوم بها طائفة مختصة من طلاب العلم المسلمين النبهاء، كأي علم من العلوم الشرعية، أو الاجتهادية، أو الاقتصادية، أو العسكرية، أو

---

[2] المصدر السابق، ص: 94.

أي علم ينفع الأمة الإسلامية، ويدنيها من مدارج العودة إلى عزها ومجدها وسؤددها، وبخاصة إذا ما تطورت هذه العلوم بتطور الأزمنة".
ويقول الشيخ أيضاً: "ومما يجب التنبيه عليه في هذا المقام أن أنواع الفقه المطلوبة من جملة المسلمين ليست فقط ذلك الفقه المذهبي الذي يعرفونه ويتلقنونه، أو هذا (الفقه) الذي تنبه إليه ونبه عليه بعض شباب الدعاة حيث إن أنواع الفقه الواجب على المسلمين القيام بها - ولو كفائياً على الأقل - أكبر من ذلك كله، وأوسع دائرة منه؛ فمن ذلك مثلاً: (فقه الكتاب)، و (فقه السُّنة)، و (فقه اللغة)، و (فقه السنن الكونية)، و (فقه الخلاف)، ونحو ذلك مما يشبههه.
وهذه الأنواع من الفقه بعمومها لا تقل أهمية عن نوعي الفقه المشار إليهما قبل، سواء منها الفقه المعروف، أم (فقه الواقع) الذي نحن بصدد إيضاح القول فيه" اهـ[3] .
2 - الذين تحدثوا عن فقه الواقع - من علماء وطلاب علم - يعرفهم الناس، ويعرفون عنهم: سلامة الاعتقاد، وغزارة العلم، والوقوف عند حدود الله لا يتعدونها برأي يرونه - نقول ذلك عنهم ولا نزكي على الله أحداً - .
وهم فيما قالوه: لم يتجاوزوا ماذهب إليه ابن القيم وغيره بالأمس، وما قاله الشيخ ناصر الدين الألباني - في رسالته الآنفة الذكر - اليوم، وغير صحيح أنهم أرادوا النيل من العلماء، ودعوة الشباب إلى الانفضاض عنهم... وكأنهم فيما قالوه وكتبوه كانوا يتوقعون إشاعة مثل هذا القول، ولهذا فقد بينوا بطلانه، وأكدوا ثقتهم بعلماء الأمة، وضربوا أمثلة على إحاطة بعضهم بفقه الواقع.
ومن جهة أخرى فإنهم لم يبالغوا أو يغالوا في حديثهم عن فقه الواقع، ومن يعد لرسائلهم فلن يجد أثراً لمثل هذا الاتهام، وعلى العكس فقد كانوا وسطاً بين أهل الإفراط والتفريط.
إن الغلو في فقه الواقع جاء من خلال كتابات وأشرطة محاضرات (الولاة)... هؤلاء الذين صوروا الداعين لهذا الفقه وكأنهم ليس لهم عمل آخر غير هذا العمل،

---

[3] ورد هذا القول في شريط مسجل للشيخ ناصر الدين الألباني، ثم جرى طبعه في رسالة تحت عنوان: (سؤال وجواب حول فقه الواقع).

ونسبوا إليهم القول بأنهم يعتقدون أنه من فروض الأعيان على كل مسلم، وهذا محض افتراء.
3 - إذا أفتى عالم من العلماء بفتوى، وكان فيما قاله خطأ واضح لا يجوز السكوت عنه، وجب على أهل العلم تصحيح هذا الخطأ، وهذا لا خلاف عليه بين أهل السنة. وعندما علا صراخ (الولاة) وضجيجهم رأينا عند حديثنا عن تسترهم بالعلماء كيف خالفوا شيوخهم فيما قالوه وأفتوا به، وحرموا على غيرهم ما أباحوه لأنفسهم، وهذه هي سياسة الكيل بمكيالين التي دأبوا عليها، أما نحن فإننا والحمد لله نكيل بمكيال واحد، ولذلك نقول: لقد أخطأ هذا الشيخ أو ذاك في إسقاط الحكم على هذه الواقعة.
4 - أين من ذلك كله قولهم:
- هدفهم (دعاة فقه الواقع) إسقاط المنهج السلفي... ثم تشتد اللهجة فيقولون: هدفهم من ذلك إسقاط الشريعة.
وقولهم:
- إنه (أي فقه الواقع) يقوم على تحريف نصوص القرآن والسنة.
- "إن فقهاء الواقع يريدون حشر الشباب السذج، البسطاء، الأغرار في دهاليز السياسة وظلماتها المخيفة... فلماذا إساءة الظن إلى هذا الحد؟! ولماذا الحكم على النوايا؟! أولا يعلم هؤلاء الناس أن الذي يهدف إلى إسقاط الشريعة كافر، فكيف يقبل الذين يدافعون عن علماء اتهام علماء آخرين بما يوجب الكفر والردة مع أن المنهج واحد والاعتقاد واحد؟!

نحو كيان جديد (الحلقة 24)
الحوار بين أهل السنة

5 - من أهم الأسباب التي دفعت حزب الولاة إلى رفض فقه الواقع قولهم: إن المنظرين لهذا الذي يسمونه علماً يعتمدون في تحليلاتهم على أخبار الصحف والمجلات التي تحترف الكذب والافتراء، وما بني على الباطل فهو باطل.
وقبل دحض هذه الشبهة نود التأكيد على أن فقه الواقع من فروض الكفايات وليس من فروض الأعيان، والذين يتخصصون بهذا العلم يجب أن يكونوا من الذين نالوا حظاً وفيراً من العلم الشرعي، وأن يغربلوا الأخبار التي يحصلون عليها، ويبينوا المصادر التي اعتمدوا عليها من الصحف والمجلات وغيرها.
نعود بعد ذلك إلى عرض السؤال التالي: هل أخبار الكفار من إذاعات وصحف ومجلات ووكالات أنباء كلها كاذبة ولا يجوز الاعتماد عليها؟!.
وإذا تواترت أخبار الكفار إلى انعقاد مجلس الأمن الدولي بتاريخ كذا وكذا ثم ذكرت القرارات التي أصدرها هذا المجلس، وأسماء الدول المشاركة في الاجتماع... فهل نكذب هذا الخبر وإن تواتر لأنه من أخبار الكفار؟!.
وإذا تواترت أخبار الكفار على قيام مسؤولين أمريكان بزيارة رسمية للرياض، ثم عن عقدهم سلسلة اجتماعات مع نظرائهم السعوديين أسفرت عن عقد اتفاق ما سكتت عن نشره إذاعة ولي الامر - كعادتها -، ونشرته بتفاصيله أجهزة الإعلام الأمريكية، ثم ناقشه الكونغرس وأقره، فهل نكذب هذا الخبر لأن الكفار انفردوا بنشره؟!.
السؤال إذن عن حكم خبر الكافر، وكما أن الكافر موجود في عصرنا، فقد كان موجوداً في جميع العصور السابقة، وقد تضمنت كتب أصول الفقه الجواب على هذا السؤال، وليعد من شاء إلى مذكرة أصول الفقه للعلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وقد وقع اختياري على هذا المصدر لأن مؤلفه موضع تقديرنا

واحترامنا، كما أنه موضع تقدير واحترام حزب الولاة - كما يدعون -. قال الشيخ رحمه الله:
"ليس من شروط التواتر أن يكون المخبرون مسلمين ولا عدولاً، الخ... خلاصة ما ذكره في هذا الفصل أن التواتر لا يشترط في المخبرين به إسلام ولا عدالة لأن القطع بصدق خبرهم من حيث أن اجتماعهم وتواطئهم على الكذب مستحيل عادة لكثرتهم، والعادة تحيل ذلك في الكفار والمسلمين، وليس صدق خبرهم من حيث أن المخبرين به عدول مسلمون وأنهم لا يشترط فيهم ألا يحصرهم بلد، بل يحصل القطع بخبرهم وإن حصرهم بلد أو مسجد كالحجيج إذا أخبروا بواقعة صدتهم عن الحج وأهل الجمعة إذا أخبروا عن حادثة منعتهم من صلاة الجمعة علم صدقهم في الأمرين مع حصرهم في محل أو مسجد"[1] "وأشار في مراقي السعود إلى هذه المسألة بقوله:

واقطع بصدق خبر التواتر وسو بين مســـلم وكافر
واللفظ والمعنى وذاك خبر مَنْ عادةً كَذِبُهم منحظر"[2]

إذن ليس من شروط التواتر أن يكون المخبرون مسلمين ولا عدولاً، ويستحيل أن تنشر وكالات الأنباء خبر اجتماع مجلس الأمن ثم يكون الخبر مختلقاً من أساسه، أما إذا اختلفت وكالات الأنباء في مسألة بين مصدق ومكذب، فهذه قضية أخرى، ولمن رزقه الله علماً وخبرة في هذا الفن قدرة فائقة على تمييز الصالح من غيره... ولو فكر "الولاة" قليلاً، وقلبوا صفحات من السيرة النبوة لعلموا أن كثيراً من الأخبار قد انفرد الكفار بها، واستفاد المسلمون منها... وإذا كان هذا هو مبلغ علمهم فلماذا التسرع وإلقاء الأقوال على عواهنها، وماذا يضيرهم لو قالوا: لا علم لنا بالسياسة وفقه الواقع؟!.

6 - "الشيوخ أبخص": هذا مثال مشهور ببعض أطراف الجزيرة - إن لم يكن بها كلها - والشيوخ في هذا الموضع تعني الأمراء الذين يتولون شؤون الحكم، وليست تعني العلماء، و "أبخص" تعني أعلم وأدرى، وقد

---

[1] ص: 101 ، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
[2] ص: 100 ، المصدر السابق.

ورث الأبناء هذا المثال عن آبائهم الذين كانوا إذا عرضت عليهم مسألة تتعلق بالسياسة وشؤون الحكم يقولون: "الشيوخ أبخص": أي ليس هذا من شأني، ولا علاقة لي بهذه الأمور، فلا تحملني مسؤولية الخوض بما لا يعنيني، وواضح أن رائحة الاستبداد والكبت تفوح من بين حروف هذا المثال، وواضح أيضاً مخالفة هذا المفهوم لما كان عليه المسلمون في عصر النبوة، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكثر من استشارة الصحابة رضوان الله عليهم، ومن الأمثلة على ذلك أنه صلى الله عليه وسلم استشار جميع المسلمين الذين خرجوا معه إلى قتال المشركين في غزوة أحد، ونزل عند رغبتهم في ملاقاة المشركين خارج المدينة. وكان من أمر المنافقين ما كان، ومن ثم فقد كان المسلم يقول رأيه في السياسة وشؤون الحكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم للخلفاء الراشدين من بعده دون أن يخشى من السجن أو القتل أو النفي.

حزب الولاة يريدون فرض مدلول مثل "الشيوخ أبخص" على الناس أجمعين، ولهذا فهم يحاولون إلباسه لبوساً شرعياً، ويستدلون بأقوال للعلماء في القديم والحديث يرون أنها تؤيد موقفهم، وقد انتهوا من وراء هذا الجهد إلى إقرار النتائج التالية:

- السياسة شأن من شؤون "طويل العمر".
- إدارة البلاد والعباد، والتحكم بشؤون الحكم الداخلية والخارجية حق من حقوق طويل العمر.
- والرأي الصائب ما يراه "طويل العمر" في كل ما يراه ويأمر به.

أجل هكذا يريد "حزب الولاة"، ولا يخجلون من التعبير عن مقاصدهم بأوضح عبارة دون أي حياء أو مداورة.

يقول مؤلف كتاب القطبية:

"إننا في هذا البلد الطيب - بلد التوحيد والسنة - قد كُفينا مؤونة ذلك كله. فحكامنا - هدانا الله وإياهم، ووفقنا الله وإياهم لكل خير - قد كفونا مؤونة متابعة الأحوال السياسية الداخلية والخارجية، الإقليمية منها والعالمية، وهيئة كبار العلماء - حفظنا الله وإياهم - قد كفونا مؤونة الحكم على تلك السياسات والأحداث؛ فما علينا إلا أن نتفرغ لطلب العلم النافع، والعمل الصالح

الديني والدنيوي، والمناصحة الصادقة الهادفة للجميع، والدعاء لهم بالتوفيق في الدين والدنيا" [3]
ثم يحسم الخلاف بقوله: "هذا هو سبيل المؤمنين في الإصلاح: إن كنتم مصلحين".
سبيل المؤمنين: أن يقرر "طويل العمر" شؤون السياسة، وهيئة كبار العلماء يحكمون على المناط الذي يسمح "طويل العمر" بتقديمه لهم وليس من حقهم أن يسألوه أو يحاسبوه عما لم يأذن بعرضه عليهم.
ليس من حقهم أن يقولوا لـ "طويل العمر": لماذا تقام الحدود على العامة ولا تقام على الخاصة من إخوانك وأبنائك وأبناء عمومتك وكل من يلوذ بهم؟!.
وليس من حقهم أن يقولوا "لطويل العمر": لماذا تنهبون الأموال، وتغتصبون الأراضي من مالكيها، وتشرعون قوانين ربوية وغير ربوية؟!.
ليس من حق العلماء أن يسألوه هذه الأسئلة ولا غيرها لأن سبيل المؤمنين - كما يراه المؤلف - يمنع عليهم ذلك، ومن رفع صوته آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، فحكمه حكم من شق عصا الطاعة وفارق الجماعة.
ويتطابق صوت رئيس هذا الحزب ربيع بن هادي المدخلي مع صوت مؤلف كتاب القطبية فيقول - أي المدخلي - : "واتفقوا - علماء المسلمين - على اعتبارهما (فقه الواقع وفقه السياسات) من فروض الكفايات، وعلى أنهما من واجبات ولاة أمور المسلمين - علماء وحكاماً - كل في حدود اختصاصه، ولا يجوز أن يقال فيهما غير هذا، ولا يجوز أن تشغل بهما الأمة، ولا يجوز أن يجند لهما أهل العلم وطلاب العلم"[1] .
ويقول المدخلي في موضع آخر: "والشاهد أن القرآن والسنة وعلماء الأمة جعلت لأولي الأمر من الأمراء وأولي الحل والعقد أموراً يحيطون بها دون غيرهم، لا يجوز للعوام وأمثالهم ممن ينتمي إلى طلب العلم أن يزاحموهم ويركضوا في ميادين لا يعرفون أبعادها وأغوارها، ويترتب على هذه المزاحمة والمنافسة من الأضرار بأنفسهم وأمتهم مالا يعلم مداه إلا الله"[2] .
إذن: ليست المشكلة المطروحة للحوار: هل فقه الواقع من فروض الأعيان أم من فروض الكفايات؟!.

---

[3] القطبية، مصدر سابق، ص: 107.
[1] أهل الحديث، ربيع المدخلي، ص: 95.
[2] أهل الحديث، ربيع المدخلي، ص: 102.

بل وليست المشكلة مرتبطة بمخالفة دعاة فقه الواقع للفقه الذي دعا إليه ابن قيم الجوزية، ولو كانت المشكلة كذلك لما اتسعت هوة الخلاف... المشكلة في أصلها وفيما يتفرع عنها اعتقاد حزب الولاة بأن "الشيوخ أبخص"، وقد أعطوا "طويل العمر" وإخوانه وأبنائه المعروفين بسفاهتهم حقوقاً لم يعطها المسلمون للخلفاء الراشدين، وحاولوا إضفاء الشرعية على استبدادهم واستخفافهم بالمواطنين، وتقييدهم للحريات وكبتهم للأنفاس، ولينظر من يشاء إلى جزم المدخلي بأن القرآن والسنة وعلماء الأمة (بهذا الإطلاق ومن غير تقييد) جعلت لولاة الأمور أموراً يحيطون بها دون غيرهم، ثم يجزم بأن أية مزاحمة لهم ضرر للنفس وللأمة... ثم يعود ويجزم بأنه لا يجوز للعوام وطلاب العلم مزاحمة ولاة الأمور بفقه الواقع، لكن القوم لم يتطرقوا إلى حكم رسائل الدراسات العليا في السياسات الشرعية التي تناقش في جامعات بلدهم... هل ستمنع ويشملها قولهم "لا يجوز"، ولم يتطرقوا إلى حكم الاهتمام "بفقه الواقع" في غير بلد "طويل العمر"... الذي يتبادر إلى ذهن المطلع على كتاباتهم أن شؤون بلدان العالم الإسلامي لا تعنيهم، ولينظر من يشاء إلى قول مؤلف كتاب "القطبية":
"إننا في هذا البلد الطيب - بلد التوحيد والسنة..." ثم يصور الوضع في هذا البلد، وكأن الناس يعيشون في عصر المهدي، وهذا مثال واحد من مئات الأمثلة، وكل من يعرف الأوضاع في بلدهم يعلم أنهم يكذبون ويعلمون بأنهم يكذبون... ويلهم من مشهد يوم عظيم، وويل لكل منافق لا يحس بأحاسيس المظلومين والمقهورين من إخوانه المسلمين.
لا تزال كتابات "الولاة" عامة عائمة، وينقصها التحديد والتوضيح، ومن الأمثلة على ذلك: ماهو حكم قراءة الصحف والمجلات والاستماع إلى الإذاعة والتلفاز في بلد طويل العمر؟!، وإذا كان الحكم بالجواز: هل يدخل في ذلك: الموسيقى، والأغاني، والأفلام، وتبرج النساء على شاشة التلفاز؟! وما هو حكم وجود القوات الأمريكية، وكذلك جموع الخبراء والمستشارين النصارى في أرض الجزيرة التي لا يجوز أن يجتمع فيها دينان؟!.

الحاكمية

<u>عرض أقوالهم:</u> قالوا: إننا نؤمن بحاكمية الله تعالى، وأن الحكم لله وحده، ولكننا نأخذُ على الجماعات الإسلامية إهمالها لدعوة التوحيد التي خلق الله الخلق وأرسل الرسل من أجلها، وحصر نشاطها في الحاكمية، وتخوضٍ من أجلها المعارك مع الحكام، ثم تتحول هذه المعاركُ إلى صراع من أجل الوصول إلى السلطة.
وقال أحدهم: "... ولكن نحن نقول هذا الانحراف في إظهار ما أسموه بتوحيد الحاكمية، وإهمال بقية أنواع التوحيد في ابتداعهم هذا، وتجميع الناس عليها واحتياجهم إلى التكفير بعد ذلك، ثم ما أسموه بالجهاد، كل هذا نحن نراه من الانحرافات التي كانت ردات فعل عن الواقع المر الذي ما استطاعوا أن يعايشوه، ولم يوفقوا بعلماء لأنه للأسف الشديد لأن الجماعات القائمة قد نفرت الشباب من العلماء وجعلتهم مداهنين للسلاطين، فكانت النتيجةُ إيش، انصرافُ الشباب في كثير من البلدان عن أن يأخذوا العلم والقدوة والتأسي والفتوى من علمائهم... وقد حاولوا في الجزيرة ولكن الله سبحانه وتعالى بعباده لطف".
وسئل صاحب هذا القول في نهاية محاضرته عن حكم تقسيم التوحيد إلى أربعة أقسام، الرابع هو الحاكمية، فأجاب:
"ذكرنا هذا، وذكر علماؤنا بأن هذا محدثٌ أرادوا به قتل توحيد الألوهية فأبدلوه بالحاكمية"[3] .
نكتفي بهذا العرض الذي يعبر عـن موقفهم جميعاً - وإن اختلفت الأساليب - وسنعرض أقوالاً أخرى لهم من خلال ردنا عليهم.
<u>ردنا عليهم:</u> ونحدد ردنا عليهم من خلال النقاط التالية:
1 - حقاً إن بعض الجماعات الإسلامية أهملت الدعوة إلى التوحيد بمفهومه الشمولي، وقصرت نشاطها على الحاكمية وعلى الأنشطة السياسية، وهذا منها انحراف عن المنهج الحق وطالما نقدناه وبيّنا عُوارَه.
ولكن حزب الولاة قابلوا هذا الانحراف بانحراف مماثل، عندما أهملوا الحديث عن توحيد الحاكمية، وهو من صلب

---

[3] عنوان المحاضرة: الأخطار الداخلية التي تهدد وحدة الأمة، عن كتاب "تنبيهات"، لمؤلفه حامد بن عبد الله العلي، دار التجديد، الكويت.

دعوة التوحيد، فصدق فيهم قوله تعالى: {ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون}.
إن الحديث عن توحيد الحاكمية عند حزب الولاة أصبح وكأنه عمل سياسي بحت ليس من ورائه إلا الضرر، لأنه يقود لا محالة إلى الصدام مع الأنظمة... أليست الدعوة إلى توحيد الله وعدم الإشراك به أحداً من خلقه لابد وأنها تؤدي إلى الصدام مع الطواغيت الذين يتخذون أنفسهم أنداداً لله تعالى؟!، وأين حزب الولاة من سير أنبياء الله مع أقوامهم لأنهم واجهوهم بما لا يألفون ولا يقبلون، بل وأين هم من قول ورقة بن نوفل لرسول الله صلى الله عليه وسلم:
"هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، ياليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أومخرجيَّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي"[4] .
2 - عدَّ المحاضر توحيد الحاكمية من الأمور المحدثة ابتدعها الذين أرادوا قتل توحيد الألوهية فأبدلوه بالحاكمية، ولابد أن يكون هذا المحاضر قد تذكر وهو يطلق هذا القول حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما بعد فإن خير الحديث كتابُ الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشرَّ الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة"[1] .
فهل الدعوة إلى توحيد الحاكمية من شر الأمور وضلالات العمل؟!، وهل اطلع هذا الرجل على قلوب ونوايا دعاة توحيد الحاكمية فعلم أنهم يريدون قتل توحيد الألوهية فأبدلوه بتوحيد الحاكمية؟!.
لابد لمن وضع نفسه في مرتبة الذين يحاضرون عن عقيدة السلف أن يكون قد اطلع على أبحاث الحاكمية في كتب التوحيد مثل شرح العقيدة الطحاوية، وفتح المجيد على الأقل، فهل وجد في هذين الكتابين أن توحيد الحاكمية من شر الأمور المحدثة؟!.

---

[4] صحيح البخاري، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن فتح الباري.
[1] الحديث أخرجه مسلم عن جابر رضي الله عنه.

ولابد أن يكون هذا المحاضر قد اطلع على ماكتبه الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن نواقض الإسلام، ومنها قوله: "من اعتقد أن غير هدي النبي صلى الله عليه وسلم أكملُ من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه فهو كافر"[2] .

ولابد أن يكون قد اطلع على تعليق الشيخ عبد العزيز بن باز على ماقاله الشيخ محمد بن عبد الوهاب: "ويدخل في القسم الرابع من اعتقد أن الأنظمة والقوانين التي يسنها الناس أفضل من شريعة الإسلام أو أن نظام الإسلام لا يصلح تطبيقه في القرن العشرين، أو أنه كان سبباً في تخلف المسلمين، أو أنه يحصر علاقة المرء بربه دون أن يتدخل في شؤون الحياة الأخرى، ويدخل في الرابع أيضاً من يرى أن نفاذ حكم الله في قطع يد السارق أو رجم الزاني المحصن لا يناسب العصر الحاضر، ويدخل في ذلك أيضاً كل من اعتقد أنه يجوز الحكم بغير شريعة الله في المعاملات أو الحدود أو غيرهما وإن لم يعتقد أن ذلك أفضل من حكم الشريعة لأنه بذلك يكون قد استباح ما حرم الله إجماعاً، وكل من استباح ما حرم الله مما هو معلوم من الدين بالضرورة كالزنا والخمر والربا والحكم بغير شريعة الله فهو كافر بإجماع المسلمين"[3] .

ولابد أن يكون قدد اطلع على قول العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: "الإشراك بالله في حكمه والإشراك به في عبادته كلها بمعنى واحد لا فرق بينهما البتة، فالذي يتبع نظاماً غير نظام الله وتشريعاً غير تشريع الله، كالذي يعبد الصنم ويسجد للوثن ولا فرق بينهما البتة بوجه من الوجوه، فهما واحد، وكلاهما مشرك"[4] .

وقول العلامة مفتي الديار السعودية السابق الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله: "وتحكيم الشرع وحده دون ما سواه، شقيق عبادة الله وحده دون ما سواه، إذ مضمون الشهادتين أن يكون الله هو المعبود وحده لا

---

[2] مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود، القسم الخامس، الرسائل الشخصية، ص 212 [عن كتاب الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو: 2/131].

[3] مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، تأليف الشيخ عبد العزيز بن باز: 1/137 [عن كتاب الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو: 2/133].

[4] أضواء البيان: 7/1620.

شريك له، وأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المتبع المحكم ما جاء به فقط، وما جردت سيوف ا لجهاد إلا من أجل ذلك والقيام به فعلاً وتركاً وتحكيماً عند النزاع"[5] .

فهل أراد هؤلاء العلماء الأعلام فيما ذكروه عن توحيد الحاكمية قتل توحيد الألوهية؟! مسكين هذا الجاهل، ومسكين كل من يخوض بأمور لا يحسنها ولم يستعد لها!!... إن سقطاته يصعب حصرها من كثرتها.

3 - إننا لا نستغرب أن يكون القوم قد اختاروا تجنب الحديث عن توحيد الحاكمية إيثاراً للعافية، وخوفاً من غضب ولاة الأمور... لكننا نستغرب أشد الاستغراب أن يمتهن ناس محسوبون على طلبة العلم كتابة تقارير علنية (يسمونها كتباً ورسائل ومحاضرات) ضد إخوانهم الدعاة، وليعد من يشاء إلى كتاب (القطبية هي الفتنة فاعرفوها) كيف ربط بين فقه الواقع والحاكمية من جهة، وبين الخروج على الحكام من جهة أخرى، ومن أجل إثبات صحة قوله، وبدافع من حقده الدفين يلجأ إلى ذكر أسماء الدعاة، وذكر أقوالهم، ويحملها مالا تحتمل، ثم يسمي هذه الأمثلة التي يختارها: "إرهاصات الخروج"، فانتبهوا أيها الحكام في كل مكان، وخذوا حذركم، واضربوا بيد من حديد على أيدي هؤلاء الخوارج!!.

ويل لهم من الله فهل كان محمد بن إبراهيم، والشنقيطي، وابن باز يدعون إلى الخروج وهم يفتون بفتاوى الحاكمية التي استشهدنا بها قبل قليل؟! وهل يريدون أن يقول العلماء والدعاة للحكام: اعملوا ما شئتم، وقولوا ما تريدون، فقد أعددنا لكل مما تفعلونه الفتوى التي تسركم ولا تغضبكم؟!.

4 - إنهم وإن كانت دعوتهم إلى استعداء الحكام على الدعاة والجماعات عامة تشمل كل من يعطي الحاكمية وفقه الواقع حقهما الشرعي، ولكن هذا الاستعداء يبلغ أوجه إذا تضمن حديث المخالفين مساساً من قريب أو بعيد "بطويل العمر"، ومن الأمثلة الجديرة بالذكر أن أحد العلماء تحدث في محاضرة نفيسة له عن سقوط الخلافة، ومن الطبيعي أن يقوده الموضوع إلى الحديث عن مخاطر تحكيم القوانين الوضعية في بلاد المسلمين.

---

[5] فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم: 12/251، واستفدت أيضاً من كتاب التنبيهات، مصدر سابق.

فأثارت هذه المحاضرة حساسية مؤلف كتاب "القطبية"، وخشي أن يكون فيما قاله الشيخ المحاضر أي لمز بطويل العمر، فكتب يقول: "ألم تعلم بأن الخلافة العثمانية التي تتباكى عليها كانت تحكم بالقوانين الوضعية، وفي الوقت نفسه تحتضن صوفية وَحْدَة الوجود، والحلول، وتشيد لها القبور؟!".
وقال أيضاً: "هل دولتكم القائمة في السودان تحكم بالشرع، وتحارب الكفر القادم من الشرق والغرب؟ أو أنها كغيرها من الدول الإسلامية الأخرى، بل أسوأ حالاً؟!"[6] .
قلت: نحن يا كاتب التقرير أحرار لا نكيل بمكيالين ولا يعمينا التعصب عن قول كلمة الحق، فصوفية وحدة الوجود نحذر منها، ونبين حكم الله فيها سواء كانت في دولة الخلافة العثمانية بالأمس أو في الحجاز اليوم، وأما السودان فهي دولتنا ودولة كل مسلم إذا حكمت شرع الله، وأتبعت القول الفعل، وإن فعلت غير ذلك فهي كغيرها من الدول التي حولها، وقد ظننا بعد حين من قيامها أنها سلكت هذا الطريق، ولكنها لم تفعل، ونرجو أن ينتبه حكامها إلى المأزق الذي وضعوا أنفسهم فيه.
ونحن نوافقك - يا كاتب التقرير - بأن دولة الخلافة العثمانية في آخر عهدها راحت تستورد القوانين الوضعية، وتمنح سفارات الدول الغربية امتيازات خطيرة، وقد شملت هذه الامتيازات بعض النصارى من رعايا الخلافة لأنهم يلوذون بكنف هذه السفارات...
ونضيف إلى ما قلته - يا كاتب التقرير - بأن قاصمة الظهر بالنسبة للدولة العثمانية كانت في اعتمادها على العلمانيين واليهود الذين أسندت إليهم وظائف مهمة في قصور السلاطين وغيرها من مرافق الدولة،
ونذكرك - يا كاتب التقرير - بأن هذه التجاوزات والانحرافات كانت من أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط هذه الدولة العظيمة، فإذا كنت مخلصاً لبلدك وولاة أمرك لماذا لا تقرع جرس الخطر لاسيما وأنت ترى - إذا نظرت بعيني رأسك - أضعاف الانحرافات التي ارتكبتها الدولة العثمانية في آخر عهدها؟! أرأيت يا كاتب التقرير كيف يكون الكيل بمكيال واحد؟!

---

[6] كتاب القطبية، مصدر سابق، ص: 84.

مثال آخر: إذا قال داعية من دعاة الإصلاح: "لقد ظهر الكفر والإلحاد في صحفنا، وفشا المنكر في نوادينا، ودعي إلى الزنا في إذاعتنا وتلفزيوننا، واستبحنا الزنا، حتى أن بنوك دول الكفر لا تبعد عن بيت الله الحرام إلا خطوات معدودات"[7] .
انتفض "الولاة" مذعورين، فمنهم من قال: تهاجمون البنوك ثم تفتحون حساباً فيها، ومنهم من قال: هذه إرهاصات الخروج!!.
عجيب أمرهم: إنهم يفهمون جيداً حكم من يشرع قوانين ربوية وغير ربوية، ويعلمون صحة ما يقوله هذا الداعية... ثم لا يصمتون وينكرون المنكر بقلوبهم وذلك أضعف الإيمان، وإنما يستعدون ولاة أمرهم على من ينكر بلسانه!! اللهم إنا نسألك الستر والسلامة في الدين والدنيا والآخرة.

نتائج بنوها على أكاذيب لفقوها

أكاذيب القوم كثيرة، وكل واحدة منها أكبر من أختها، وسوف نعرض فيما يلي أمثلة محدودة منها لمعرفة المستوى الذي انحدروا إليه، وشُغلوا به عن معالي الأمور، ولم يعد من السهل على من أراد منهم الفكاك منه، ولكن أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقهم التوبة حتى لا يشملهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عن الله كذاباً"[1] .
ليأذن لي القارىء الكريم في إطلاق مصطلح "أم الأكاذيب" على أول كذباتهم وأشدها لؤماً وخبثاً، يقول منظرو حزب الولاة:
إن الجماعات الإسلامية الدعوية تنتظم كلها في جماعة واحدة وإن اختلفت الأدوار والمسميات وهذه الجماعة الموحدة لها جهاز استخبارات متطور وفعال، والوجه العلني لهذا التنظيم إنما هو جزء من التنظيم العام السري، وهو يمثل المرحلة التي تسبق مرحلة الاستيلاء على الحكم.

---

[7] القطبية، مصدر سابق، ص: 90.
[1] أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، الحديث رقم: (1809).

"ويمتاز هذا التنظيم السري العالمي: بدقة بنائه وتكوينه، وانضباط سيره حسب الخطة المرسومة له، وبخطوات محسوبة، وسيره على قواعد تخطيطية عامة لا يحيد عنها، وكل عضو فيه مقيد بقيود حركية شديدة. [ويسترسلون في وصف خطورة هذا التنظيم، وفي تخويف ولاة أمرهم منه، ودفعهم إلى البطش به، ومن ذلك قولهم:]
"ما أشد الشبه بين هذا التنظيم السري العالمي وبين تنظيم العصابات العالمية السرية مثل: (عصابات المافيا والماسونية)!!، وأوجه الشبه: سرية الحركة، جهالة القيادة، شدة تغلغله في المجتمع، حلقات سرية تتحرك في كل مكان دون أن يحس بها أحد، ولكن تلك العصابات ليس لديها أخلاق، ولا قيم ولا أعراف، ولا مبادىء إنسانية، إنما تلهث وراء المال والشهوات الحيوانية، بينما التنظيم السري يستهدف أبناء المسلمين الأبرياء، الذين عرفوا الخير ولم يعرفوا الشر، ويغذيهم ويلقنهم بفكره ومنهجه، ويجعلهم جنوداً يلقيهم في ساحات المعارك كبكش فداء، ثم يعتلي على ظهورهم ليرتقي على أجسادهم، فيصل إلى رئاسة الدولة الإسلامية الجديدة!! ويختلس أموال المسلمين!! ويزاول أنشطته السياسية باسم الإسلام!! لذلك كان هذا التنظيم أخطر ومقاومته والتصدي له أوجب".
أخي القارىء - حفظك الله وجنبك مواطن الزلل - تأمل جيداً أمر هؤلاء الخلائق الذين يتحدثون باسم السلفية، ويعتبرونها وقفاً عليهم وحدهم... إنهم يرون أن العلماء والدعاة والجماعات الذين تعرفهم ميادين العلم والدعوة والجهاد أشد خطراً وأعظم ضرراً من عصابات المافيا والماسونية، ومن لا يجهل جرائم عصابات المافيا، وكفر دعاة الماسونية؟!، سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم!!.
وعندما يخشون أن تكون هذه الأكاذيب غير كافية لاستعداء ولاة أمرهم، أو أن يقول هؤلاء الولاة: لا يعنينا ما يحدث في البلاد المجاورة، يقولون لهم محذرين:
"وأثناء أزمة الخليج لوحظ وجود تدريبات مكثفة على استعمال الأسلحة وغيرها في بعض المناطق الصحراوية والجبلية والحدودية: الشمالية والجنوبية، وانتشر في تلك الآونة بيع الأسلحة اليدوية المختلفة مثل (الكلاشنكوف) وغيره بأثمان زهيدة، ويشهد بهذا بعض

الثقات السلفيين أهل الولاء[2] الذين عاينوا ذلك بأنفسهم، ويمكن سؤالهم عن ذلك.
هذا غير الأنشطة السياسية - التي يشرف عليها أشخاص معروفون بتوجههم الحزبي - والتي يمارس فيها بعض التدريبات الأولية الشبيهة بالعسكرية مثل المناورات الليلية، وطرق اقتحام حصون الخصم، والخطف، والهجوم الليلي، ونحو ذلك، والتي تتم تحت دائرة: المراكز الصيفية، والرحلات، والمخيمات، والطلعات البرية، والتجمعات الشبابية المستقلة وغير ذلك، في عدة مناطق من المملكة.
وهذه التدريبات يلاحظها كل من له صلة بهذه الأنشطة، أو متابعة لما يجري فيها. فلابد من التنبيه إلى هذه التحركات الخطيرة، ومراقبتها ووضع حد لها حفاظاً على أمن هذه البلاد"[3] .
غريب والله منطق هؤلاء الذين يحاربون التقليد والتعصب المذهبي الذميم، ويردون كل قول إذا خلا من الدليل، ثم يتهمون إخوانهم باتهامات باطلة ليس عليها أي دليل إلا قراءة بعض الكتب التي تباع في المكتبات العامة بترخيص من ولاة أمرهم، وتحميل بعض عباراتها مالا تحتمل، ثم يظنون أنهم اكتشفوا اكتشافاً يستحقون عليه أغلى الجوائز التي يمنحها طويل العمر للمخلصين لعرشه الذين يقدمون له خدمات جليلة.
من جهة أخرى: هل هذا عمل يليق بطلاب العلم؟!، وماذا أبقوا لرجال المخابرات؟!، وهل يظنون أن ولاة أمرهم غافلون عن الأنشطة الصيفية في المعاهد والجامعات؟!، فمثل هذه الأنشطة لها وجود رسمي في جميع بلدان العالم، وترعاها وزارة أو مؤسسة كبيرة، وبعض الدول تلزم الطلبة بالتدريبات العسكرية والرياضية تحت مسميات كثيرة: كالفتوة، والكشافة، وغير ذلك، وفي بلد كتبة هذا التقرير مسؤولون عن هذه الأنشطة تم اختيارهم بعناية فائقة، وليسوا أقل من هؤلاء ولاء لطويل العمر، وإذا قصر بعضهم في أداء مهمته الأمنية، فهناك من يلحظه ويعاقبه على هذا التقصير. ومن جهة ثالثة، فالناس في بلادنا حكاماً

---

[2] لم أتجن عليهم عندما أطلقت عليهم "حزب الولاة"، لأنني وجدتهم يكثرون من استخدام هذا المصطلح.
[3] انظر تقريرهم: "التنظيم السري العالمي بين التخطيط والتطبيق"، وكذلك فقد أصبحت كتبهم وأشرطتهم حافلة بهذه الشنشنة.

ومحكومين لم يبلغوا مستوى هذا التنظيم الخطير الذي يتحدث عنه التقرير، وإذا كانت الجماعات الإسلامية كلها تنتظم في جماعة واحدة، فكيف يفسرون هذا القتال بين هذه الجماعات في كل من أفغانستان والجزائر؟!، هل سيركبون رؤوسهم ويقولون: إنها سياسة توزيع الأدوار، وتضليل الخصوم؟!.
إن ما تعلمه أجهزة المخابرات بالضرورة أن الإسلاميين لم يحققوا أدنى حد من التعاون فيما بينهم، ولا يزالون متنافرين متخاصمين سواء كان ذلك في إطار الجماعات أو الأفراد -، ولأعدائنا وسائل مختلفة لمعرفة هذه الحقيقة التي تقض مضاجعنا: يعرفونها عن طريق التجسس وزرع العملاء في صفوفنا، ويعرفونها عن طريق المذابح ونصب الأخاديد التي يسمونها سجوناً وتحقيقات ومحاكمات، ويعرفونها عن طريق حرص بعضنا على نشر ما عنده من معلومات خاصة تدين إخوانه عندما يختلف معهم وما أكثر هذه الخلافات.
إن قيادة حزب الولاة تستطيع انتداب لجنة من أفرادها المتخصصين بالتحقيق والمراقبة، وتوفدها إلى مصر لزيارة أشهر سجونها السياسية، ودراسة أحوال السجناء الإسلاميين فيها،[4] سوف تكتشف هذه اللجنة [إن صدقت في عرض نتائج التحقيق] أن هذه الجماعات لم تتحد حتى داخل هذه السجون رغم ما تعانيه من عداوة الطغاة وشدة بأسهم، فلكل جماعة جناح أو دور تستقل به، ولا تسمح لغيرها بالإقامة معها.
إن وحدة الدعاة والجماعات ليست تهمة فنتبرأ منها، أو عيباً فنستحي من تبنيه، أو نقيصة فنتجنب الحديث عنها حتى لا تنسب إلينا، لا، إنها أصل من أصول ديننا، ومطلب ملح نسعى إليه بكل قوانا وطاقاتنا، وواجب نثاب على فعله إن شاء الله، وأتمنى أن تكلل جهودنا بالنجاح والتوفيق، ويكون لي شرف إخبار حزب الولاة وغيرهم بهذه البشرى التي ستكون منطلقاً إلى استئناف حياة إسلامية يكون الدين فيها كله لله، وأسأل الله تعالى أن تشمل هذه الوحدة حزب الولاة بعد أن يتوبوا إلى الله من أهوائهم القاتلة، ومن أحقادهم الدفينة، ومن نفاقهم الذي وصفه ذات مرة أحد ولاة

---

[4] لن يجدوا أية صعوبة في إرسال مثل هذه اللجنة، لأنهم يعملون مع ولاة أمرهم في القضايا الأمنية، ومن جهة أخرى فهناك تعاون وتنسيق بين حكومتي البلدين.

أمرهم بقوله: "حامض"، وإننا والله لا نريد لهم غير التوبة والهداية.

<u>نتائج:</u> بنوا على أم أكاذيبهم نتائج غاية في الظلم والبطلان:
منها: قولهم: إن الصوفيين، ودعاة التعصب المذهبي الذميم، والأشاعرة هم الذين أسسوا هذه الجماعات لتفرقة صف المسلمين، وزعزعة جذور العقيدة الراسخة في نفوس وعقول أبناء الجزيرة العربية، واستدلوا على مزاعمهم هذه بأقوال قالها: حسن البنا عن طريقته الحصافية التي تخلى عنها فيما بعد، وقالها الشيخ التركي سعيد النورسي، وقالها سيد قطب الذي اتهموه بوحدة الوجود، ولم يوافقهم على هذا الاتهام الشيوخ الأفاضل الذين يعتبرونهم مرجعاً لهم.
ومنها: تحميلهم لهذه الجماعات وزر دعاة المذهب العقلاني الذي ينكر حاملو لوائه صحيح السنة لأنها تخالف عقولهم السقيمة، كما ينكرون المعجزات والكرامات، ويدعون إلى تقارب الأديان لأنهم جميعاً من أهل الإيمان، وكل منهم يتعبد الله حسب طريقته، وهذا التقارب دفعهم إلى المناداة بإلغاء الجزية، وإلى شرعية زواج النصراني من مسلمة.
ومنها: تحميلهم الجماعات وزر الذين طبلوا وزمروا لثوار الخميني في إيران، ولا يزالون يتعاونون وينسقون معهم رغم وضوح مخططاتهم وأهدافهم، ورغم ما فعلوه بأهل السنة الذين خدعوا بهم، وأحسنوا الظن بهم في إيران وغير إيران.
ومنها: تحميلهم لهذه الجماعات وزر دعاة الديمقراطية، الذين يتحالفون مع العلمانيين، ويستسهلون كل مركب من أجل تحقيق مكاسب سياسية رخيصة.
المشكلة عند دعاة حزب الولاة أنهم كذبوا ثم كذبوا ثم كذبوا ثم صدّقوا أكاذيبهم، وتوهموا أنها أصبحت حقائق لا مرية فيها، ولذلك بنوا عليها هذه النتائج المجحفة، وأصبحوا من الذين يصدق فيهم قول الشاعر:
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم
يا هؤلاء:

إن دعاة الوسطية من السلفيين الأحرار هم الذين حملوا دماءهم على أكفهم، وتصدوا للمد الرافضي في عنفوانه، وكانوا يعلمون أنهم يسبحون ضد التيار، وتذكر العقلاء المنصفون بُعْدَ نظرهم وصائب رأيهم بعد مرور سنوات على ثورة الخميني، وهم الذين تصدوا لدعاة المذهب العقلاني ففندوا شبهاتهم، وهتكوا أستارهم، وتصدوا كذلك للعلمانيين ولدعاة البدع والضلالات. وفي الوقت الذي كنتم تكتبون فيه التقارير لولاة أمركم، وتنشطون في زرع بذور الفتنة والشقاق بين إخوانكم المسلمين، كان دعاة الوسطية من السلفيين الأحرار يجوبون القارات، ويؤلفون الكتب والرسائل، ويلقون المحاضرات، ويعقدون الندوات دفاعاً عن دين الله، وذوداً عن عقيدة ومنهج أهل السنة والجماعة... فكيف تفترون عليهم، وتزعمون أنهم ينتسبون إلى جماعة تؤمن بكل هذه الانحرافات أو ببعضها؟!.

إن كل من يسبر غور هذا الحزب، يجد نفسه أمام نسيج غريب من الفوضى والتناقض والاضطراب، وندلل على ذلك بالأمثلة التالية:

1 - ذكرنا فيما مضى قاعدتهم الشهيرة: "من وقع في الكفر فقد كفر، ومن وقع في البدعة فقد ابتدع"، وعندما سأل سائل عن الصليب الذي تقلده فهد بن عبد العزيز في احتفال بلدية لندن نسف المحاضر هذه القاعدة من جذورها، وسئل محاضر[1] آخر عن شيخ فاضل فأفتى بكفره، ولكنه أخطأ فذكر اسم أخيه، وهو شيخ[2] وأستاذ جامعي ينأى بنفسه عن هذه الصراعات، فاستدرك المحاضر العتيد وصحح الاسم ثم أضاف قائلاً: "... (وأخوه) مثله يدعو إلى وسائل الشرك وإلى الشرك لكنه لا يتكلم كثيراً"، ومن لطف الله أن أحداً من الحضور لم يسأله عن دعاة آخرين لأن عقله في تلك اللحظات كان يشتغل على وتيرة تكفير المخالفين وحدها.

2 - يقولون: لا يجوز الحكم على نيات الناس، ولكن القول غير الفعل، ولا يكاد أي مخالف يسلم من الحكم على نيته، وفي المحاضرة الواحدة يجتمع الضدان على لسان المحاضر.

---

[1] من أعضاء هذا الحزب، وهو قرين للمحاضر الأول.

[2] لهذا الشيخ كتب مفيدة في علوم الحديث، وله رسالة يرد بها على شبهات وأوهام أحد كبار المبتدعين، فكيف يرميه هذا المهندس المحاضر بالشرك؟!.

3 - يحرمون على غيرهم مخالفة علماء الأمة، ومن حقهم وحدهم تحديد العالم من غيره، وقد يكون الرجل اليوم عندهم عالماً، ثم يغيّرون موقفهم منه في الغد لأنه قال قولاً يخالف منهجهم... وهؤلاء الذين يرفعون شعار احترام العلماء وتقديرهم، هم الذين يعيشون على نهش أعراضهم، وذكرنا فيما مضى من هذا البحث شواهد كافية على ذلك.
4 - قالوا: لا يجوز نصح ولاة الأمور إلا في السر، وشنّعوا على كل من يقول خلاف قولهم، وشاء الله أن يعرف الناس ماذا يقولون للولاة في السر، وذلك بعد انتشار تقريرهم الذي أسموه "التنظيم السري العالمي بين التخطيط والتطبيق"، وبعد اشتهار أمرهم أصبحت كتبهم كلها تقارير.
5 - زعموا أنني قلت: "إن السرورية كانت قبل خمسة عشر سنة، وأنها لم تكتشف إلا أثناء أزمة الخليج".
إنني لم أقل ما زعموه بل قلت: إن الحديث عن هذه الجماعة يتردد منذ حوالي خمسة عشر عاماً... ثم أضفت قائلاً: لا أعرف أن هناك جماعة اسمها "السرورية"، ولم أكن في يوم من الأيام مسؤولاً عن جماعة، وقلت أيضاً: إذا وجدتم في مشارق الأرض ومغاربها رجلاً يقول إنه سروري، فقولوا له إنني بريء منه، وليعد من شاء إلى مجلة السنة (العددين الصادرين في جمادى الأولى وجمادى الآخرة من عام 1413)، ثم ليتأمل من شاء قولهم الذي بنوا عليه أحكاماً وخرجوا منه باستنتاجات كثيرة، فهل يستغفلون ولاة أمرهم إلى هذا الحد لأنهم يعرفون عزوفهم عن البحث والقراءة؟!.
6 - يأخذون على دعاة الوسطية من السلفيين الأحرار اختراعهم لفقه أسموه "فقه الواقع"، ووقعوا فيما أخذوه على غيرهم، وبالغوا في ذلك أشد المبالغة، وإذا كان مخالفوهم قد أخذوا على عاتقهم قول كلمة الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمن ضوابطه الشرعية، فهم نصبّوا أنفسهم كمحامين عن ولاة أمورهم، فإذا أصدر ولي أمرهم تصريحاً، أو كُتبت له خطبة في إحدى المناسبات فألقاها أو ألقيت عنه بالنيابة تولوا شرحها والإشادة بها، وإذا صدر عن مخالفيهم من العلماء موقف ينكرون فيه منكراً أو يحذرون أمتهم من خطر محدق بها تولوا تسفيه هذا

الموقف، ولو كانت أدلته الشرعية واضحة كوضوح الشمس رأد الضحى.
لقد صال أحدهم وجال في نقد وزير من وزراء دويلة خليجية، ثم جاءته الأوامر من أحد قادة حزبه. ففضح نفسه، وكتب في صحيفة سيارة: قال لي الشيخ (وذكر اسمه) أن هذا الوزير من ولاة الأمور، ولا يجوز لك مهاجمته، وأنا أعتذر له (للوزير) من هذا الخطأ الذي أخطأته.
وهذا الأمر ليس خاصاً بالجزيرة العربية - وإن كانت عندهم مربط الفرس كما يقال - فقد يسكتون عن مدح الحكام في بعض البلاد العربية، لكنهم لا يسكتون أبداً عن نقد سياسة الجماعات الإسلامية وموقفها من هؤلاء الحكام، وتحميلها وزر كل ما يحدث[3] .
7 - سُئل الشيخ ناصر الدين الألباني عن فرقة من فرق أهل الغلو، فأجاب جواباً يتناسب مع طبيعة السؤال، وعقب فيما بعد الشيخ عبد العزيز بن باز تعقيباً يؤيد فيه ماقاله الشيخ الألباني، وإلى هذا الحد لا تزال المسالة عادية وليس فيها أي إشكال، غير أن أحد النكرات من أفراد هذا الحزب أضاف إلى السؤال ورد الشيخين أموراً لا علاقة لها بالموضوع وصنع من هرائه كتاباً سماه: "فتنة التكفير والحاكمية" وأسقط الفتوى على عدد من قادة الدعوة الإسلامية في العالم نذكر منهم: الشيخ حسن البنا والشيخ أبو الأعلى المودودي، والشيخ سيد قطب رحمهم الله تعالى، ولكنه من فرط جهله وضع اسمي بين أسماء هؤلاء الرجال العظماء، ثم أضاف قائلاً: إن البعض يفتخر بالانتساب إلى السرورية وليت هذا المفتري ذكر اسماً واحداً من هذه الأسماء المزعومة.
للتذكير فقط نقول: هذا كتاب واحد من كتب كثيرة تهدى ولا تباع، وتوزع على نطاق واسع، وتذكرنا بالكتب التي كانت تطبع ضد الشيعة وإيران أعقاب تنظيم الدولة الأخيرة لتظاهرات خلال مواسم الحج، تسببت في إراقة الدماء، وبعد التوصل إلى حل بين الدولتين عمدوا إلى إحراق هذه الكتب... وتذكرنا أيضاً بالكتب

---

[3] من الأمثلة على ذلك كتاب: (السياسة بين فراسة المجتهدين وتكيس المراهقين)، ومؤلفه جزائري مقيم في المدينة المنورة عند شيوخه غير أنه سمى نفسه عبد الله بن المبارك اليماني، ولم يترك في كتابه أحداً من قادة جبهة الإنقاذ الإسلامية الجزائرية إلا وشتمه، كما شتم الدعاة في البلاد العربية الذين أيدوا هذه الجبهة، وهذه هي فراسة المجتهدين عند هذا الظالم .

التي كانت تطبع ضد صدام حسين وحزبه أثناء حرب الخليج الثانية وبعدها، ثم هدأت الأمور، وتوقف الكرم الحاتمي الذي كان يغدق على مؤلفي هذه الكتب الذين لاهم لهم إلا المتاجرة بضمائرهم.
نصيحتي للشيوخ الأفاضل أن ينتبهوا لصنيع هؤلاء النكرات وإلى استغلالهم للفتاوى التي يردون بها على أسئلتهم ووضعها في غير موضعها، كما أنصحهم بالحذر من الصحيفة التي يسميها الدعاة في الجزيرة "خضراء الدمن"، والتي تتخذ من الإسلام شعاراً لها، أحذرهم منها لأنها مصدر الفتنة.

<u>الخاتمة:</u> أحسب أنني - من خلال هذا البحث - قد أثبت أن خلاف حزب الولاة في الجزيرة العربية مع دعاة الوسطية من السلفيين الأحرار ليس حول الموقف من المبتدعين. ولا حول حدود وكيفية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولاحول أمور من هذا القبيل، ولو كان الأمر كذلك لما وجد الطرفان أية صعوبة في الدعوة إلى حوار، والخروج منه بنتيجة حاسمة، ونؤكد على ذلك لأن ما يجمع بينهم أكثر مما يفرقهم، فمما يجمع بينهم وحدة المنهج والاعتقاد، ومن ثم فهم يستنون بأقوال أئمة السلف في القديم والحديث.
لكن المشكلة من أساسها أن قيادة هذا الحزب دخلت المعركة استجابة لأوامر صدرت إليها من ولاة أمرها الذين سلموا زمام الأمور في جزيرة العرب - التي لا يجوز أن يجتمع فيها دينان - إلى المشركين من الأمريكان وحلفائهم، والحزب لا يرضى إلا إذا رضي الولاة، والولاة لا يرضون إلا إذا رضي الأمريكان، وهيهات ذلك لأننا نتعبد الله بعداوة وبغض المشركين والمطالبة بتطهير الجزيرة العربية وكل بقعة من ديار المسلمين من رجسهم.

نحو كيان جديد (الحلقة 25)
الحوار بين أهل السنة
السلفية بين الولاة والغلاة
حزب الغلاة
محمد سرور زين العابدين

الغلو: "مجاوزة الحد بأن يزاد في الشيء، في حمده، أو ذمه، على ما يستحق أو نحو ذلك"[1] ، وهو عام لا يخلو منه عصر ولا مصر، فمن الناس من يغالي في مسائل الاعتقاد، ومنهم من يغالي في مسائل المعاملات والعادات.
وكل من يجيل الطرف ويدقق النظر بمن يعرفهم ويتعامل معهم، لابد وأن يجد بينهم من يغالي في حبه إذا أحب، وفي بغضه إذا أبغض. يبالغ في حبه فيكاد لا يرى في الدنيا غير محبوبه، ولهذا فهو ينسب إليه كل فضل ومروءة وكرم، ولا يقبل فيه أي نقد أو تجريح، وإذا رأى منه ما يكره اتهم فهمه، واختلق له الأعذار والتبريرات، ويصدق في هذا النوع من الحب قول الشاعر:
تحمل عظيم الذنب ممن تحبه وإن كنت مظلوماً فقل أنا ظالم
أو قول الشاعر الآخر:
وما الحب إلا طاعة وتجاوز وإن أكثروا أوصافه والمعانيا
وفجأة ومن غير مقدمات ينقلب المحب على من يحبه، ويغالي في الثانية كما غالى في الأولى، وينظر إلى صديق الأمس بعين البغض والكراهية، فلا يرى فيه إلا النقائص والرذائل، ولا يبالي بكشف كل الأسرار التي كان قد خصه بها وائتمنه عليها... وإذا قيل لهذا الغالي: اقتصد في حبك وكرهك، ولا تكن من المسرفين، انتفض غضباً لأنك تريد أن تحول بينه وبين نصحه للناس، والدين النصيحة.

---

[1] - عن كتاب: "اقتضاء الصراط المستقيم" لشيخ الإسلام ابن تيمية.

وإذا كان الغلو في الدين، فترى الغلاة يرفعون راية الأخذ بالعزائم لأن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، ويحذرون من الميل إلى الأخذ بالرخص، ولا بأس من ذلك إذا كانت العزائم والرخص من الأمور المشروعة من الدين، ولكن البأس كل البأس هو الجنوح بالعزائم حتى تصل بصاحبها إلى حد الكفر المخرج من الملة وذلك بعد أن يستسهل الابتداع في دين الله.
وهذا الذي فعله اليهود والنصارى عندما غالوا بأنفسهم وبأنبيائهم، قال تعالى: {وقالت اليهود والنصارى نحن أبناءُ الله وأحباؤه} [المائدة: 18]، وقال سبحانه: {وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون} [التوبة: 30].
وغالت الرافضة في حب علي وآل بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ونسبوا إليهم العصمة، وغالى الخوارج في بغض علي وبغض الصحابة الذين شاركوا في حرب صفين والجمل رضي الله عنهم، كما غالوا في قولهم: الإيمان مجموع ما أمر الله به ورسوله، وإذا ذهب بعضه لم يبق مع صاحبه من الإيمان شيءٌ فيخلد في النار، وغالت المرجئة عندما قالت الإيمان هو المعرفة، وأنه لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة.
خالف هؤلاء المبتدعون ببدعهم التي جاءوا بها يسر الإسلام ووسطيته التي دلت عليها النصوص الشرعية: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هلك المتنطعون" قالها ثلاثاً. وقال النووي: "هلك المتنطعون: أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم"[2] .
وعن أنس بن مالك رضي ا لله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني

---

[2] - رواه مسلم، كتاب العلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي: 16/220.

أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني [3] .
ومما ينبغي التأكيد عليه أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين تجاوز المرء لحدود الله [الغلو] وبين الشيطان ونزغاته، وقد بيّن ابن القيم رحمه الله بأسلوبه الفريد مدى هذا الارتباط فقال:
"فما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو. ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين، فكما أن الجافي عن الأمر مضيعٌ له، فالغالي فيه: مضيعٌ له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد"[4] .

*** * ***

وفي هذا العصر شهد الناس نوعين من الغلو: غلو تقليدي، كغلو الرافضة، وغلو المرجئة وغيرهم، ولن نقف عنده لأنه معروف عند كل من درس وتعلم عقائد ومناهج الفرق الغالية.
وغلو جديد يعتبر سمة مميزة من سمات هذا العصر، وهو الذي صنعه الطغاة في سجونهم المظلمة الموحشة... صنعوه بسياطهم التي تلهب أجساد الدعاة الأبرياء، وبطرق التعذيب الحديثة التي استوردوها من الدول الأجنبية التي ابتكرت طرقاً وآلات لم تكن معروفة من قبل... صنعه الطغاة عندما أطلقوا الكلاب الشرسة تنهش من جسد المعذَّب وهو معلق كالذبيحة، عار من كل ثيابه كيوم ولدته أمه.
صدر حكم المحكمة العسكرية العليا عام 1976 في قضايا التعذيب التي شهدتها السجون المصرية في مرحلتي: الخمسينيات والستينيات، وننقل فيما يلي فقرة من حيثيات هذا الحكم لأنه بمثابة شاهدٍ على الوحشية من أهل هذا النظام:
"إن المحكمة لتسجل بحق أن الجريمة موضوع هذه الدعوى (تعذيب) كانت سبة في جبين الحكم المصري، يندى لها خزياً وعاراً، ولعل في حكم المحكمة ما يسدل على حقبة من تاريخ مصر امتهنت فيها وأهينت كرامة

---

[3] - رواه البخاري، كتاب النكاح، ومسلم كتاب النكاح.
[4] - مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية: 2/517.

الإنسان، الذي كفل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان حدها الأدنى، حقبة من تاريخ مصر كانت فيها السيادة للسياط توصلاً للإرهاب وللإلقاء في غياهب السجون أو تقرباً زلفى للحكام والرؤساء، حقبة من تاريخ مصر تضاءلت فيها سمعة سجن الباستيل بفرنسا، وطغت عليها سمعة السجن الحربي بمصر، حقبة من تاريخ مصر أعادت إلى الأذهان ذكرى محاكم التفتيش وما كان يجري فيها من مخاز وفظائع، حقبة من تاريخ مصر تسابق فيها الجلادون إلى ابتكار وسائل التعذيب" اهـ [1] .

إن حكم المحكمة العسكرية العليا لم يسدل الستار على هذه الحقبة الدموية من تاريخ مصر، كما جاء في قرار الحكم، فقد عادت الاعتقالات في عام 1977، واستمرت في تزايد، فقبل مقتل فرعون بقليل [قتل في 6/10/1981] كان قد ملأ السجون بزعماء مصر من الإسلاميين على مختلف اتجاهاتهم، والعلمانيين المعارضين لسياسته، وشهدت مرحلة الثمانينيات ألواناً فظيعة من التعذيب داخل السجون، وعندما لم يشبع التعذيب نهم السلطة أمرت رجال أمنها بإطلاق النار على المشتبه بهم لأنهم ماعادوا قادرين على رؤية هؤلاء الشباب يعيشون أحياء، ولو كانت هذه الحياة داخل السجون الرهيبة، ومن جهة أخرى فما عادت سجونهم تتسع لعشرات الآلاف من الأبرياء.

كذلك الحال كان في عدد من البلدان العربية، فقد تحدث العالم أجمع من خلال وسائل الإعلام عن إبادة المئات داخل السجون، وعن دفن بعضهم وهم أحياء في أخاديد حفرتها الجرافات الضخمة، كما تحدث عن تدمير مدن وأحياء ومخيمات، وأقرب مثال على ذلك: مدينة حماة، وطرابلس الشام، ومخيمات صبرا، وشاتيلا، والكرنتينا، وتل الزعتر، بل وأقرب من ذلك المذابح التي تشهدها الجزائر، فقد زاد عدد القتلى على خمسين ألفاً، والعصابة المجرمة هم رجال الحكم العسكريون الذين استخدموا الجيش وقوات الأمن في أعمال ومهمات مناقضة جملة وتفصيلاً لأعمالها ومهماتها الأساسية.

---

[1] - انظر الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو، الجزء الأول، المناخ الذي ولدت فيه أفكار الجماعة: 1/297.

لم تعد الضروريات الخمس التي استهدفت الشريعة الإسلامية المحافظة عليها في أمان، ولقد أصبح الدين والمال والنسل والنفس والعقل في خطر، وماذا يبقى للإنسان في هذه الحياة إذا كان مهدداً في دينه ونفسه وماله وعرضه وأبنائه، بل وفي عقله، ومن شاء دليلاً على ذلك فليراجع بيانات منظمات حقوق الإنسان، مع أن هذه المنظمات الغربية لا تدين بالإسلام، ولا تمثل وجهة نظر الإسلاميين من قريب أو بعيد.

وتجاوزت المأساة حدود دولة العصابة لتشمل البلدان العربية كلها التي اختلفت فيما بينها على كل شيء، واتفقت على عدم إيواء الدعاة، وتسليم من جاءهم مذعوراً يبحث عن الأمن والاطمئنان إلى سلطات الأمن في بلده، مع أنهم يعلمون أنه سيقتل شر قتلة، وذلك بعد أن ينتزعوا منه ما يشاءون من المعلومات التي تكون سبباً في توريط دعاة آخرين، وكان بوسع الذين سلموا هذا الضحية أن يبقوه في بلدهم ويمنعوه من ممارسة أي نشاط يضر بالدولة التي فرَّ منها، ولكن عداوة الطغاة للإسلام والمسلمين حملتهم على ارتكاب هذه الفظائع الوحشية.

لم تكن هذه الظاهرة معهودة قبل بضعة عقود، فالمطاردون من قبل أجهزة الأمن المصرية بتهمة مقتل السادات، وجدوا ملجأ لهم في عدد من البلدان العربية، وكذلك الإخوان المسلمون الذين فرّوا من طغيان عبد الناصر، بل وجدوا وظائف تتناسب مع خبرتهم وشهاداتهم في كل من الجزيرة العربية، والمغرب العربي، وبلاد الشام.

ومن بقايا ما يحسن أن يذكر عن النخوة والمروءة وإغاثة الملهوف (وهذه من صفات العرب حتى في جاهليتهم) أن الزعيم العراقي رشيد عالي الكيلاني التجأ إلى السعودية عندما هُزم الألمان في الحرب العالمية الثانية، ورفض الملك عبد العزيز تسليمه إلى بريطانيا التي كانت حريصة على معاملته كمجرم حرب، وألح الإنكليز في طلبهم، وأصر الملك عبد العزيز على موقفه مهما كلفه هذا الموقف، علماً بأن بريطانيا كانت تحكم مشيخات الخليج، ومن جهة ثانية فقد خرجت منتصرة في الحرب، وهذا يعني أنها كانت في أوج قوتها، ومن جهة ثالثة فقد كانت السعودية دولة ضعيفة،

وبحاجة إلى مساعدات بريطانيا التي كانت تقدمها لها، ومن جهة رابعة فإن السعودية لم تكن على علاقات وثيقة مع الكيلاني... وأمام إصرار السعودية تفهمت بريطانيا حرج السعودية أمام العرب لو سلمتها الكيلاني، فتراجعت عن موقفها، ووقفت مصر ممثلة بالملك فاروق الموقف نفسه رافضة تسليم الحاج أمين الحسيني -الذي التجأ إليها- للإنكليز.
تغيّر الموقف العربي تغيراً مذهلاً، ولم يعد حتى بيت الله الحرام ملاذاً آمناً للركع السجود، فقد انتشرت نقاط التفتيش حوله تبحث عن كل من لا يحمل إقامة رسمية لتطرده أو لتسلمه إلى البلد الذي قدم منها.
هؤلاء المضطهدون من خيرة أبناء أمتنا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وفقدوا القدرة على الصبر، ولم يعد أمامهم إلا اختيار حمل السلاح ضد هؤلاء الوحوش الضارية، ولسان حالهم يقول:
وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جبانا
وأصبحت قضية جهاد الطواغيت عند بعضهم هي ركن الأركان الذي يحكمون على غيرهم من خلال موقفهم منه، ومن خالفهم في ذلك فهو ضال مضل، ومبتدع هدام.
ولما كان دعاة هذا الحزب قد غالوا في مفهوم الجهاد، فقد رأينا أن نقدم لهذا الموضوع بكلمة نبيّن فيها مكانة الجهاد وأهميته في الإسلام، ثم ننتقل بعد ذلك إلى مناقشة انحرافات القوم.

*** * ***

<u>أهمية الجهاد:</u> "الجهاد ذروةُ سنام الإسلام وقُبَّتهُ، ومنازلُ أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرِّفعةُ في الدنيا، فهم الأعلونَ في الدنيا والآخرة"[2] .
أما أن منازل المجاهدين هي أعلى المنازل في الجنة، فقد قال صلى الله عليه وسلم: "إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين كُلِّ درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله

---

[2] - زاد المعاد، لابن القيم: 3/5، مؤسسة الرسالة.

فاسألوه الفردوس، فإنهُ أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجرُ أنهار الجنة"[3] .
وقال: "رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها"[4] .
وقال: "من اغبرت قدماه في سبيل الله حرَّمه الله على النار"[5] .
وكتب عبد الله بن المبارك وكان يرابط في ثغر من ثغور المسلمين إلى الفضيل بن عياض يقول:

يا عابد الحـــــرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك في العـــبادة تلعـب
من كان يخضب خده بدموعـه فنحـــــورنا بدمـــائنا تتـخضب
أو كان يتعب خيله في بـــاطل فخـــيولنا يــوم الصبيحـــة تتعب
ريح العبير[6] لكم، ونحن عبيرنا رهج[7] السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتـــانا مــن مقــال نبينا قول صحيح صادقٌ... لا يكذب
لا يستوي وغبار أهــل الله في أنف امرىء ودخــان نـار تلهب
هذا كتـاب الله ينطـــق بيننا ليــس الشـــهيد بميت لا يكذب

ولما كان الجهاد دائماً لا ينقطع لأن الأسباب الداعية إليه دائمة كذلك، فقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بالاستعداد المناسب لمواجهة الأعداء، قال تعالى: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم} [الأنفال: 60].
وأخرج مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: "{وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي" قالها ثلاثاً.

---

[3] - أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله.
[4] - أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب فضل رباط يوم في سبيل الله.
[5] - أخرجه البخاري، الجهاد، باب من اغبرت قدماه في سبيل الله.
[6] - أخلاط تجمع بالزعفران، [عن مختار الصحاح].
[7] - الرهج: الغبار.

وقال صلى الله عليه وسلم: "من علم الرمي، ثم تركه فليس منا، أو قد عصى"[1] .
ولن يرهب المسلمون عدوهم إلا إذا تسلحوا بكافة الأسلحة الحديثة، وإطلاق الرمي يشملُ كل ما يرمى به العدو من سهم أو قذيفة منجنيق أو طيارة أو بندقية أو مدفع وغير ذلك، وإن لم يكن كل هذا معروفاً في عصره صلى الله عليه وسلم، فإن اللفظ يشمله والمراد منه يقتضيه[2] .
لم يغفل سلفنا - رضوان الله عليهم - عن الجهاد وعن الإعداد له، ففتحوا الفتوح، وقهروا الفرس والرومان، ورفعوا راية لا إله إلا الله في كل مكان من المعمورة واستحقوا أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس، وغفلنا اليوم عن الجهاد فتداعت علينا الأمم من كل حدب وصوب فاستباحت بيضتنا، وسلبتنا أعز ما نملك، وصدق فينا قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا ضنَّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل الله بهم بلاءً، فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم"[3] .
وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لثوبان: "كيف بك يا ثوبان إذا تداعت عليكم الأمم كتداعيكم على قصعة الطعام تصيبون منه؟ قال ثوبان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أمن قلة بنا؟ قال: لا، أنتم يومئذٍ كثير، ولكن يلقى في قلوبكم الوَهَن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله، قال: حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال"[4] .
هذا هو موطن الداء، وهذا هو الدواءُ وليس بعد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم قولٌ {وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى} [النجم: 3 - 4].
ومن آثار هذا المرض أننا رضينا بدنيا لا نريد فراقها، وتعلقت قلوبنا بسفاسف الحياة وزخارفها، ولو كان لأحدنا واديان من ذهب لسعى من أجل أن يكون له الثالث، ولهذا فقد استمرأنا الذل والهوان، وقبلنا الدنية في ديننا.

---

[1] - أخرجه مسلم، كتاب الجهاد، باب الحث على الرمي. انظر مختصر صحيح مسلم، ص: 292.
[2] - مقتبس من كتاب (قل هو من عند أنفسكم)، للمؤلف، ص: 85.
[3] - أخرجه أحمد: 2/28، والبيهقي: 5/316، وأخرجه أبو داود بلفظ قريب من هذا اللفظ (2462)، وفي صحيح سنن أبي داود (2956).
[4] - رواه أحمد، وإسناده حسن، وأبو داود: 2/426، (انظر مجمع الزوائد: 2/285).

ومن جهة أخرى فقد يتطلع المؤمن إلى معالي الأمور التي ترضي الله سبحانه وتعالى، ولكن مشاغل الحياة تشده إلى غير ما ينبغي لأن الموظف الذي يتقاضى راتباً لا يفي بضروريات حياته وحياة أسرته يجد نفسه مضطراً إلى عمل آخر في مساء نهاره، ويصبح كالدولاب الذي يدور باستمرار، ولا يجد الوقت الكافي للعمل الدعوي، وإذا فعل غير ذلك ذاق عياله مرارة الجوع والحرمان.
ومن جهة ثالثة، فإن الذين حددوا هذه المرتبات أرادوا عن عمد وسوء قصد أن ينصرف الناس إلى غير ما خلقهم الله من أجله: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين}.
وإن الذي أدين الله به أن أمتنا لن تنهض من سبات نومها العميق إلا إذا تناولت الدواء الذي حدده رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الآنف الذكر، ويتلخص هذا الدواء بكلمة واحدة: "الجهاد" فالجهاد نقيض الذل والقهر والاستعباد، وإن أي طريق غير طريق الجهاد تبديد للجهد وإضاعة للوقت في غير طائل، ومن هذا القبيل مسألة "الانتخابات البرلمانية" لأنها فُصّلت بطريقة علمانية تتعارض مع المفاهيم الإسلامية، والذين خاضوا غمار هذه التجربة لم يحققوا ما كانوا يَعِدوُن الناس به، بل وإن معظمهم كانوا يجدون أنفسهم فجأة أمام موقف محرج، لا يستطيعون تجاوزه إلا بالمساومة وتقديم التنازلات، وعندما علم شياطين العلمانية استعداد هؤلاء الإسلاميين إلى تقديم التنازلات عمدوا إلى مزيد من الاستدراجات، وعندئذٍ أدرك الناخبون أن هؤلاء الذين أعطوهم ثقتهم طلابُ مناصب، وليسوا أصحاب مواقف، فانفضوا عنهم، وصدق فيهم قوله تعالى: {ودوا لو تدهن فيدهنون}.
وإن الذي أدين الله به أيضاً أن السلام المزعوم الذي ينادي به اليهود والنصارى أخطر مؤامرة على ديننا وأمتنا وذلك من وجوه:
الوجه الأول: إذا افترضنا جدلاً صدقهم فيما ينادون به ويدعوننا إليه، فإن هذا السلام يعني إلغاء أو تعطيل فريضة الجهاد، وهذا أمر نتعبد الله به، ولا يقبل المساومة، وقبولنا بما يدعوننا إليه كفر مخرجٌ من الملة.

الوجه الثاني: كيف نسالم من يحتل أرضنا وقدسنا، وزيادة على ذلك فهو يملك أسباب القوة المدمرة، ويستخدمها بشكل دائم في الاعتداء علينا، واعتداءاته المتكررة تؤكد كذب ما يدعيه.
الوجه الثالث: يعرف العدو أهمية الجهاد في الإسلام، كما يعرف أن المسلمين لو ملكوا حق إصدار القرار في بلدانهم، وأعلنوا الجهاد ضد الأعداء المحتلين لتغير الحال، ولما وجدنا لليهود والنصارى موضع قدم في بلادنا، وهذا الذي يخشونه أشد الخشية، ويستخدمون كافة وسائلهم وإمكاناتهم العالمية من أجل تشويه صورة الجهاد والمجاهدين.. ونتيجة لهذه الدعاية الخبيثة أصبح المسلم الذي يدافع عن دينه ثم عن نفسه وأرضه إرهابياً متطرفاً، أما حروب الأمريكان واليهود، وعمليات الإبادة الجماعية في بلادنا فيسمونها عملاً مشروعاً من أجل القضاء على الإرهاب، واستئصاله من جذوره.
ومن العجب أن الإعلام الظالم في بلادنا يردد كالببغاء ما يقوله العدو، والقائمون على هذا الإعلام أشد خطراً من اليهود والنصارى، لأنهم أداة من أدواته، ومنفذون لمخططاته، وليسوا بعد ذلك معذورين بجهلهم لأنهم يعرفون ما يريده العدو منهم، وبينهم وبينه اتفاقات ومعاهدات سرية مذلة، والمستهدف من ذلك كله شعوبنا المستضعفة البائسة، ومن يتحالف مع العدو ضد شعبه فليس أمامه إلا الاستعباد ولو كان حاكماً.
وقصارى القول: فقد رأينا إثبات هذه الكلمة الموجزة عن أهمية الجهاد قبل الشروع في مناقشة انحرافات حزب الغلاة الذي يرفع شعار الجهاد، ولكن الشعار عندهم غير المضمون.
وكما قلت غير مرة: إنني لا أتحدث عن انحراف شخص، وإنما سأتحدث عن انحراف منهج وتصورات، فالشخص يزول ويأتي غيره، والجماعات التي يصبغها الشخص بصبغته لا يناط بها آمال كبيرة، أما إذا استقام المنهج وصح الاعتقاد، فالجماعة على خير، ويصعب اختراقها أو انحرافها.
وإني إذ أحذر من الطغاة الذين يعملون من أجل إلغاء فريضة الجهاد استجابة لأوامر أسيادهم من اليهود والنصارى ومن نحا نحوهم، وأحذر أيضاً من المبتدعين المنحرفين الذين يزعمون أن الجهاد غير ملائم لطبيعة

العصر، بينما كان ملائماً للعصور السابقة، ولا جهاد اليوم - عندهم - إلا جهاد الكلمة ومقارعة الحجة بالحجة، وآخرون من هؤلاء المنحرفين يرون أنه لا جهاد غير جهاد الدفع.
إنني إذ أحذر من هؤلاء وأولئك فإنني أحذر أيضاً من الذين يرتكبون أبشع الجرائم وأقبح الأفعال باسم الجهاد فيسيئون إلى هذه الفريضة، ويقدمون للناس صورة مشوهة عنها.
ولا يفوتني في هذا الصدد الدعاء لإخواننا الذين جاهدوا - ويجاهدون اليوم - في ارتيريا، وكشمير، والشيشان، وغيرها من بلاد المسلمين، وأسجل إعجابي بالإخوة المتطوعين الذين جاهدوا في البوسنة، فلم ينحرفوا عن المنهج الحق، وأثبتوا بأنهم قد استفادوا من الدرس الأفغاني، وانسحبوا بهدوء إلى بلاد الشيشان وغيرها عندما أصبح وجودهم محرجاً لإخوانهم أهل البوسنة، رحم الله من استشهد منهم - نحسبهم كذلك ولا نزكي على الله أحداً-، وجزى الله الأحياء منهم كل خير.

للبحث صلة

* * *

نحو كيان جديد (الحلقة 26)
الحوار بين أهل السنة

السلفية بين الولاة والغلاة

حزب الغلاة

محمد سرور زين العابدين

اشتملت الحلقة الماضية على الفقرتين الآتيتين:
- ظروف نشأة هذا الحزب.
- أهمية الجهاد.
وتشتمل هذه الحلقة على الفقرتين الآتيتين:
- قيمة ما يصدر عنهم من فتاوى.
- فتنة إباحة دماء المخالفين.

قيمة ما يصدر عنهم من فتاوى

الذين تبوؤوا مراكز الافتاء في تاريخنا الإسلامي علماء أعلام طغت شهرة كثير منهم على شهرة خلفاء عصورهم، وكان من أشهرهم: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر... من الصحابة. وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعطاء بن أبي رباح... من التابعين.
ثم جاء دور الأئمة الأربعة: أبو حنيفة النعمان، ومالك، والشافعي، وأحمد ابن حنبل... وما من حقبة من حقب تاريخنا إلا ولها مفتون، حفظت لنا كتب الرجال سير حياتهم، وأهم الميزات التي امتازوا بها، وما قاله المحبون في الثناء عليهم، أو ماقاله بعض الأقران في نقدهم وتجريحهم.
ليس بين هؤلاء المفتين مجاهيل نكرات، ويكفي أن يُذكر لنا اسم من الأسماء، حتى نستخرج من كتب الرجال ما يكفي لنتبين هل كان من أهل السنة والجماعة أم من أهل البدع والضلالة؟!.

ومن جهة أخرى فهناك شروط يجب أن تتوفر في المفتي، ونكتفي هاهنا بذكر ما يتصل منها بموضوع بحثنا.

1 - العدالة: يقول الإمام أحمد بن حنبل: "أما اشتراط إسلامه وتكليفه وعدالته فبالإجماع، لأنه يخبر عن الله تعالى بحكمه فاعتبر إسلامه وعدالته لتحصل الثقة بقوله، ويبنى عليه كالشهادة والرواية"، وقال أيضاً: "العدل من استمر على فعل الواجب والمندوب والصدق، وترك الحرام والمكروه والكذب، مع حفظ مروءته ومجانبة الريب والتهم بجلب نفع ودفع ضرر... وبالجملة كل ما يأثم بفعله مرة يفسق بفعله ثلاثاً، وإن كان كبيرة فمرة، وكل ما أسقط المروءة أسقط العدالة إذا كثر وإن لم يكثر لم يأثم به"[1] .

2 - الحلم والوقار والسكينة: قال ابن قيم الجوزية: "الحلم زينة العلم وبهاؤه وجماله، وضده الطيش والعجلة والحدة والتسرع وعدم الثبات؛ فالحليم لا تستفزه البَدَوات[2] ، ولا يستخفه الذين لا يعلمون، ولا يقلقه أهل الطيش والخفة والجهل، بل هو وقور ثابت ذو أناة يملك نفسه عند ورود أوائل الأمور عليه ولا تملكه أوائلها، وملاحظته للعواقب تمنعه من أن تستخفه دواعي الغضب والشهوة"[3] .

3 - العلم: قال الإمام أحمد بن حنبل: "ينبغي للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالماً بوجوه القرآن، عالماً بالأسانيد الصحيحة، عالماً بالسنن، وإنما جاء خلاف من خالف لقلة معرفتهم بما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وقلة معرفتهم بصحيحها من سقيمها"[4] .

4 - التجرد: قال ابن القيم: "لا يجوز للمفتي أن يعمل بما يشاء من الأقوال والوجوه من غير نظر في الترجيح... ولايجوز العمل والإفتاء في دين الله بالتشهي والتخير وموافقة الغرض؛ فيطلب القول الذي يوافق غرضه وغرض من يحابيه فيعمل به، ويفتي به،

---

[1] - صفة الفتوى والمفتي والمستفتي، للإمام أحمد بن حمدان الحراني، المكتب الإسلامي، ص: 13.

[2] - البدوات: الآراء المختلفة.

[3] - أعلام الموقعين، لابن القيم: 4/200، مكتبة الكليات الأزهرية.

[4] - أعلام الموقعين: 1/44، مصدر سابق.

ويحكم به، ويحكم على عدوه ويفتيه بضده، وهذا من أفسق الفسوق وأكبر الكبائر، والله المستعان"[5] .
5 - الزهد في الفتيا: كان أئمة القرون المفضلة يتهيبون من الفتيا، قال الإمام مالك: "من فقه العالم أن يقول: لا أعلم"، وقال الشعبي: "لا أدري نصف العلم"، وكان ابن المسيب لا يكاد يفتي إلا قال: اللهم سلمني وسلم مني"[6] .
لنحاول فيما يلي تطبيق هذه الشروط على الغلاة الذين يخوضون في أخطر المسائل الشرعية وأدقها، ويفتون بها:
1 - قلنا: إن المفتين معروفون في جميع حقب تاريخنا الإسلامي، وقد حفظت كتب الرجال كل ما يتصل بهم من جرح وتعديل، أما المفتون من حزب الغلاة فهم نكرات مجهولون، ويكنون بأسماء أبنائهم، ولا ندري كيف تكون الشهرة للابن مع أنه قد يكون طفلاً، وقد لا يكون له وجود ابتداء، فقد يغيّرون الكنية إذا انتقلوا من بلد إلى بلد آخر؟!.
وبعضهم قد يعرف باسم غير اسمه الصحيح متذرعاً بضرورات أمنية، مع أن الجهات الأمنية التي يتذرع بها تعرف عنه مالا يعرفه أقرب الناس إليه... ومن ذلك أنها تعرف اسمه الصحيح، والكنى التي يستخدمها، وتعرف الكثير عن تاريخه وتاريخه جماعته، وهذه حقيقة ثابتة لا مجال لإنكارها، أو التقليل من شأنها.
ترى هل من المعقول أن يكون هذا المفتي معروفاً عند أجهزة الأمن، ومجهولاً عند الذين يريد منهم أن يستمعوا لفتاويه ويأخذوا بها؟!، ومن جهة أخرى فهم يفتون في قضايا غاية في الأهمية والدقة، مثل الخروج بقوة السلاح، وقتل الأشخاص الذين يحكمون عليهم بالردة وغير ذلك، وقد يتبيّن فيما بعد أن أحد هؤلاء المفتين رجل أمن زرعه الطغاة داخل الصف الإسلامي، والشواهد على ذلك كثيرة!!.
2 - كما أن العلماء الذين يتبوؤون مراكز الافتاء معروفون في جميع حقب التاريخ، فهم كذلك معروفون في هذا العصر، ويستطيع طالب العلم الذي يتابع ما يصدر من كتب ومحاضرات أن يذكر أبرز أسماء هؤلاء

---

[5] - أعلام الموقعين: 4/211 ، مصدر سابق.
[6] - أعلام الموقعين: 2/186، مصدر سابق.

العلماء الذين يشهد لهم علمهم وفضلهم، ويشهد لهم الثقات الذين يحيطون بهم ويعرفونهم حق المعرفة، ويحاول إعلام الطغاة إبراز نوعية من الذين يلبسون العمائم والقفاطين فما يزيد ذلك الناس إلا ازدراء لهم ونفوراً منهم، وذلك لأنهم يرون ويسمعون ألواناً شتى من نفاقهم وتزلفهم لأولياء أمورهم.
ليس بين العلماء الثقات أحد من الغلاة، لأن هؤلاء الغلاة قد شغلوا أنفسهم بقضية الردة والخروج، وليس عندهم الوقت الكافي لدراسة علوم القرآن، والتعمق في علوم الحديث والفقه، ومن جهة أخرى فغير وارد عندهم التتلمذ على أيدي الفضلاء من العلماء لأنهم - عندهم - منافقون وعلماء سلطة وأخذ العلم عنهم تزكية لهم!.
3 - كل من يعرف القوم ويعاشرهم يعلم أنهم أهل طيش وعجلة وحدة ونزق، ويعلم أيضاً أن مواقفهم متطورة متقلبة لا تعرف الثبات ولا الاستقرار، ومثل هذه الصفات تتعارض مع الحلم والسكينة والوقار، وهي - كما مر معنا - من الشروط التي يجب أن تتوفر في المفتي، ومن حُرمها فقد بطلت فتواه لأن الحدة سوف تتملكه إذا نظر في قضية من القضايا، ولن يستطيع أمامها الحياد والتجرد في حكمه.
4 - الخروج[1] محور نشاط حزب الغلاة، والأساس الذي يعتمدون عليه في تحديد موقفهم من الآخرين، فمن قبل بدعتهم وقال بقولهم، فقد جاوز القنطرة عندهم، وأصبح من أهل الفرقة الناجية، ومن خالفهم فقد هلك وأهلك، ولو كان من العلماء العاملين الذين يصدعون بكلمة الحق غير هيابين ولا وجلين، ولا يمنعهم المحن التي ينزلها الطغاة بهم من إنكار المنكر، والتمسك بطريق الذين أنعم الله عليهم من الصحابة والتابعين ومن نحا نحوهم.
إن صاحب هذه البدعة لا تقبل فتواه لأنه سيفتي بالتشهي والتخير وموافقة الغرض، وسوف يختار من الأدلة ما وافق هواه، ويتحايل في رد ما يخالفه، "وهذا حرام باتفاق الأمة"[2] .
5 - إذا كان العلم شرط من شروط من يتولى الإفتاء، فليس بين أهل الغلو من يستحق أن يقال عنه بأنه عالم،

---

[1] - كلما مرّ ذكر كلمة الخروج فيما أكتبه عن الغلاة، فإنما أعني الخروج البدعي، وليس الخروج الشرعي إذا توفرت شروطه.
[2] - هذه عبارة ابن قيم الجوزية، أنظر أعلام الموقعين: 4/211.

وأمثال هؤلاء الجهلة لا يجوز لهم الإفتاء حتى ولو كان ما يقولونه صحيحاً، قال أحمد بن حنبل: "تحرم الفتوى على الجاهل بصواب الجواب، لقوله تعالى: {ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام، لتفتروا على الله الكذب} [النحل/117]، وقوله تعالى: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون} [الأنعام/ 33]، وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الرجال، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا"[3] .

الرؤساء الجهلة، والمفتون الجهلة سمة من سمات هذا العصر، وهؤلاء الجهلة لا يتورعون عن الافتاء في كل مسألة تعرض عليهم، وهذا الذي كان يتجنبه سلف هذه الأمة، ولا يجدون أي غضاضة في قولهم، لا أدري... لا أعلم، "سئل الشعبي عن مسألة، فقال: لا أدري، فقيل له، ألا تستحي من قولك: لا أدري وأنت فقيه أهل العراق؟ فقال: لكن الملائكة لم تستحِ حين قالوا: {لا علم لنا إلا ما علمتنا}"[4] ، وقال جل من قائل لنبيه صلى الله عليه وسلم: {قل ما أسألكم عليه من أجر؛ وما أنا من المتكلفين} [ص: 86].

وقال ابن القيم: "وصح عن ابن مسعود وابن عباس: من أفتى الناس بكل ما يسألون عنه فهو مجنون"[5] .

مجنون (!!) إذا أفتى بكل ما يسألونه عنه، فكيف إذا كان مع ذلك يعتقد أن ما يفتي به هو الحكم الشرعي القطعي الذي لا يقبل أية مراجعة أو اعتراض... ويعتقد أيضاً أن القول المخالف باطل، والقائل به متهم في دينه وخلقه؟!.

ومن تناقضات القوم العجيبة أنهم يتحدثون باسم السلف، وهم وحدهم الذين يفهمون أقوال السلف ويستدلون بها، وما من فتوى لهم إلا وتتضمن شواهد من القرآن والسنة، ثم من أقوال السلف، وتبقى

---

[3] - أخرجه الشيخان.
[4] - أعلام الموقعين: 4/218.
[5] - أعلام الموقعين: 2/185.

المشكلة عندهم في إسقاط هذه الأدلة على واقعة توافق بدعتهم وتخالف مدلولات هذه الأدلة.
إن السلف الذين يكثرون من الاستدلال بأقوالهم كانوا يرون أن أقوالهم صواب تحتمل الخطأ، وأقوال مخالفيهم خطأ يحتمل الصواب، ومن مآثرهم الحميدة أن المفتي كان يتراجع عن خطئه عندما يتبين له ذلك، بل كان يستأجر منادياً يجوب شوارع المدينة وأحيائها ليخبر الناس بأن فلاناً قد استفتي يوم كذا وكذا فأخطأ فيما قاله، ثم يطالب المُستفتي بالعودة إليه ليصحح له الفتوى وما كانوا يجترئون على قول: أحل الله كذا وحرَّم كذا: "وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح أميره بريدة أن ينزل عدوه إذا حاصرهم على حكم الله، وقال: (فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك). فتأمل كيف فرق بين حكم الله وحكم الأمير المجتهد، ونهى أن يسمي حكم المجتهدين حكم الله. ومن هذا لما كتب الكاتب بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حكماً حكم به فقال: هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر، فقال: لا تقل هكذا، ولكن قال: هذا ما رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب"[6] .
إن سلف أهل السنة والجماعة قد حكموا على سلف هؤلاء الغلاة بالابتداع والتنطع في الدين... هذا وإني لو اكتفيت فيما أكتبه عن حزب الغلاة بهذه الفقرة [أعني عدم صلاحيتهم للافتاء وإصدار الأحكام الشرعية]، لكان ذلك كافياً في بيان انحرافهم، وكشف بطلان أقوالهم وفتاويهم، ولكني سأوضح في فقرات أخر مزيداً من خطورة بدعة القوم من أجل أن تكتمل الصورة أمام القارىء، وأكون بذلك قد دحضت أهم الشبهات التي يكثرون من إثارتها.

إباحة دماء المخالفين

من معجزات النبوة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه عن ظهور فرقة غالية من المسلمين، وبيّن لهم صفات المنتمين إلى هذه الفرقة، وما هو الواجب اتخاذه نحوهم عند ظهورهم، وبعد حوالي ثلاثة عقود من

---

[6] - أعلام الموقعين: 1/39.

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، شهد المسلمون ظهور هذه الفرقة بالكيفية التي وصفها النبي صلى الله عليه وسلم:
كان زيد بن وهب الجهني في الجيش الذين كانوا مع الذين ساروا إلى الخوارج، فقال علي: يا أيها الناس إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:
"سيخرج قوم في آخر الزمان حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يقرؤون القرآن، لايجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما ليقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة"[1].
وفي حديث آخر، قال صلى الله عليه وسلم عن هذه الفرقة: "... يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد"[2] .
ومن معاني ومدلولات هذين الحديثين ما يلي:
1 - حدثاء الأسنان: أي شباب لم يكبروا حتى يعرفوا الحق[3] .
2 - سفهاء الأحلام: الأحلام: العقول، والسفه: الخفة في العقل والجهل.
3 - يكثرون من تلاوة القرآن، ويستدلون بآياته في كل قول يقولونه، كما يستدلون بالأحاديث النبوية، ويدّعون أنهم وحدهم حملة المنهج الحق، ويكفرون ويفسقون كبار الأئمة من علماء الأمة، ولا يسلم منهم حتى الصحابة والتابعون .
4 - يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان، كذلك كانوا، أما خلفهم من غلاة عصرنا، فيقتلون أهل الإسلام وأهل الأوثان، وربما شغلوا أتباعهم بقتال أهل الإسلام، ومهادنة أهل الأوثان.
5 - "فأينما لقيتموهم فاقتلوهم"، الخطاب هنا لولي الأمر وقادة الجيوش وقد يجد المسلمون أنفسهم في موقف حرج لا يدرون ماذا يفعلون، فخروجاً من الحيرة والخلاف جاء النص بقتالهم، ومثل هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد".

---

[1] - أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود.
[2] - جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم.
[3] - جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير، الجزري: 10/82.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الفرق الثاني في الخوارج وأهل البدع: أنهم يكفرون بالذنب والسيئات، ويترتب على تكفيرهم بالذنوب استحلال دماء المسلمين وأموالهم، وأن دار الإسلام دار كفر ودارهم هي دار الإيمان، وكذلك يقول جمهور الرافضة، وجمهور المعتزلة والجهمية، وطائفة من غلاة المنتسبة إلى أهل الحديث والفقه ومتكلميهم"[4] .
"وقال أبو قلابة: ما ابتدع رجل بدعة إلا استحل السيف. وقال السختياني: إن الخوارج اختلفوا في الاسم، واجتمعوا على السيف"[5] .
تعالوا نسقط هذه الأوصاف على الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر، وهي فرقة من فرق حزب الغلاة:
1 - أصبحت الطرقات العامة غير آمنة بسبب الحواجز التي يقيمونها فجأة ومن غير سابق إنذار، ثم يدققون في هويات الركاب، فهذا يقتلونه لأنه من العسكريين،[6] وذاك يقتلونه لأنه من الشباب الذين لم ينصاعوا لأوامر كانت قد أصدرتها قيادة هذا الحزب، وربما لم يسمع الضحايا بها، أو ربما ظنوا أن ما يشاع عن هذه الجماعة غير صحيح، وهذا من قبيل حسن ظن المسلم بأخيه المسلم. وأخبرني من يعيش في ظل هذه المحنة أنهم إذا لم يجدوا من يستحق القتل[7] : تقدموا من الركاب مرة ثانية، وقالوا لهم: أليس بينكم من نتقرب إلى الله بقتله.
2 - يفجّرون قنابلهم في الأسواق التي يزدحم بها الناس بحجة قتل دورية من دوريات رجال الأمن، ولا يبالون بالضحايا من الأطفال والنساء والشيوخ لأنهم سيحشرون على نياتهم [هكذا أفتى قادة الحزب، وهكذا فهموا بعض فتاوى العلماء السابقين].
3 - لم يسلم الدعاة ولا الجماعات من جرائمهم، وإليكم ما كنت قد قلته قبل حوالي عام كامل: "لقد قتلوا أحد المسؤولين في جماعة إسلامية تخالفهم وتنقد أعمالهم، والقتيل رحمه الله من الذين يشهد الناس لهم

---

[4] - الفتاوى، ابن تيمية: 19/73.
[5] - الدارمي، باب اتباع السنة: 1/44 - 46.
[6] - يكاد لا يخلو بيت في الجزائر وغيرها من عسكري، وبينهم رجال صالحون لا علاقة لهم بأفكار وتصورات قادة الجيش وقادة قوات الأمن، كما أن بينهم من يعمل كجندي سيق إلى الجيش مرغماً، ونظام التجنيد الإجباري معروف في بلادنا.
[7] - كان ذلك في البداية، وبعد إصدار عدد من الفتاوى الكثيرة، لم يعد عند القوم من لا يستحق القتل.

بالخير والاستقامة، وقتلوا أيضاً مسؤولين في وزارة الشؤون الدينية، مع أنهم ليسوا من الذين يملكون حق إصدار القرارات في هذه الوزارة، كما قتلوا عدداً من أعضاء الجبهة الإسلامية للإنقاذ"[8] .

كانت جرائمهم في أوساط الدعاة قليلة وتحتاج إلى تثبت، وكنا نتهم نظام "الجنرالات" عندما يبلغنا نبأ مقتل داعية، لأننا لم نعهد مثل هذا الاستهتار بدماء المؤمنين من قبل،[9] غير أن بيانات الغلاة كانت تضعنا أمام الحقيقة المرة، وكأن الذين يصدرون هذه البيانات حريصين على تبرئة الطغاة مما ينسب إليهم... وهكذا فقد توالت بيانات الغلاة التي تؤكد ولوغهم في دماء الدعاة.

4 - أصدرت الجماعة المسلحة بياناً بإهدار دم قيادة الإنقاذ في الخارج، وبدأوا تنفيذ مضمون هذا البيان بقتل عبد القادر صحراوي في فرنسا [وهو عضو في قيادة الخارج].

5 - أصدروا البيان رقم (40) تحت عنوان: (بيان في قتال جيش الإنقاذ)، وكان مما جاء فيه: "ولقد عزمت الجماعة الإسلامية المسلحة على أن تقاتل هذه الطائفة الضالة المضلة، وتعتقد أنه من جنس الجهاد في سبيل الله ونصرة دينه وتطهير منهاجه لأن هؤلاء قد اجتمع فيهم أمران: الدعوة إلى البدع في الدين، وتفريق جماعة المسلمين".

وجاء في البيان أيضاً: "فإن جيش الإنقاذ طائفة مبتدعة بدعة كفرية باتخاذهم الديمقراطية والانتخابات الشركية وسيلة لهم يدعون إليها".

قلت: ما أسموه بدعة كفرية ليس جديداً على جبهة الإنقاذ، فمنذ تأسيسها تحدثت عن المغالبة عن طريق الانتخابات النيابية، وكذلك فإن لقاءات قادة الإنقاذ مع المسؤولين الجزائريين وزعماء الأحزاب لم تبدأ في روما، فلماذا سكت الغلاة طوال هذه المدة، ثم جاءت هذه الفتوى التي تقطر إجراماً في: 13 شعبان 1416 هـ؟!، وهل هناك جهات اخترقت هذه الجماعة ودفعتها إلى هذا المنزلق الخطير [وهذا ما يؤكده كثير من المهتمين بالمسألة الجزائرية]:

---

[8] - قلت ذلك في محاضرة عنوانها (الإرهاب داخل الصف الإسلامي)، ونشرت هذه المحاضرة في مجلة السنة، العدد الصادر في ربيع الثاني 1416 هـ.

[9] - أعني: لم نعهد مثل هذا الاستهتار في العصر الحاضر وفي بلد عربي.

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

لقد كان البيان رقم (40) منعطفاً مأساوياً في الساحة الجزائرية، وأصبحت مواقع الجيش الإسلامي للإنقاذ هدفاً لخناجر الغلاة، الذين كانوا لا يدخرون وسعاً في قتل كل من يستطيعون الوصول إليه من أعضاء هذه الجماعة.

6 - قاد أمير حزب الغلاة الجزائري [زيتوني]، انقلاباً دموياً داخل حزبه، انتهى في إبعاد خصومه [الجماعة الإسلامية - الجزأرة] عن جميع مراكز القيادة بعد أن أوقع فيهم مذبحة يعجز خيال الأديب العبقري عن وصف بشاعتها، وانحطاط أخلاق الذين نفذّوها، ولا أظن أن مفردات الكلمات العربية سوف تسعفه ليختار منها اللفظ الذي يليق بهؤلاء القتلة الذين لم يعرف العطف سبيلاً إلى قلوبهم.

قال مصدر مسؤول في هذا الحزب في صدد تبريره لعدم نشر هذا الخبر في وقته: "إن أمراء المناطق وعرفاء السرايا لم يكونوا على علم بذلك، وهذا يدخل في باب التورية واستخدام المعاريض التي يجوز للأمير استعمالها سياسة، وقد أتت ثمارها... وهذه الطريقة لمعالجة الأمر كانت راجعة للظروف التي كانوا يعيشونها".

وأنكر هذا المصدر المسؤول "الادعاء الذي يردده المرجفون [أي قتل 46 من أفراد تنظيم جماعة السعيد نياماً]، وأضاف قائلاً: إن هذا من الكذب المحض، ولو فعلنا ذلك لقلناه، وأننا لا نقوم بعمل حتى نعرضه على الكتاب والسنة، ولا نقول إلا ما يرضي المولى عز وجل".

أرأيتم استهتار الغلاة ووقاحتهم؟!.

إن قتل هؤلاء الدعاة عمل يتقربون به إلى الله، فكل فعل من أفعالهم يعرضونه على الكتاب والسنة، ولا شيء عندهم من غير دليل شرعي، ولكي يتصور قارىء هذه الأسطر هول هذه المجزرة لابد وأن يعلم أنهم يقتلون خصومهم ذبحاً بالسكين رغم توفر الأسلحة النارية، وأن عدد هذه الوجبة وحدها ست وأربعون، ونحن نصدقهم في قولهم: إنهم لم يكونوا نياماً، وكيف ينام من يحاكمه مثل هذا الأمير وأعوانه... سبحان الذي

خلق البشر، وأودع في بعضهم قلوباً أقسى من الحجارة.
إنني طالما تصورت هؤلاء الضحايا وهم مكتوفي الأيدي، وكل يرى كيف يذبح إخوانه، وكل يبصر الدماء وهي تتدفق من أجساد هؤلاء الدعاة، وكل ينتظر حتى يصل السفاح إلى عنقه.
لا أدري ماذا يفعل هؤلاء الغلاة بالمسلمين لو حكموا الجزائر، وكم مصنعاً عملاقاً سيفتحون لصناعة السكاكين والخناجر والسيوف... ومن ذا الذي سوف يسلم منهم؟!.
7 - في بيانهم الذي أسموه: (الصواعق الحارقة في بيان حكم الجزأرة المارقة) الصادر في: 15/8/1416 هـ اعترفوا أن الدكتور عبد الوهاب لعمارة تبرأ من جماعته السابقة [الجماعة الإسلامية - الجزأرة]، وقدم لهم أهم ما زعموه أدلة قد اعتمدوا عليها في الأخاديد التي حفروها لقيادة هذه الجماعة، واعترفوا أيضاً بصحة توبته... رغم ذلك كله فقد ذبحوه!!.
[ولا تنسوا أن الدليل الشرعي دائماً معهم، وعملهم كله صحيح، ولا مجال فيه لأي اجتهاد مخالف]... لكنهم من شدة ورعهم (!!) يعتذرون لأنهم اضطروا خلال التحقيق معه إلى تصويره في شريط "فيديو"، والتصوير حرام، وإليكم ما قالوه بالحرف الواحد:
"... ولقد سجلنا معه شريطاً سمعياً وبصرياً، وإننا نعتقد حرمة التصوير بكل أنواعه، وعدم جواز استعماله للأدلة الصحيحة المستفيضة في ذلك منها قوله صلى الله عليه وسلم: [إن الذين يصنعون هذه الصور يأتون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ما خلقتم] متفق عليه عن عبد الله بن عمر، ولقد بيّنا في الشريط الأسباب التي اضطرتنا إلى ذلك، نسأل الله عز وجل أن يتوب علينا ويتجاوز عنا إن أخطأنا في اجتهادنا، إنه هو الغفور الرحيم".
قلت: قتل التائب الذي يترحمون عليه، ويعتبرونه من إخوانهم غير خاضع للاجتهاد، لأنه لا اجتهاد مع النص، أما التصوير فهو المشكلة الكبيرة التي تستحق التوبة والاستغفار إن كانوا قد أخطأوا في اجتهادهم... وهذا الذي فعله الخوارج من قبل:
قال ابن كثير: "إن الخوارج قد عاثوا في الأرض فساداً، وسفكوا الدماء وقطعوا السبل واستحلوا المحارم،

وكان من جملة من قتلوه عبد الله بن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أسروه وامرأته معه وهي حامل فقالوا: من أنت؟! قال: أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنكم قد روعتموني، فقالوا: لا بأس عليك، حدثنا ما سمعت من أبيك، فقال: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي) فاقتادوه بيده، فبينما هو يسير معهم إذ لقي بعضهم خنزيراً لبعض أهل الذمة، فضربه بعضهم فشق جلده، فقال له آخر: لم فعلت هذا وهو لذمي؟! فذهب إلى ذلك الذمي فاستحله وأرضاه، وبينما هو معهم إذ سقطت تمرة من نخلة فأخذها أحدهم فألقاها في فمه، فقال له آخر: بغير إذن ولا ثمن؟! فألقاها ذاك من فمه، ومع هذا قدموا عبد الله بن خباب وذبحوه، وجاؤوا إلى امرأته، فقالت: إني امرأة حبلى، ألا تتقون الله، فذبحوها وبقروا بطنها عن ولدها"[1].

إنهم خوارج هذا العصر، وإن تدثروا بدثار السلفية، فالعبرة بالأفعال، وليست بالأسماء.

8 - استمعت إلى محاكمة الدكتور عبد الوهاب لعمارة رحمه الله من خلال مشاهدتي لشريط الفيديو - السمعي والبصري - الذي أشاروا إليه آنفاً، وأول ما لفت نظري أنني رأيت رجلاً تبدو على محياه علامات الصلاح والتقوى - ولا أزكي على الله أحداً -، وكان يتوخى الدقة في كل كلمة يقولها.

الثاني: هذه فيما أظن المرة الأولى التي تحاكم جماعة إسلامية غير ممكنة داعية من الدعاة، ثم تقوم بتوزيع شريط المحاكمة على نطاق واسع غير مبالية بما سيقال عنهم وعن الإسلاميين بشكل عام.

الثالث: كان المتهم يقول ما تريده هذه الجماعة، ومن المفترض أنه قد سبق إعداد هذا الشريط محاولات كثيرة رافقها التعذيب بنوعيه الجسدي والنفسي، وهذا غير مستغرب لأن المتهم كان منهكاً مذعوراً خائفاً، ومن جهة أخرى فإن الذين يقتلون بالسكين لا يتورعون عن التعذيب.

---

[1] البداية والنهاية، لابن كثير: 7/288، وتاريخ الطبري، لابن جرير الطبري: 5/82.

الرابع: لم يظهر القاضي العتيد في الشريط، وكان يسأل ويعلق من خلف الستار، وإذا كان ذلك بسبب الصورة فلا أقل من أن يذكر اسمه.
الخامس: لم أجد فيما قاله الأخ رحمه الله ما يدعو إلى ضربه باليد أو بالعصا فضلاً عن قتله بالسكين.
السادس: طوال فترة مشاهدتي للشريط كنت وبقية الإخوة الذين رأوا وسمعوا هذا المشهد المحزن نتساءل: في أي مكان من جسده غرزوا سكاكينهم وأسكتوا هذا الصوت الخير؟!.
وماذا كان يضيرهم وهم الذين شهدوا له بالصدق لو أبقوه سجيناً أو كلفوه بمعالجة مرضاهم؟! الويل لهم من مشهد يوم عظيم!!.
قال صلى الله عليه وسلم: "لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم"[2] .
وعن ابن عمر قال: صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر فنادى بصوت رفيع قال: "يا معشر من أسلم بلسانه، ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله".
قال ونظر ابن عمر يوماً إلى البيت أو إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك"[3] .

---

[2] - أخرجه النسائي والترمذي، وقال الترمذي: وقد روي موقوفاً عليه، وهو أصح، وهو حديث حسن، جامع الأصول: 10/208.
[3] - صحيح الترمذي: 2/200 ، الحديث رقم: 2118.

نحو كيان جديد (الحلقة 27)
الحوار بين أهل السنة
السلفية بين الولاة والغلاة
حزب الغلاة

محمد سرور بن نايف زين العابدين

نصيحتي للجماعة الإسلامية[1]

لا تُذكرُ النهضة الإسلامية الحديثة في الجزائر إلا ويُذكر معها اسم الشيخ محمد سعيد رحمه الله، لأنه كان أحد مؤسسيها: في عهد الاستقلال، وفي أجواء سياسية خانقة تنكر فيها العسكريون لعقيدة أمتهم، وفرضوا المبادئ الاشتراكية العلمانية على شعب الجزائر الذي قاوم الاستعمار الفرنسي دفاعاً عن هويته الإسلامية، وما كان يدور بخلد أبنائه المجاهدين بأنهم سوف يستبدلون مبادئ العلمانية والاشتراكية بالمبادئ الفرنسية.
في هذه الظروف العصيبة التي كان العمل الإسلامي فيها غرماً وليس غنماً، نهض الشيخ محمد سعيد عندما كان طالباً في جامعة الجزائر بواجب الدعوة إلى الله، ثم استقل مع مجموعة من إخوانه في جماعة أسموها "الجماعة الإسلامية"، تميزت عن غيرها بتأثرها بأفكار مالك بن نبي رحمه الله، واهتمامها بالتراث الجزائري، ورفضها الانضمام إلى جماعات إسلامية خارج الجزائر.
عارضت الجماعة الإسلامية فكرة قيام حزب إسلامي، وقد عبَّر الشيخ محمد سعيد عن هذه المعارضة في كلمته التي ألقاها في الاجتماع الحاشد الذي عقد في مسجد السنة في باب الواد، فقوبلت معارضته باستنكار وسخط أنصار مشروع الجبهة الإسلامية للإنقاذ، ورد عليه بعضهم رداً شديداً أدى إلى شيءٍ من توتر الأجواء في هذا الاجتماع الكبير.
حصلت جبهة الإنقاذ على ترخيص من الدولة بسرعة لم تكن متوقعة، ولم تعبأ باعتراضات المخالفين لها ونقدهم إياها، وقدمت نفسها كبديل إسلامي لحالة

---

[1] - حرصت على ذكر الاسم الذي اختارته الجماعة لنفسها، وتجنبت تعريفهم باسم "الجزأرة"، وهو الاسم الذي أطلقه غيرهم عليهم.

التشرذم في الصف الإسلامي، فاستبشر الناس بها خيراً، وانضم إليها جمهور المستقلين من الدعاة ومن الذين كانوا يعملون في جماعات إسلامية لكنهم سئموا من التنافس المذموم بين هذه الجماعات، وخلال فترة زمنية قصيرة بلغ عدد أعضاء جبهة الإنقاذ مئات الألوف وهذا بحد ذاته مشكلة.
سارت الأمور بخلاف ما كانت تراه وتتوقعه الجماعات الإسلامية، فجبهة الإنقاذ أصبحت حديث الناس داخل الجزائر وخارجها، وفوزها في الانتخابات الولائية والبلدية مهد الطريق أمامها للفوز بالانتخابات التشريعية العامة "البرلمان"، ثم لتولي الحكم، وأصبح الناس متفقين على أن الجزائر قد تخلت عن الحكم العسكري الاستبدادي وارتضت الديمقراطية الغربية نظاماً، ولهذا فقد حصلت جماعتان إسلاميتان على ترخيص بتأسيس حزبين: الجماعة الأولى سمته النهضة، والثانية سمته حركة المجتمع الإسلامي (حماس).
أما الجماعة الإسلامية، فقد غيّرت موقفها من جبهة الإنقاذ، وحل الود محل التنافر والاختلاف، وقبيل اعتقال الشيخين: مدني وبلحاج، بمدة قصيرة أعلن السعيد ومجموعة من إخوانه انضمامهم إلى جبهة الإنقاذ، وهذا الانضمام يعني حلّ جماعتهم السابقة، لأن قادة الإنقاذ لا يسمحون لمن ينضم إليهم بالعمل في جماعة أخرى. ومن جهة ثالثة فإنه لم يصرح أحد من أعضاء هذه الجماعة باستمرار التنظيم السابق.
كثير من الجزائريين شككوا بسلامة مقاصد الجماعة الإسلامية، وكان مما قالوه: لقد دأبت هذه الجماعة على محاولات التسلل إلى الأنشطة العامة من أجل احتوائها وامتلاك ناصية قرارها، وكانوا بالأمس سبباً مهماً من أسباب فشل مشروع رابطة الدعوة الإسلامية لأن الجماعات الأخرى كانت تعرف قدرتهم الفائقة على استغلال الشيخ أحمد سحنون رئيس هذه الرابطة، وانتهوا إلى القول: إن انضمامهم إلى جبهة الإنقاذ ليس نابعاً من قناعة بخطها، وإنما يهدفون من وراء ذلك إلى الهيمنة عليها والوصول إلى قيادتها، وسيبقى تنظيمهم الخاص قائماً وإن تظاهروا بغير ذلك... وكان هناك رأي آخر فيه كثير من حسن الظن، بالجماعة الإسلامية وقرارها المتخذ.

مرت الأحداث بسرعة مثيرة بعد اعتقال الشيخين: مدني وبلحاج، وإخوانهما من قادة الإنقاذ: فلقد برز اسم السعيد كناطق رسمي باسم جبهة الإنقاذ، ونجح عدد غير قليل من أعضاء الجماعة الإسلامية في الانتخابات التشريعية العامة، وما كانوا لينجحوا لولا انضمامهم للإنقاذ، ثم تولت "خلية الأزمة" قيادة الأنقاذ، وبعد قتل وتشريد بعض أعضاء هذه الخلية أصبح محمد سعيد وإخوانه من أعضاء الجماعة الإسلامية هم قادة الإنقاذ، وكان معهم عبد الرزاق رجام رحمه الله، ولم تكن أفكاره متعارضة مع أفكارهم، ولذلك كان من السهل احتواؤه.

بدأ أهل الإنقاذ يشعرون بهيمنة الجماعة الإسلامية على قرارهم، ومن الأمثلة على ذلك أنه يتعذر على غير إخوان السعيد الاتصال بخلية الأزمة، وهؤلاء ينقلون لبقية الكوادر المسؤولة قرارات الخلية، فإذا قال قائل: ما تقولونه مخالف لما نعرفه عن قيادة الجبهة ومواقفها، أو إذا قال آخر: لقد سئل الشيخان عن المسألة الفلانية، فكان جوابهما يناقض ما نسمعه منكم: كان جوابهم في الحالين: خلية الأزمة هي المرجع الوحيد لجبهة الإنقاذ، والشيخان في السجن، وليس من حقهما إصدار قرارات.

ومن جهة أخرى فإن بعض المسؤولين في الإنقاذ، بدأوا يشعرون أن هؤلاء الذين يشاركونهم المسؤولية من إخوان السعيد يقومون بدور مزدوج، فهم يحاولون استمالة بعض أعضاء الإنقاذ لتبقى الأصوات المعارضة لهم قليلة ومكبوتة، ومن جهة أخرى فهناك قيادة أخرى للجماعة الإسلامية تضم الذين في الإنقاذ منهم والذين لم ينضموا للإنقاذ ابتداء. وعن هذه القيادة تصدر جميع القرارات، وهي التي تتصل بخلية الأزمة كما قلت آنفاً، مع كل هذه الاعتبارات فإن بعض أهل الإنقاذ بالغوا في حسن الظن، وكانوا يقللون من شأن هذه المخاوف، ويخشون من تفجير خلاف داخل الجبهة.

ثم جاءت مفاجأة المفاجآت، عندما أعلن السعيد وإخوانه أعضاء خلية الأزمة انضمام الجبهة الإسلامية للإنقاذ إلى الجماعة الإسلامية المسلحة، واعتبار كل من الشيخين: مدني وبلحاج عضوين في مجلس شورى الجماعة المسلحة!!.

كيف حدث هذا؟!، كنت أظن للوهلة الأولى أن السعيد وقع في أسرهم فأجبروه على إصدار هذا القرار، لكن شريط الكاسيت الذي وزعته الجماعة المسلحة لم يدع مجالاً لمثل هذه الظنون، فقد بدا السعيد فيه - من خلال كلمته - متفائلاً ومتحمساً لهذا القرار. ومن ثم فإن إخوانه في الخارج أخذوا يشككون بمواقف المعارضين لأن ظروف الجزائر تتطلب اتخاذ هذه الخطوة، وأهل الجزائر أدرى بشعابها!!.

هذا القرار الذي اتخذته خلية الأزمة لم يترك مجالاً لأحد داخل الإنقاذ لتبرير موقف السعيد وإخوانه لاعتبارات كثيرة:

منها: أن الإسلاميين في الجزائر يعلمون استحالة التقاء أفكار جماعة السعيد مع أفكار الجماعة الإسلامية المسلحة.

ومنها: أن خلية الأزمة كما يدل عليها اسمها ليس من حقها اتخاذ مثل هذا القرار.

ومنها: أنه لم يستشر الشيخان في هذه المسألة، ونُقل عنهما - فيما بعد - استنكارهما لما أحدثته خلية الأزمة.

كنت في مجلس يضم عدداً من المتعاطفين مع جبهة الإنقاذ عندما بلغني هذا النبأ، وكان مما قلته للحضور: ستسمعون غداً نبأ مقتل السعيد - والله أعلم - كما سمعتم اليوم هذا النبأ، وعندما أذيع خبر مقتل الرجل رحمه الله ذكرني الإخوة بما كنت قد قلته لهم، وكنت قد نسيته، ولم أكن مجازفاً فيما توقعته فالجماعة المسلحة تعرف حقيقة هذه الجماعة التي انضمت إليها، وستكون حذرة غاية الحذر في التعامل معها، ولن تسمح بتكرار ما فعلوه مع جبهة الإنقاذ، وسوف تتعامل معهم بلغة الحديد والنار لأنها لا تفهم غير هذه اللغة، وهكذا فقد يجني على المرء اجتهاده.

وأخيراً وصلت خناجر وسكاكين المجرمين المحترفين إلى رقاب الشيخ محمد سعيد ومجموعة من كبار إخوانه الذين منحوهم حق التحدث باسم الجماعات الإسلامية الموحدة، وسكتوا خلال الفترة التي أمضوها معهم عن المجازر المنكرة التي ارتكبوها بحق الدعاة وغيرهم، كما سكتوا عن فتاويهم الشاذة.

رحم الله الشيخ محمد سعيد وإخوانه، فلقد كانت خسارة الجزائر بقتلهم كبيرة، وما من منصف يتجاهل دورهم

الدعوي في المساجد والنوادي العامة والخاصة، ولا يستفيد من قتلهم إلا أعداء الإسلام ومع ذلك كله فقد كنت أنتظر أن يعيد إخوان السعيد بعد هذه المصيبة النظر بأساليبهم الملتوية، ويعترفون بعقم سياسة التسلل إلى الهيئات والجماعات الإسلامية بقصد احتوائها، ولكنهم من المؤسف هربوا إلى الإمام (كما يقول السياسيون)، وكتب بعضهم يقول: إن المشكلة كلها في قيادة زيتوني، وليست في الجماعة المسلحة، وإذا تغيرت هذه القيادة فسوف تستقيم أمور الجماعة.
يا قوم: إن المشكلة في القيادة والقاعدة والمنهج، والإدارة، وهاهو زيتوني قد رحل فهل تغيرت الجماعة؟!.
إن الأخبار المتواترة تشير إلى أن الجرائم قد تزايدت كماً وكيفاً، ولعل خليفته أراد أن يترحم الناس على زيتوني مذكراً الناس بما يروي عن الحجاج وابنه من بعده.
إن المعلومات المتوفرة لدي تمكنني من قول الآتي:
هناك فئة كبيرة من الجماعة الإسلامية كانت قد انضمت إلى جبهة الإنقاذ، وأصبحت تتحدث باسمها عن اختيار الشعب، وعن وثيقة روما، ونشط هؤلاء في إقامة اتصالات مع الهيئات والمؤسسات الغربية الرسمية منها وغير الرسمية.
وقسم من الفئة السابقة اتخذت ما سمي بقرار الوحدة مع الجماعة المسلحة، وراحت تهاجم الديمقراطية والانتخابات البرلمانية، وادعت أنها كانت مخطئة في مسيرتها السابقة مع الإنقاذ، وعندما ارتكبت الجماعة المسلحة المجزرة المعروفة أصدر إخوان السعيد بيانات يتحدثون فيها باسم مجموعات مسلحة أخرى تندد بالجماعة المسلحة كما تندد بجيش الإنقاذ وتدعو إلى بديل جديد!!.
هناك فئة من الجماعة الإسلامية لها علاقات ود وتعاون مع الرافضة الإيرانيين والعرب، وليس لهم مثل هذه العلاقات أو أقل منها مع الدعاة والجماعات السلفية.
وهناك أفراد من الجماعة الإسلامية يقدمون أنفسهم للعلماء والدعاة في الجزيرة العربية على أنهم ممثلو الاتجاه السلفي في جبهة الإنقاذ الجزائرية.

وجدير بالذكر أن هذه الفئات كلها تعمل في إطار الجماعة الإسلامية، وتتلقى أوامرها من قيادة واحدة، وقد تقوم الفئة الواحدة بعدة أدوار.
إنني أنصح هؤلاء الإخوة بالاستفادة من أخطائهم، وتقويم تجاربهم، واحترام عقول غيرهم، والوضوح والصراحة والصدق في تعاملهم مع الدعاة والجماعات، والحذر كل الحذر من الكيد والمراوغة، فللناس عقول، وعندهم ذكاء.

موقف حزب الغلاة من العلماء والدعاة والجماعات

لن يعرف القراء موقف حزب الغلاة من العلماء والدعاة والجماعات إلا إذا عرضنا نماذج من أقوالهم فيهم، وقبل عرض هذه النماذج لا بد لي من الاعتذار لأنني مضطر للاستدلال بمقاطع مليئة بالفحش والسفاهة.
<u>أولاً - موقفهم من العلماء</u>: قالوا عن الأزهر، وهو أكبر مؤسسة في العالم الإسلامي لتخريج العلماء والدعاة: "أما الضربة الأخطر من ذلك فهي قانون تطوير الأزهر، وهو القانون رقم 103 لسنة 1966 الذي دمرَّ الأزهر حتى أصبحنا لا نرى من الأزهر إلا هذه الوجوه القبيحة أمثال النمر والشعراوي والغزالي وجاد الحق وغيرهم من الأجيال الحديثة من دكاترة الأزهر المتفرنجين أمثال الأحمدي أبو النور ومن على شاكلته. وقانون تطوير الأزهر المشؤوم سلب أوقاف الأزهر، وهي مورده المالي، وبالتالي سلبه كل استقلاليته حتى نص القانون في مادته الثانية على أن الأزهر هيئة تابعة لرئاسة الجمهورية"[1].
وقالوا عن شيخ الأزهر السابق جاد الحق علي جاد الحق رحمه الله: "وأما الدجال الأكبر شيخ الجامع الأزهر جاد الحق فقد نال منصبه هذا مكافأة له على فتواه بإهدار دم الإخوة المجاهدين الذين نفذوا حكم الله في أنور السادات، فتم ترقية جاد الحق من منصب المفتي إلى منصب وزير الأوقاف إلى منصب شيخ الأزهر. كل هذا خلال الأشهر الثلاثة الأولى من عام 1982، وقد قال القاضي المجرم سمير فاضل إنه اعتمد في قراره بإعدام هؤلاء الإخوة على ما قاله المفتي جاد الحق في

---

[1] - النشرة رقم 4 من سلسلة نشرات جماعة الجهاد في مصر.

حقهم (انظر جريدة الأخبار 25/3/1982)، فلا ينبغي للمجاهدين أن ينسوا ثأرهم من هؤلاء الزنادقة الذين يستحلون دماء المجاهدين"[2] .
وعن الشيخ محمد الغزالي رحمه الله قالوا: "أما محمد الغزالي وما أدراك ما الغزالي؟ فحدث ولا حرج بدأ الغزالي حياته شاباً ثائراً انتهى به الحال كما ترون حذاءً في أقدام الطغاة يلبسونه اليوم في الجزائر وغداً في مصر يتوصلون به إلى مآربهم. وفي كل أحواله لم يفارقه بطر الحق وغمط الناس وهما علامتا الكبر"[3] .
وقالوا عنه في موضع آخر: "والغزالي أيها الإخوة ينكر معلوماً من الدين بالضرورة وهو جهاد الطلب، ومنكر مثل هذا حكمه معلوم لأهل الإيمان"[4] .
وقالوا عن الشيخ يوسف القرضاوي: "أما يوسف القرضاوي الذي كان يدس أفكاره باستحياء في كتبه مثل حتمية الحل الإسلامي والصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف يحاول أن يهاجم الشباب المسلم المجاهد وينشر روح الاستخذاء والتخاذل على تستر إلى أن دعا داعي الحكومة وصرخ صارخها أن أغيثونا وضغط عليهم زكي بدر ضغطة فلم يملك إلا طاعة الأمر"[5] .
ويبدو أن مرور الوقت عليهم يزيدهم حدة وتشنجاً، فبعد مرور حوالي عقد من الزمن قال قائلهم في وصف الشيخ يوسف القرضاوي: "هذا الكذاب المأفون، فقيه الحركة الإسلامية الأم، شيخ السوء، صاحب العمامة والقفطان أعني الدكتور الأزهري يوسف القرضاوي أما آن للناس أن يعرفوا حقيقته ويكشفوا باطله. هذا شيخ يحتاج إلى مجلدات لكشف خبث طويته، وسوء عقله وعلمه، وهو ممن يستحق أن يعرض بتفصيل ليعلم الناس مقدار شره في إسباغ الشرعية على الباطل والشر"[6] ، ومما أخذه هذا الكاتب على الشيخ القرضاوي تزلفه لأولياء أموره (كما ادعى)، ومن الأمثلة

---

[2] - سلسلة نشرات جماعة الجهاد في مصر.
[3] - المصدر السابق.
[4] - المصدر السابق.
[5] - المصدر السابق.
[6] - ورد في نشرة الأنصار التي كانت تصدر في لندن.
ومما يقتضي التنويه أن جماعة الجهاد في مصر غير الجماعة الإسلامية في البلد نفسه، فالجماعة الإسلامية ليس فيها مثل هذا الغلو، وقد قرأت لبعض العاملين فيها ردوداً طيبة على تنطعات الغلاة في عدد من الأمور: منها: قتل النساء، والذرية، ومنها: السرقة التي سموها غنيمة، ومنها: موقفهم من الجماعات الإسلامية.

على ذلك موقفه من زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلي لقطر.
ومثل هذه الاتهامات والشتائم التي تصل حد الرمي بالزندقة والتكفير يرمون بها جميع العلماء لأنهم علماء للسلاطين، وينسحب هذا المصطلح على جميع من يتولى أعمالاً في وزارات الأوقاف والدعوة والشؤون الإسلامية ابتداء بالمفتي وانتهاء بأئمة المساجد وخطبائها، ومن الأمثلة على ذلك أن بعضهم يكفر الشيخ عبد العزيز بن باز مفتي الجزيرة العربية، وبعضهم الآخر يقول: لا أكفره تورعاً، ولكن هذا البعض يرميه بكل ماهو أقل من الكفر.
ومشكلتهم مع هؤلاء العلماء أن الناس يستفتونهم، ويحضرون خطبهم ودروسهم، وعندما تعرض عليهم أقوال وفتاوى حزب الغلاة يدحضونها، ويبينون بطلانها، والناس يستمعون إليهم، وخاصة لأهل الصلاح والورع منهم، ولذلك فإن الغلاة يخوضون في أعراضهم، وينهشون لحومهم، ويحصون أخطاءهم، ويصبح التشنيع عليهم مادة يجترونها في نواديهم ونشراتهم.
قلة من العلماء لا يحبونهم، ولكنهم لا يستطيعون التشهير بهم لأنهم ليسوا من علماء السلطة، وعلى نقيض ذلك فالسلطات تخشاهم وتضطهدهم وتنكل بهم، وإنهم لو تعرضوا لهم بسوء فلسوف ينفض عنهم كثير من أنصارهم الذين يقدرون هؤلاء العلماء ويقرأون ويسمعون كل ما يصدر عنهم من كتابات وأشرطة، لهذه الأسباب فإن قادة حزب الغلاة يستخدمون التقية نحو هؤلاء العلماء، وقد يوهمون أتباعهم بأنهم وهم كيان واحد، ثم ينتظرون الوقت المناسب للانقاض عليهم ونهش أعراضهم، ولابد لهم من التدرج في ذلك.
ثانياً - موقفهم من جماعة الإخوان المسلمين: اتهموا مؤسس هذه الجماعة الشيخ حسن البنا رحمه الله بالتلاعب في دين الله، انظر إلى قولهم:
"ومن العبر البليغة أن حسن البنا كان قد عقد المؤتمر الرابع لجماعته من أجل مبايعة هذا الملك الكافر الذي يحكم بغير ما أنزل الله، وسيَّر البنا عشرين ألفاً من أتباعه في ميدان رمسيس إلى ميدان عابدين يهتفون بحياة هذا الملك، فكان جزاء البنا أن سلط الله عليه هذا

الملك فقتله، وهذا جزاء كل من يتلاعب بدين الله، ومن أعان ظالماً سلطه الله عليه"[1] .
ونقلوا عن محمد حامد أبو النصر رحمه الله المرشد الرابع لجماعة الإخوان المسلمين: أنه لا يرى مانعاً من وجود حزب شيوعي أو علماني في ظل الحكم الإسلامي لأن هذا ما تقضي به الديمقراطية، ثم قالوا في الرد عليه:
"إن هذا الكلام في شق ودين الإسلام في شق آخر، لأنه إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة ألا وهو وجوب إقامة حد الردة على الشيوعي، والعلماني، فكيف يسمح لهم الإسلام بحزب لنشر الإلحاد في دار الإسلام، إن كلامه هذا هو محض العلمانية، فلينتبه لهذا الشباب المخدوع بالإخوان"[2] ، وبمثل هذه الاتهامات التي تبلغ حد التكفير المخرج من الملة، اتهموا المرشدين الثاني والثالث رحمهما الله، ثم قالوا متوجهين بخطابهم إلى عامة الإخوان المسلمين:
"من كان منكم جاهلاً أو ملبساً عليه، فقد جاءه الحق في هذه النشرة وغيرها من نشراتنا، وظهر له ضلال قادة الإخوان: {ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً} [الأحزاب: 36]، وقد قامت الحجة عليه بهذا، ولا عذر له بعد اليوم في عدم مفارقة أهل الزيغ والضلال، والقيام بما أوجبه الله تعالى من جهاد الحكام الطواغيت المرتدين"[3] .
وفي موضع آخر قالوا معلقين على مفاوضات مزعومة جرت بين الحكومة المصرية والإخوان:
"وترتب على المفاوضات أن تحول الإخوان إلى عملاء للحكومة الكافرة يسبغون الشرعية على حكمها وديمقراطيتها، وينكرون على من ينادي بجهادهم، وتحول الإخوان إلى طابور خامس يمزق جسد الحركة الإسلامية بمصر، ويصيب الحركة بالتخدير والشلل"[4] .
أما محرر الأنصار فله أسلوب مميز في الحديث عن المخالفين، فهو هنا يذكر اسماً من أسماء الإخوان المسلمين المشهورة، ثم يقول معرفاً به:

---

[1] - جماعة الجهاد المصرية: النشرات: 7 ، 5، 4.
[2] - المصدر السابق.
[3] - المصدر السابق.
[4] - المصدر السابق.

"إخواني كذاب أشر، وهو أجهل من أن يعامل معاملة العقلاء الباحثين، فليس في كتبه ومقالاته سوى صف الحروف بغباء لا يلحقه فيه أحد، وهو معلوم لدى القاصي والداني أنه من الإخوان المسلمين، بل هو إخواني محترق".
ويضيف قائلاً : "وأنا أقول هذا الكلام وأنا أحس بواجب القول والتحذير، إذ أن تحذير المسلمين من قطاع الطرق واللصوص أمر واجب، ومن لم يفهمه فليرجع إلى كتب السلف الصالح وعباراتهم في تقييم الرجال، ولذلك لا يأتيني نصف عاقل ليقول: أهذا هو البحث العلمي؟ أو : أهكذا تعالج الأفكار، فالجواب: البحث العلمي ومعالجة الأفكار يكون لمن ملك شيئاً من العلم، أو لمن عنده شيء من الفكر، وأما أمثال هذا الرقيع..."
ثم مضى يذكر ألفاظاً ومصطلحات في شتم هذا الداعية وغيره تجعلنا نترحم على أسلوب جماعة الجهاد المصرية. ثم جاء بعد ذلك من هو أشد وأطغى[5] .

<u>ثالثاً - موقفهم من الجماعات الأخرى</u>: هاجمت جماعة الجهاد المصرية الإخوان المسلمين، ثم انتقلت إلى الحديث عن جماعة مصرية سلفية، فقالت:
"... نجد طائفة أخرى لم تقع فيما وقعت فيه الطائفة الأولى، فعصمها الله تعالى من موالاة الطواغيت وتأييدهم، وهذا أمر طيب"، ولكن هل سلمت هذه الطائفة من ألسنة القوم ومن سهامهم رغم إشارتهم لهم بأن الله عصمهم من موالاة الطواغيت وتأييدهم!!، لا، لم يسلموا، ولن يسلموا، وهاهو الكاتب النحرير يتحدث بلسان جماعته قائلاً:
"... ولكنهم في نفس الوقت قعدوا عن جهاد هؤلاء الطواغيت، وتذرعوا بذرائع واهية لا تدخل الأذن فضلاً عن العقل، وقد تذرعوا بالعلم والتربية وتركوا الأصل الذي إن ضاع ضاع كل شيء، ألا وهو الجهاد، لأن الطواغيت لو استمروا فلن يكون هناك علم ولن يكون هناك تربية، اللهم إلا ثقافتهم وتربيتهم الجاهلية، والتي

---

[5] - مثل الزيتوني والزوابري.

تجد لها بدلاً من البوق ألفاً في الإذاعة المسموعة والمرئية والجرائد بأنواعها المختلفة"[6] .
سبحان الله!! إن هذه الطائفة التي تعرضت لنقد جماعة الجهاد المصرية سلفيةٌ، وليست متهمة عندهم بالانتماء إلى حزب الولاة - وذلك ثابت بشهادتهم لهم -، ويبدو أنهم كانوا أمام ضغط جماعة الجهاد عليهم مضطرين إلى بيان موقفهم من مسألة قتال الحكام في مصر، ولهذا الموقف أسباب وجيهة، أما كان بوسع جماعة الجهاد - وهي التي ترفع الراية السلفية - البحث عن إمكانية التعاون في المجالين: العلمي والتربوي وغير ذلك من الأمور التي هي موضع اتفاق بين الجماعتين، ثم تؤجل المسائل المختلف عليها إلى مرحلة أخرى؟!، وبدلاً من ذلك، يشتد الكاتب عليهم، فيتهمهم بالمراوغة واللف والدوران، ثم يضيف قائلاً:
"أما إذا قلتم إن الجهاد ليس واجباً في هذا الوقت لأي ظرف من الظروف، قلنا: الله أكبر، أبت العوراء إلا أن تظهر، فقد بانت حقيقتكم وظهر أمركم"[7] .
وبعد أن ظهرت العوراء فإنه لا مجال للالتقاء ولا للحوار أو التفاهم، وهذا هو موقفهم من مختلف الجماعات الإسلامية الأخرى.
<u>رابعاً - موقف بعضهم من بعض:</u>
يعتقد الغلاة أن قتال الحكام فرض عين، قال صاحب العمدة:
"وجهاد هؤلاء الحكام المرتدين وأعوانهم فرض عين على كل مسلم من غير ذوي الأعذار الشرعية"[8] .
ثم يخطو مؤلف الكتاب خطوة أخرى فيقرر بأن اشتغال الجماعات بغير الجهاد خيانة:
"كما أننا نرى أن شغل المسلمين بأي أمر سوى الجهاد في سبيل الله، في هذا الزمان - كما تفعله كثير من الجماعات الإسلامية، هو خيانة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وخيانة لهذا الدين وتضييع له"[9] .
وإذا كان اشتغال الدعاة والجماعات بغير الجهاد خيانة، فهل يسلم هؤلاء الدعاة وهذه الجماعات من شرورهم

---

[6] - رسالة القتال في مصر، ومسألة التميز بين المسلمين والكافرين، من رسائل حركة الجهاد الإسلامي بمصر، إعداد أبي إسحاق.
[7] - المصدر السابق.
[8] - كتاب العمدة في إعداد العدة للجهاد في سبيل الله، لمؤلفه: عبد القادر بن عبد العزيز.
[9] - المصدر السابق.

إذا كانوا من العاملين في ميادين الجهاد وحدها؟!. حتى هؤلاء الذين يقولون بقولهم لا يسلمون، يقول صاحب العمدة:
"والجماعات التي لا تشتغل بالجهاد[1] لا بأس بتعددها إلا إذا أضرت ببعضها البعض، أما الجماعات التي تشتغل بالجهاد فيحرم تعددها، لأن الجهاد لا يقوم إلا بالشوكة والقوة، والتعدد يذهب بالشوكة"[2] . وبعد ذكره للأدلة التي لا تجيز التعدد، يرى وجوب انضمام الجماعة الجديدة إلى الجماعة القديمة إذا كانت مجاهدة وعلى المنهج الحق، "ولا يدخل في هذا الجماعات المتلاعبة بشرع الله"[3] .
وهكذا فإن مؤلف كتاب العمدة يضع مجموعة من الأمور التي يسميها حقائق، وكل حقيقة لا بد وأن تتصل بالتي تليها:
الحقيقة الأولى: قتال الحكام اليوم فرض عين على كل مسلم من غير ذوي الأعذار الشرعية.
الحقيقة الثانية: الاشتغال بغير الجهاد خيانة، وأول ما تعنيه هذه الحقيقة إسقاط الشرعية عن العلماء والدعاة والجماعات لأنهم يشتغلون بغير الجهاد حسب تفسير القوم، وتعني أيضاً تعطيل مرافق الحياة من زراعة وصناعة وتجارة وغير ذلك.
الحقيقة الثالثة: لا يجوز تعدد جماعات الجهاد، ولكنه لم يضع حلاً شافياً لهذه المشكلة، فهو من جهة يقول بوجوب الانضمام لأول جماعة، ومن جهة أخرى يشترط أن تكون الجماعة القديمة على المنهج الحق، وهذا الشرط سيكون تكأة لأية جماعة في عدم انضمامها للجماعة الأولى، ثم يصبح فهم المنهج الحق وتفسيره مادة لخلافات شائكة لا تحسم إلا بالسلاح.
هذه الحقائق التي قررها صاحب العمدة كانت الأرضية التي بنت عليها الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر غلوها - سواء علم بذلك المؤلف أم لم يعلم - ، فقد بدأت جرائمها بقتل الدعاة الذين لا يرون رأيهم في قتال النظام، ثم تطور موقفهم فأصدروا البيان رقم [40] والذي أسموه: "بيان في قتال جيش الإنقاذ"، لأنه

---

[1] - إذا كان اشتغال بعض الجماعات بغير الجهاد خيانة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وخيانة للدين وتضييع له كما قرر قبل قليل، فكيف يقرر هنا جواز تعدد هذه الجماعات؟!.
[2] - كتاب: العمدة في إعداد العدة للجهاد في سبيل الله، لمؤلفه: عبد القادر بن عبد العزيز.
[3] - المصدر السابق.

لا يجوز تعدد جماعات الجهاد، وبعد صدور هذا البيان أصبحت معسكرات جيش الإنقاذ هدفاً لهجماتهم التي تسفر عن فظائع لا حصر لها، وكان الإخوة في الإنقاذ حائرين لا يدرون ماذا يفعلون، لأنهم لم يصعدوا الجبال من أجل قتال أمثال هؤلاء، وبعد قتال جيش الإنقاذ جاء دور الذين يقاتلون في صفوفهم كالشيخ محمد سعيد وعشرات من إخوانه، ثم توالى القتل والذبح، فلم يعد أحد من الجزائريين آمناً، وبين حين وآخر كانوا يصدرون البيانات التي يؤكدون فيها أنهم الجماعة ذات الشوكة التي لا يجوز الخروج عليها.
وهذا الذي شهدته الساحة الجزائرية كان تطبيقاً عملياً لقواعد قعّدها شيوخهم خارج حدود الجزائر، وهو قابل للتصدير إلى بلدان أخرى، ولو كان لهؤلاء وجود مسلح في فلسطين المحتلة لرفضوا الانضمام لمنظمة حماس الفلسطينية، ولن يقبلوا بعد ذلك التعاون والتنسيق معها، لأنهم سيرفعون شعار فساد المنهج، وقس ذلك على غير حماس من المنظمات الجهادية في أي بلد من بلدان العالم الإسلامي .

نحو كيان جديد (الحلقة 28)
الحوار بين أهل السنة
السلفية بين الولاة والغلاة
حزب الغلاة

محمد سرور بن نايف زين العابدين

مناقشة أقوالهم

1 - لا ننكر أن بعض ما استدلوا به صحيح، لكن هذا البعض رغم قلته وضعوه في غير إطاره الصحيح وندلل على ذلك بالمثالين الآتيين:
المثال الأول: نوافقهم على أن قانون تطوير الأزهر رقم [103 الصادر عام 1961] من أخطر الضربات التي وجهت إلى الأزهر، ولكن علماء الأزهر - وبشكل خاص الذين ذكروا أسماءهم: كالنمر، والشعراوي، والغزالي، وجاد الحق - لا علاقة لهم بإصدار هذا القانون، ولم يستشاروا فيه، بل إن وزير الأوقاف حينذاك الشيخ أحمد حسن الباقوري يقول في مذكراته: إنه سمع خبر إلغاء المحاكم الشرعية من إذاعة القاهرة بينما كان يقوم

بزيارة رسمية للأردن، ومن جهة أخرى، فإن فساد القانون لا يعني فساد علماء الأزهر، ولا يجوز إطلاق القول في ذلك.
المثال الثاني: صحيح قولهم: إن جاد الحق عندما كان مفتياً لمصر، كانت له مواقف سيئة، ومن أبرزها ظلمه الشنيع للإخوة الذين قتلوا السادات رحمهم الله، ولكن مواقفه في سني عمره الأخيرة عندما كان شيخاً للأزهر لابأس بها، ومن هذ المواقف: مسألة الربا، واعتراضاته المتكررة كشيخ للأزهر على بعض مواقف العلمانيين الذين يدعمهم النظام، وهذه الاعتراضات تحولت إلى مشكلة بينه وبين المفتي السابق سيد طنطاوي الذين كان ينفذ كل ما تطلبه منه السلطة، فلعل الله يغفر لجاد الحق بما ختم به حياته أخطاءه السابقة.
2 - هل من الأدب الإسلامي مخاطبة العلماء والدعاة بالعبارات والألفاظ التالية؟!:
"الدجال الأكبر (لشيخ الأزهر السابق)، الغزالي حذاء في أقدام الطغاة، وهو أيضاً ينكر معلوماً من الدين بالضرورة،... يذكرون شيخاً ثم يقولون في نعته: كذاب مأفون، وعن حسن البنا: يتلاعب في دين الله، وعن آخرين: قطاع طرق ولصوص.. خبثاء الطوية (ومن يعلم ذلك؟)... إخواني كذاب أشر... رقيع... ضال... مضل... كافر... مرتد... ومالم نذكره كثير وشديد القبح".
ليس هذا من أدب الإسلام، ولا هو من أخلاق المجاهدين، يقول تعالى: {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد} [الفجر: 16]، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس المؤمن بالطعان، ولا باللعان، ولا الفاحش ولا البذيء"[1] . ويقول أيضاً: "لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة"[2] .
3 - قالوا عن الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: "وفي كل أحواله لم يفارقه بطر الحق، وغمط الناس، وهما علامتا الكبر"، وهذا الاتهام لغيرهم [بغض النظر عن مدى صحته] يعني استنكارهم واستقباحهم لبطر الحق، وغمط الناس، فهل هم التزموا بالعدل والإنصاف في أقوالهم وأفعالهم؟!.

---

[1] - رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.
[2] - رواه مسلم.

- عندما تحدثوا عن حسن البنا رحمه الله لم يذكروا من سيرته إلا دعوته إلى مبايعة فاروق عند بداية توليه الحكم، واعتراضه على قتل الخازندار، وانسحابه من انتخابات عام 1943 م بعد مساومة مع رئيس الوزراء مصطفى النحاس، لقد ذكروا هذه الأحداث بعد فصلها عن عصر البنا، وكأنها تحدث في عصرنا، ومن ثم فقد جاء ذكرها بالكيفية التي يريدون وكأنهم مسؤولون عن إحصاء أخطاء الناس، وهذا هو بطر الحق وغمط الناس، ولو أنصفوا وعدلوا لبينوا دور البنا رحمه الله في الدعوة إلى الله، وعظيم أثر دعوته في مصر وعموم بلدان العالم الإسلامي.
ولو أنصفوا (وهم الذين يرفعون راية الجهاد) لقالوا الكثير عن إشراف البنا على إعداد قوات مقاتلة، قاتلت المستعمر الإنكليزي في مصر، كما جاهدت وأبلت بلاءً حسناً في حرب فلسطين عام 1948 م، فحتى جهاد البنا لا يذكرونه من شدة ظلمهم له.
- ومن بطر الحق وغمط الناس هجومهم المقذع على الشيخ يوسف القرضاوي في مسألة قال الحق فيها. سئل الشيخ عن شرعية الصلح مع إسرائيل، فأفتى بتحريمه لأنه استسلام لمخططات اليهود، وليس صلحاً، وهاجم في خطبة الجمعة سياسة إسرائيل العدوانية، بينما كان رئيس الوزراء الإسرائيلي في زيارة رسمية لدولة قطر، فهل يلام الشيخ على موقفه هذا؟!.
لو كان في القوم علماء منصفون لقلنا لهم: إننا نطالبكم بنقد القرضاوي في أمور لا يجوز السكوت عنها: مثل كثير من فتاويه في كتابه "الحلال والحرام"، وفتواه بإباحة أحزاب علمانية في نظام إسلامي، وتحمسه للحوار مع النصارى والقوميين العلمانيين وغير ذلك من الآراء والفتاوى الشاذة للشيخ، ولكن أن يشنع عليه في موقف قد أنصف فيه فهذا هو الظلم.
- ومن بطر الحق وغمط الناس أن يختزلوا سيرة الشيخ محمد الغزالي رحمه الله ومقارعته لأعداء الإسلام، فلا يرونه أكثر من حذاء في أقدام الطغاة!! إنه الهوى، ولولا الهوى الذي أصمهم وأعمى أبصارهم لما تجاهلوا شهادة الشيخ الغزالي بالمحكمة في قضية اغتيال الطاغية فرج فودة أحد رموز العلمانيين في مصر.

لقد وقفت السلطة الظالمة ومعها الإعلام والعلمانيون والمخابرات وغير ذلك في جانب، ووقف الإسلاميون في جانب آخر... والجميع ينتظرون ماذا سيقول الشيخ الغزالي في قاعة المحاكمة؟!.
سئل الشيخ في قاعة المحكمة عن حكم من يجاهر برفض تطبيق الشريعة كفراً أو استهزاء، فلم يتردد في الإفتاء بردته وخروجه من الملة، ووجوب إقامة حد الردة عليه، كما أنه لم يتردد في إدانة القانون المدني المصري، وأمام هذا الموقف المؤثر لم يتمالك الشباب المعتقلون [وهم خصوم الشيخ] من الهتاف للغزالي وللأزهر.
كان الشيخ محمد الغزالي وهو يقف هذا الموقف يعلم جيداً أن فودة ناطق غير رسمي باسم الدولة، كما كان يعلم أن أحد مستشاري الرئيس المصري يجلس قرب سريره في المستشفى ويوافي حسني مبارك ساعة بعد ساعة بالوضع الصحي له.
وفضلاً عن هذا وذاك فقد كان الشيخ الغزالي يعلم جيداً أنه سوف يتعرض لهجوم عنيف بعد هذه الشهادة من قبل أجهزة إعلام السلطة، وقد يتعرض للاغتيال، ومع هذه الاعتبارات كلها فقد وقف الموقف الذي يرضي فيه ربه راضياً بما سيترتب عليه من تضحيات، كما وقف من قبل مواقف كثيرة مشابهة لهذا الموقف... فهل من العدل والإنصاف وصف الشيخ بأنه حذاء للنظام؟!.
إنني أعلم أن الشيخ محمد الغزالي وقع في أخطاء كثيرة، وقد أشرت لبعضها في كتابي: "دراسات في السيرة النبوية"، وبعد صدور كتابي هذا وقع في أخطاء أشد، وقد رد عليه بعض طلاب العلم ردوداً منصفة، لكنه لم يكن حذاءً في أقدام أحد، ولم يكن أيضاً شيخاً من شيوخ السلطة، وإنما كان يقول ويكتب ما يؤمن به ويعتقده، صحيحاً كان أو خطأً.
4 - تكرر ما قلناه غير مرة: هؤلاء الدعاة والعلماء الذين يوزع عليهم الغلاة الشتائم والاتهامات هم صفوة الأمة الإسلامية، وقد تعرضوا للسجن والتشريد والحرمان في سبيل الله، ولو كانوا من أهل الشرك والنفاق لتقلدوا أعلى المراتب في حكومات بلدانهم.
هذا وإن فضلهم في ميادين العلم والدعوة والإفتاء لا يمنع من الرد عليهم، وتصويب أخطائهم، ولكن لا يكون

ذلك برميهم بأوصاف تتقزز منها نفوس عباد الله الصالحين.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض؛ بل كل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس كل من يترك بعض كلامه لخطأ أخطأه يُكفَّر، ولا يفسق، بل ولا يأثم؛ فإن الله تعالى قال في دعاء المؤمنين: {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا} وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى قال قد فعلت")[1] .
وقال تعالى: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما توله ونصله جهنم وساءت مصيرا} [النساء: 115].
وقال شارح العقيدة الطحاوية في تعليق له على هذه الآية: "فيجب على كل مسلم بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين، كما نطق به القرآن، خصوصاً الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم، يهتدي بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، إذ كل أمة قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم علماؤها شرارها، إلا المسلمون، فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول من أمته، والمحيون لما مات من سنته، فيهم قام الكتاب، وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وكلهم متفقون اتفاقاً يقيناً على وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم"[2] .
وإذا أسقطنا من حسابنا الدعاة والعلماء والجماعات فمن يبقى؟!، وهل من المعقول أن تكون الدنيا مظلمة إلى هذا الحد؟!، وأن الطائفة المنصورة التي لا يضرها من خالفها أصبحت في هذا العصر قاصرة على مجموعة "الأبوات" المجهولين الذين لا يعرف الناس عددهم، ولا تاريخهم، ولا أسماءهم؟!.
لقد تفننوا في تدريس العامة من أتباعهم مثالب العلماء والدعاة والجماعات لا يستثنون إلا من سار في ركابهم وقال بقولهم، ووصل بهم الحد إلى وضع قواعد في التجريح:

---

[1] - فتاوى ابن تيمية: 35/100.
[2] - شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز الحنفي، الأذرعي، ص: 555، المكتب الإسلامي.

- فهذا برلماني يرى جواز الدخول في البرلمانات.
- وذاك إخواني محترق.
- والثالث: سلفي مزعوم.
- والرابع: شيخ من أهل الفقه ضعيف في فهمه لحال أهل زمانه.
ويصدق الأتباع شيوخهم، فيطلقون ألسنتهم في شتم خيار الأمة، وقد يشدهم حدث من الأحداث التي اعتاد الغلاة على صنعها في هذا البلد أو ذاك فيزداد تعلقهم بقيادتهم الذين وعدوهم بعودة الخلافة الإسلامية على أيديهم خلال وقت قصير جداً وقد لا يزيد في أسوأ الأحوال على سنتين أو ثلاث... ثم يمضي الزمن دون أن تتحقق هذه الوعود بل قد تتكشف مفاجآت تفضح القادة، فيتعرض الأتباع لصدمة عنيفة تفقدهم التوازن وتدفعهم إلى الانحراف وذلك لأنهم كانوا من قبل قد فقدوا الثقة بالعلماء والدعاة والجماعات، وقطعوا جميع الوشائج التي كانت تربطهم بهم، وهاهم يفقدون الثقة بشيوخهم الجدد، وقد شاهدت بنفسي أمثلة على ذلك في القديم والجديد.
5 - هل يهدف دعاة هذا الحزب حقاً إلى إقامة دولة إسلامية؟!، إن الذي يدفعني إلى طرح هذا السؤال ما أراه من تناقض مواقفهم وأعمالهم مع سياسة ونهج الذين أقاموا دولاً، وقادوا حروباً، وحققوا انتصارات، فهؤلاء [أعني الذين أقاموا دولاً] أدركوا منذ بداية سيرهم في هذا الطريق أنه لابد من تحديد الهدف، وحصر دائرة الصراع، وتجنب الاستدراج إلى معارك جانبية تبدد الجهد وتستنزف الطاقات، كما أنه لابد من الحرص على عدم قطع الخيوط مع الأصدقاء الذين يرتبطون بهدف واحد ومصير واحد.
أما هؤلاء فإنهم يحاربون على كافة الجبهات في وقت واحد، ويتفننون في كسب عداوة الناس، ولا يفرقون بين الصديق والعدو، وقد رأينا فيما مضى أن موقفهم من العلماء والدعاة والجماعات مناقض للأدلة الشرعية وقائم على مزيج من الأوهام والأهواء، وكان بوسعهم - لو كان عملهم صحيحاً ومشروعاً - الاستفادة من معظم الهيئات الإسلامية كل في حدود اختصاصه وفيما يقدر عليه، وتحييد الهيئة التي يتعذر الاستفادة منها، وإهمال الرد عليها إن أبت إلا الإساءة والتشنيع.

إن جميع الأمم المحاربة تعمل على حصر دائرة الصراع، وتتجنب تعدد جبهات القتال، فبالنسبة إلى الأمة الإسلامية هناك أدلة كثيرة على ذلك من أحداث السيرة النبوية، وبالنسبة للأمم الكافرة فحتى الزعيم الألماني "آدولف هتلر" - وهو قمة في الحمق والغرور - وجد نفسه مضطراً لإقامة حلف بينه وبين إيطاليا واليابان، وقد خاض مع هاتين الدولتين حرباً ضد الأمريكان والإنجليز والفرنسيين والسوفييت، وهي الحرب الكونية التي سميت بالحرب العالمية الثانية، فهل يكون هتلر أكثر واقعية من هؤلاء الإخوة الذين يحاربون الحكومات الأجنبية، والحكومات المتسلطة في بلدان العالم الإسلامي، كما يحاربون العلماء والدعاة والجماعات والشعوب، وكل هذا يحدث في وقت واحد، وفضلاً عن ذلك كله فهم لا يملكون أرضاً يقفون عليها، ولا مالاً وإعداداً يضمنان لهم استمرارية المعركة.
إن قناعة دعاة حزب الغلو بأن الأهداف الإسلامية لن تتحقق، ولن يكون الدين كله لله إلا إذا انتهى دور جماعات الضرار، ولذلك فهم يحرصون دائماً على إذكاء روح العداوة والبغضاء والكره مع العلماء والدعاة والجماعات... هذه القناعة تذكرني بشعار القوميين العلمانيين العرب الذين رفعوه قبل بضعة عقود، وموجزه أن تحرير فلسطين لن يكون إلا بعد القضاء على الأنظمة الرجعية المتخلفة، وعندما تمكن هؤلاء القوميون من الحكم أهلكوا الحرث والنسل، ثم استسلموا لليهود بشروط مذلة لم تجرؤ الأنظمة الرجعية على الإقدام عليها من قبل، وأقدمت عليها على استحياء بعد أن مهد لهم الرفاق الثوار الطريق، ثم تحالف الرجعيون مع التقدميين وأصبح هدف الجميع الحكم وليس تحرير فلسطين أو الوحدة العربية أو غير ذلك من الشعارات البراقة الجوفاء.
6 - قلت فيما مضى وعند الحديث عن نشأة حزب الولاة: "إن أهم ما يجتمعون عليه ويفاصلون من أجله مسألة الولاء التام والانقياد الكامل لمن يسمونهم [ولاة أمور المسلمين]، وقد يتفقون مع غيرهم في جميع أمور الاعتقاد، ويختلفون معه في هذه المسألة فيخاصمونه من أجلها أشد المخاصمة، ويصبح عندهم مبتدعاً وهجره واجب".

ومن أصول الاعتقاد عند أهل السنة موالاة الله ورسوله والذين آمنوا، وفي المقابل فإن عداوة الذين آمنوا مخالفة خطيرة لهذه الأصول، وقد توعد الله من آذى له ولياً بالحرب، فكيف بمن آذى جميع المسلمين باستثناء قلة قليلة جداً منهم.
وقد وجدت تشابهاً كبيراً بين حزبي الولاة والغلاة في هذه المسألة، إذ أن أهم ما يجتمع عليه الغلاة ويفاصلون من أجله: الخروج على الأنظمة المعاصرة وقتالها قتال ردة، ومن لا يرى رأيهم ولا يقول بقولهم يعادونه أشد العداوة، ولو كان من أعلم وأتقى وأصدق أهل هذا العصر، وهذه هي السلفية عندهم، والاختلاف بين الحزبين في المسألة التي اتخذوها أصلاً، وهذا من صنيع المبتدعين وأهل الأهواء، نسأل الله السلامة.

الخروج على أئمة الجور

تحت ستار سل السيوف في الأمر بالمعروف خرج سفهاء: مصر، والبصرة، والكوفة، على الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه في سنة خمس وثلاثين من الهجرة، ولم يكن الخارجون من أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أن خروجهم يستحيل أن يأتي مصادفة بين أجلاف هذه الأمصار المتباعدة، ولابد أن يكون قد دُبِّر بليل.
حاول عثمان وعلي وطلحة والزبير الوصول إلى حل مع الخارجين، ولكن هذه المحاولات كلها وصلت إلى طريق مسدود أمام إصرارهم على عزل الخليفة، وفرضهم الحصار على منزله، وفي هذا الجو العصيب لزم الصحابة منازلهم، واقتحم المجرمون الأشرار منزل أمير المؤمنين، فقتلوه وهو مكب على كتاب الله يتلوه ويتدبره، ثم نهبوا ما وجدوه في منزله، وفي بيت مال المسلمين، وتمت لهم السيطرة على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن نشروا الرعب والذعر فيها.
هذه السيوف التي سلت باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم تغمد فيما بعد، فلم يلبث معاوية بن أبي سفيان وبنو أمية أن خروجوا على الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين مطالبين بدم عثمان، ثم خرج الحسين على يزيد بن معاوية، وخرج عبد

الله بن الزبير على عبد الملك ابن مروان، وكان من أهم المعارك الدموية التي كان المسلم فيها يقاتل أخاه المسلم: صفين، والجمل، والحرة التي أعقبها استباحة المدينة المنورة، ومن ثم فقد هدم الطاغية الحجاج الكعبة المشرفة التي رماها بالمنجنيق، كما كان من أشهر الصحابة الذين سقطوا في هذه المعارك أو على أيدي الخوارج: علي، وطلحة، والزبير، وعمار، والحسين، وعبد الله بن الزبير، أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى هذه الفتن فقال:

"وكل من خرج على إمام ذي سلطان إلا كان ما تولد على فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير، كالذين خرجوا على يزيد في المدينة، وكابن الأشعث الذي خرج على عبد الملك في العراق، وكابن المهلب الذي خرج على أبيه بخراسان، وكأبي مسلم صاحب الدعوة الذي خرج عليهم بخراسان أيضاً، وكالذين خرجوا على المنصور بالمدينة والبصرة... وغاية هؤلاء إما أن يُغلَبوا وإما أن يَغْلِبوا ثم يزول ملكهم فلا يكون لهم عاقبة. فإن عبد الله بن علي [العباسي] وأبا مسلم قتلا خلقاً كثيراً، وكلاهما قتله أبو جعفر المنصور، وأما أهل الحرة وابن الأشعث وابن المهلب فهزموا وهزم أصحابهم، فلا أقاموا ديناً ولا أبقوا دنيا، والله تعالى لا يأمر بأمر لا يحصل به صلاح الدين وصلاح الدنيا. وإن كان فاعل ذلك من عباد الله المتقين ومن أهل الجنة فليسوا أفضل من علي وطلحة والزبير وعائشة وغيرهم، ومع هذا لم يحمدوا على ما فعلوه من القتال، وهم أعظم قدراً عند الله وأحسن نيةً من غيرهم. وكذلك أهل الحَرَّة كان فيهم من أهل العلم والدين خلق، وكذلك أصحاب ابن الأشعث كان فيهم خلق من أهل العلم والدين والله يغفر لهم كلهم"[1] .

درس علماؤنا في العهود التي تلت عصر الصحابة والتابعين مسألة الخروج على أئمة الجور، وعندما استعرضوا اقتتال الصحابة في صفين والجمل قالوا: كانوا أئمة علماء، اجتهدوا في طلب الحق، فالمصيب منهم مأجور، والمخطئ معذور، وليس لنا اتباع أحد منهم مع اختلافهم إلا إذا تبين لنا وجه الحق من ذلك

---

[1] - المنتقى من منهاج الاعتدال، وهو مختصر منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية، وقد اختصره الذهبي، ص: 285.

بدليل من كتاب أو سنة صحيحة، أما ما اجتمعوا عليه فنتبعه[1] . وكان من نتائج هذه الدراسة ما يلي:
- قال الخلال: "أخبرني محمد بن أبي هارون ومحمد بن جعفر أن أبا الحارث حدثهم قال: سألت أبا عبد الله في أمير كان حدثهم ببغداد، وهمَّ قوم بالخروج معه، فقلت: يا أبا عبد الله ما تقول في الخروج مع هؤلاء القوم؟! فأنكر ذلك عليهم وجعل يقول: سبحان الله، الدماء الدماءَ، لا أرى ذلك ولا أمرته، الصبرُ على ما نحن فيه خير من الفتنة. تسفك فيها الدماء، قلت: والناس اليوم في فتنة يا أبا عبد الله، قال: وإن كان. فإنما هي فتنة خاصة، فإذا وقع السيف عمت الفتنة وانقطعت السبل، الصبر على هذا ويسلم لك دينك خير لك"[2] .
كان الإمام أحمد آخر الأئمة الأربعة وقد رأى وسمع ما حلَّ بسلفه من العلماء، وهو نفسه قد ابتُلي عندما أظهر المأمون فتنة خلق القرآن، فصبر صبراً تكاد لا تحتمله الجبال الشم، واستمرت محنته بعد هلاك المأمون، وانتقال الحكم إلى المعتصم، ثم إلى الواثق من بعده، ومع ذلك كله لم يفكر بالخروج ولا دعا إليه... وكان رحمه الله وهو يفرق بين الفتنة الخاصة والعامة كأنه يتحدث عن واقع عصرنا، ويبدو أن طبيعة الفتن في القديم والحديث متشابهة.
وقال الإمام النووي رحمه الله في شرح حديث عبادة ابن الصامت [إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان]:
"لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم، إلا أن تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم، وقولوا بالحق حيث ما كنتم، وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق، وأما الوجه المذكور في كتب الفقه لبعض أصحابنا أنه ينعزل وحُكي عن المعتزلة أيضاً فغلط من قائله مخالف للإجماع. قال العلماء وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب على

---

[1] - انظر: الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة، لمؤلفه: عبد الله بن عمر الدميجي، ص: 542.
[2] - المسند من مسائل الإمام أحمد [عن كتاب الإمامة العظمى، ص 538]، مصدر سابق.

ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه"[1] .
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد حديث له عن الفتن التي وقعت في الصدر الأول: "ولهذا استقر أمر أهل السنة على ترك القتال في الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم، ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم، وإن كان قد قاتلهم في الفتنة خلق كثير من أهل العلم والدين"[2] .
وترجم الحافظ ابن حجر العسقلاني للحسن بن صالح الفقيه، ثم قال معلقاً على ما نسب إليه من أنه كان يرى السيف: "وهذا مذهب للسلف قديم، لكن استقر الأمر على ترك ذلك لما رأوه قد أفضى إلى ما هو أشد منه"[3] .
أما قول الإمام النووي: "وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق" ففيه نظر، ومن ذلك ما نقله ابن التين عن الداوودي قال: "الذي عليه العلماء في أمير الجور أنه إن قُدِرَ على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب، وإلا فالواجب الصبر، وعن بعضهم: لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداءً، فإن أحدث جوراً بعد أن كان عدلاً فاختلفوا في جواز الخروج عليه، والصحيح المنع إلا أن يكفر فيجب الخروج عليه"[1] ، وللقاضي عياض قول شبيه بهذا القول .

---

[1] - صحيح مسلم بشرح النووي: 12/229.
[2] - منهاج الاعتدال، ص: 287.
[3] - تهذيب التهذيب: 2/288، وقوله: إنه كان يرى السيف: أي كان يرى الخروج على أئمة الجور.
[1] - فتح الباري: 13/114، البابي الحلبي.

نحو كيان جديد (الحلقة 29)
الحوار بين أهل السنة

محمد سرور زين العابدين

السلفية بين الولاة والغلاة

عندما يكون الحكم لغير شريعة الله
(1 - 2)

إذا كان جمهور علماء الأمة قد اتفقوا [كما رأينا فيما مضى] على عدم الخروج على أئمة الجَوْر مع وجوب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر؛ فإن إجماعهم قد انعقد على أنه لا تصح ولاية الكافر على المسلمين، وإذا طرأ عليه كفر أو تغيير للشرع سقطت ولايته، ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه، ومن الأدلة على ذلك:
1 - قوله تعالى : ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا [النساء: 141]، وكلمة "سبيلا" هنا نكرة في سياق النفي تفيد العموم، وأي سبيل أعظم من سبيل الإمامة؟!.
وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً"، وفي رواية مسلم زيادة "إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان"[1] .
- "قوله وأثرة علينا": المراد أن طواعيتهم لمن يتولى عليهم لا يتوقف على إيصالهم حقوقهم بل عليهم الطاعة ولو منعهم حقهم.
- "قوله إلا أن تروا كفراً بواحاً": قال الخطابي: ظاهراً بادياً من قولهم باح بالشيء يبوح به بوحاً وبواحاً إذا أذاعه وأظهره.
- "عندكم من الله فيه برهان": أي نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل،[2] قاله الحافظ ابن حجر.

---

[1] - حديث عبادة بن الصامت متفق عليه.
[2] - أنظر فتح الباري : 16/113 الحلبي، صحيح مسلم بشرح النووي: 12/229.

والمقصود من هذا الحديث أنه يجب الخروج على الحاكم الكافر إذا وقع بالكفر الصريح الواضح كإنكاره معلوماً من الدين بالضرورة، والعلماء الذين فسروا الكفر البواح بالمعاصي كالنووي أرادوا معاصي معينة فيها مخالفة لقواعد الإسلام، أما المعاصي العامة التي ترتبط بشخص الحاكم فقد نقلنا فيما مضى قول النووي بعدم جواز الخروج على الحاكم بسببها بل ادعاؤه الإجماع على ذلك.

2 - وعن عوف بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم، قيل: يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف؟ فقال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يداً من طاعة"[3] .

وإقامة الصلاة بالنسبة إلى الحاكم تعني شهود صلاة الجماعة في المساجد، والدعوة إليها، وإقامة الحدود المتعلقة بها.

3 - وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله"[4] .

وهذا الحديث واضح الدلالة على وجوب السمع والطاعة للحاكم إذا طبق شرع الله على رعيته، وليس مهماً بعد ذلك لون بشرته ولا قلة أو كثرة ماله.

4 - من أقوال العلماء:

- قال القاضي عياض: "أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل... وكذلك لو ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها..." ، وقال أيضاً: "فلو طرأ عليه كفر وتغيير للشرع أو بدعة خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيام بخلع الكافر ولا يجب في المبتدع إلا إذا ظنوا القدرة عليه فإن

---

[3] - مسلم، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم.
[4] - البخاري، الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية.

تحققوا العجز لم يجب القيام وليهاجر المسلم عن أرضه إلى غيرها ويفر بدينه"[5] .
- وقال ابن حجر العسقلاني: "إنه ينعزل بالكفر إجماعاً فيجب على كل مسلم القيام في ذلك، فمن قوي على ذلك فله الثواب، ومن داهن فعليه الإثم، ومن عجز وجبت عليه الهجرة من تلك الأرض" [6] .
- عند الحديث عن الخروج على أئمة الجور ذكرنا نماذج من أقوال جمهور العلماء الذين لا يجيزون الخروج، لكنهم يضيفون قائلين: "إلا أن يكفر فيجب الخروج عليه".
- وقال رشيد رضا: "ومن المسائل المجمع عليها قولاً واعتقاداً: أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإنما الطاعة في المعروف، وأن الخروج على الحاكم المسلم إذا ارتد عن الإسلام واجب، وأن إباحة المجمع على تحريمه: كالزنا والسكر واستباحة إبطال الحدود وشرع ما لم يأذن به الله كفر وردة، وأنه إذا وجد في الدنيا حكومة عادلة تقيم الشرع، وحكومة جائرة تعطله وجب على كل مسلم نصر الأولى ما استطاع. وأنه إذا بغت طائفة من المسلمين على أخرى وجردت عليها السيف وتعذر الصلح بينهما فالواجب على المسلمين قتال الباغية المعتدية حتى تفيء إلى أمر الله. وما ورد في الصبر على أئمة الجور إلا إذا كفروا معارض بنصوص أخرى، والمراد به اتقاء الفتنة وتفريق.الكلمة المجتمعة"[7] .
وإذن: فإن الأدلة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة متواترة على أن ولاية الحاكم تسقط بردته، ويصبح الخروج عليه واجباً إذا كانوا يملكون القدرة على ذلك. تغير الحال بعد هدم الخلافة الإسلامية، فقد والى الطغاة في بلادنا أعداء الله، وعادوا أولياءه، واستبدلوا القوانين الأوربية الجاهلية بأحكام الشريعة الإسلامية[1] مما تتعارض جملة وتفصيلاً مع أحكام ديننا ومع العادات والتقاليد التي اشتهر بها العرب وتميزوا بها عن غيرهم من الأمم والأجناس، وفضلاً عن ذلك فقد كمموا أفواه

---

[5] - صحيح مسلم بشرح النووي: 12/229.
[6] - فتح الباري: 16/241.
[7] - تفسير المنار: 6/367.
[1] - إن جذور الانحراف والفساد بدأت قبل هدم الخلافة، ومن الأدلة على ذلك أن استبدال القوانين الأوربية بأحكام الشريعة الإسلامية بدأت منذ عهد سليمان القانوني.

الرعية، ونشروا الظلم والفساد والانحلال في كل واد، وأصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ظل هذه الأنظمة إرهاباً وتطرفاً وخروجاً على ولاة الأمور.
لم يكن هذا الحال بهذه الصورة الخطيرة معروفاً من قبل في جميع حقب تاريخنا الإسلامي، فقد كان الخارجون على الولاة يسلون سيوفهم طمعاً بالسلطة أو إنكاراً لبدع ومفاسد يرون عدم جواز السكوت عليها، ولو أن حاكماً في العهود الإسلامية الماضية ألغى حكماً واحداً من أحكام الشريعة الإسلامية ووضع بدلاً منه قانوناً جاهلياً مستورداً لما ترددت الأمة بقيادة علمائها في الخروج عليه، ولما وجدنا من يجرؤ على الدفاع عنه ونفي ردته.
كان من بين المرتدين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم صنف امتنعوا عن دفع الزكاة مع إقرارهم بالإسلام، ومع ذلك فقد أجمع الصحابة رضوان الله عليهم بعد أن استبان لهم الدليل على قتالهم، وقال أبو بكر رضي الله عنه قولته الشهيرة: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة.
فكيف بمن عطّل الحدود كلها، وعطّل غيرها، واتخذ من نفسه نداً لله في الحكم والتشريع؟!، بل كيف بمن ادعى بأن العلماء والدعاة ليس من حقهم التدخل في الشؤون السياسية حيث لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة؟!، بل كيف بمن لم يلتزم بهذا القانون الظالم الذي فرضه وأدخل سياسته الغاشمة في الدين أعني لم يترك عباد الله أحراراً في مساجدهم وصلاتهم وصيامهم وزكاتهم وحجهم؟!.
والذي يثير الدهشة أن أثر هذا الزلزال العظيم - هدم الخلافة - أخذ يخف تدريجياً، ولم يجد الطغاة صعوبة بالغة الأهمية في شراء ضمائر بعض العلماء بأبخس الأثمان، ولهذا أصبحنا نسمع من هؤلاء الذين طلبوا رضى السلطان بسخط الله منكرات لا حصر لها، ومن ذلك قولهم: إن التقنين والاحتكام إلى غير شرع الله كفر دون كفر - كما قال ابن عباس -، ومن ذلك رميهم كل من ينكر المنكر بمختلف الاتهامات: كالخروج، والمروق من الدين، وإثارة الفتن، وإثارة الفرقة بين أبناء الأمة... وأمام هذا الإرهاب توارت الفتاوى والكتابات التي تسخط السلاطين، وفي مقدمة هذه

المسائل: شرعية الأنظمة المعاصرة، وكيف نتعامل مع هذه الأنظمة العلمانية التي أصبحت بديلاً لنظام الخلافة.

انتبه الشيخ رشيد رضا رحمه الله إلى أهمية هذه المسألة، فكتب يقول: "... ولم أر قولاً لأحد جمع به بين كل ما ورد من الآيات والأحاديث في هذا الباب، ووضع كلاً منها في الموضع الذي يقتضيه سبب وروده مراعياً اختلاف الحالات في ذلك، مبيناً مفهومات الألفاظ بحسب ما كانت تستعمل به في زمن التنزيل دون ما بعده. مثال هذا لفظ (الجماعة) إنما كان يراد بها جماعة المسلمين التي تقيم أمر الإسلام بإقامة كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ولكن صارت كل دولة أو إمارة من دول المسلمين تحمل كلمة الجماعة على نفسها، وإن هدمت السنة، وأقامت البدعة، وعطلت الحدود، وأباحت الخمور. ومثال اختلاف الأحوال تعدد الدول، فأيها تجب طاعته والوفاء ببيعته؟ وإذا قاتل أحدها الآخر فأيها يعد الباغي الذي يجب على سائر المسلمين قتاله حتى يفيء إلى أمر الله؟ كل قوم يطبقون النصوص على أهوائهم مهما كانت ظاهرة"[2] .

وبعد مضي أكثر من سبعين عاماً على هذه الصيحة التي أعلنها رشيد رضا في تفسيره، لا تزال الحاجة ملحة إلى صدور مثل هذه الدراسات لاسيما بعد جراءة الحكام على إصدار قرارات ما كانوا قادرين على إصدارها في مرحلة الثلاثينيات من هذا القرن لأنهم كانوا يتدرجون في نبذهم للأحكام والآداب الإسلامية مراعاة لمشاعر الأمة وخوفاً من الانفجار، أما اليوم فلم تعد بهم حاجة لهذا التدرج، وما عادت مشاعر الأمة تستحق المراعاة.

ومن جهة أخرى فقد أصدر بعض العلماء في عهد رشيد رضا فتاوى جريئة، ودراسات مفيدة لأنهم ما كانوا يعرفون عبودية هذه الوظائف التي سلبت الذين يقبلون بها [وبشكل أخص الوظائف القيادية الكبيرة] أبسط معاني الحرية، ولأن الحكام في ظل الاستعمار (الأنكلو فرنسي) كانوا يسمحون بقسط من الحرية يتيح لكل عالم أو مفكر التعبير عن رأيه في الخير أو في الشر، وما زلنا كلما كتب أحدنا بحثاً لابد أن يذكر فيه شواهد

---

[2] - تفسير المنار: 6/367، قاله في معرض تفسيره لقول الله تعالى: إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله... الآيتان: 36 و 37 من سورة المائدة.

من أقوال: جمال الدين القاسمي، رشيد رضا، أحمد شاكر، محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وغيرهم من كبار علماء هذه المرحلة.
أما اليوم فلم يعد العلماء والدعاة أحراراً فيما يكتبون ويخطبون ويفتون، ولم يعد مسموحاً بصدور دراسات وفتاوى تمس الطواغيت وشرائعهم، ومن ذا الذي يجهل ما يلقاه الدعاة في أوكار الطغاة من إهانة وتعذيب؟!.. وبعد هذا الظلم الفظيع لا يعطي الطغاة المتهمين فرصة للدفاع عن أنفسهم، ليثبتوا براءتهم مما نسب إليهم أمام محكمة عادلة، وقد أحسن من وصف هذه السجون بقوله: "الداخل إليها مفقود، والخارج منها مولود".
ولكن هذا الإرهاب الشديد المتنوع الوسائل والأساليب لم يمنع الدعاة الذين يبغون الله والدار الآخرة من تقرير الحقيقة التالية:
إن رايات الكفر البواح في عالمنا الإسلامي الكبير ترفرف خفاقة عالية فوق مباني البنوك الربوية التي يكاد لا يخلو منها حيّ أو قرية، وفوق مباني المؤسسات التشريعية والقضائية التي لا يسمح فيها لمن يشاء من القضاة أن يساوي بين شريعة الله والشريعة التي سنّها زعيم الدولة فضلاً عن تفضيله لشريعة الله، وترفرف رايات الكفر البواح أيضاً فوق مباني التلفاز ودور السينما وأوكار الرذيلة، وفوق مصانع ومحلات بيع الخمور، وليست المشكلة هنا فيمن يشرب الخمر أو يرتاد دور السينما ويشاهد مناظر العرايا من النساء والرجال، ولكن المشكلة فيمن سنّ القوانين التي تبيح هذه المنكرات، وأعيد للأذهان قول رشيد رضا وغيره من العلماء الذي استشهدت به قبل قليل وخلاصته:
من المسائل المجمع عليها قولاً واعتقاداً: إن إباحة المجمع على تحريمه: كالزنا، والسكر، واستباحة إبطال الحدود وشرع ما لم يأذن به الله كفر وردة.

موقف العلماء:
لقد كثر النفاق والتزلف للطواغيت في العقود الأربعة الماضية من قبل أناس يتسربلون بسربال العلم والمعرفة، ويتدثرون بدثار التقوى والورع:

- فمنهم من أباح المعاملات الربوية، وحرّم معاملات البنوك الإسلامية.
- ومنهم من زعم أن أحكام الشريعة الإسلامية مطبقة في مصر، لأن القانون المدني مستمد من أحكام الشريعة، وهو أول من يعلم بأنه كذاب.
- ومنهم من زعم أن أهل الجنة يعيشون حالة من الفرح ليس لها مثيل من قبل لأنهم يستعدون لاستقبال أحد أبناء الطغاة الذي أهلكه الله سبحانه وتعالى، والولد سر أبيه.
- ومنهم من سمعته أذناي، كما سمعه مئلي مئات المصلين الذين كانوا يصغون إليه وهو يخطب الجمعة، وينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - في حديث حبكه - قوله:
"... ثم يأتي جمال الدين فينتصر كما انتصر صلاح الدين"
يريد من وراء هذا الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم التزلف إلى نظام جمال عبد الناصر إبان حكمه وطغيانه.
- ومنهم من وضع شروحاً وحواشي لخطبة من خطب ولي أمره مع أن مثل هذه الخطب تعتبر مادة لنوادر وطرائف يتناقلها الناس ويشبعون ضحكاً منها وسخرية بها.
- وأكثر هؤلاء أفتوا بإباحة دماء العلماء والدعاة الذين أقدم الجلادون على سفك دمائهم من غير حق.
وقصارى القول: فإن هؤلاء المحسوبين على زمرة العلماء يؤثرون الدنيا على الآخرة، ويأكلون بألسنتهم، ويأمرون الناس بالمعروف وينسون أنفسهم، ومن كان منهم عالماً فإنه ممن لم ينتفعوا بعلمهم... وهذه الصفات تدفعهم إلى الإفتاء بكل ما يطلبه الظلمة منهم.
هناك صنف آخر من العلماء اشتهروا بين الناس بالعلم والصلاح والورع، وتجنبوا في حياتهم الخاصة والعامة مواطن الشبهات، مثل التسكع على أعتاب السلاطين، وتزيين قبائحهم، والنفاق لهم، وقد أكسبتهم هذه الصفات شعبية واسعة، ومكانة مرموقة داخل بلدانهم وخارجها، ولهذا يتطلع الناس إليهم في الملمات ينتظرون ماذا سيقولون، وإذا حددوا مواقفهم تبعهم في ذلك خلق كثير.

السلطان بخبثه ودهائه، ثم بمكر مخابراته وكبار مستشاريه من شياطين العلمانية، يسعى إلى هؤلاء العلماء، ويطلب منهم بإلحاح قبول الوظائف الدينية الكبيرة، ويعدهم بالتعاون معهم من أجل إجراء إصلاحات واسعة في سائر مرافق الدولة.

وبعد وقوع هؤلاء العلماء في شراكه، يرتب كيفية عملهم، ويضعهم في موضع من يتأثر ولا يؤثر، بحيث لو أرادوا الخروج على قواعد اللعبة المرسومة لهم لما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، لأن الذي اختارهم هو الذي اختار مساعديهم وحتى صغار الموظفين في مكاتبهم، وماذا يفعل المرء إذا أراد أن يسير في اتجاه لا يساعده على السير فيه أقرب الناس إليه؟!.

يؤثِّر مرور الزمن على هؤلاء الشيوخ، ويألفون المنكرات اليومية التي يرونها، والتي كانوا من قبل يقيمون النكير على فاعليها، وتتضاعف عندهم الرغبة في التماس الأعذار، ولو أراد باحث جمع فتاويهم بين القديم والحديث لوجد تناقضات مخجلة: فالمستحيل أصبح ممكناً، والمقطوع بأمره صار يحتمل عدة وجوه، والحكم بغير ما أنزل الله أخرجوه من أقسام التوحيد، ومن خالفهم أضافوا اسمه إلى قوائم الخوارج والمبتدعة والمتطرفين الإرهابيين.

وإن مما لا ينقضي منه العجب أن هؤلاء الشيوخ يعرفون حقيقة ما يجري من انحرافات خطيرة، وأعمال مكفرة لأنهم على صلة قوية بالنظام وبعامة أهل الخير في مختلف مرافق الدولة، وينقلون إليهم الأمور بالوثائق والأرقام، وتمر بهم أحياناً حالات إحباط فيقولون لخاصة جلسائهم كلاماً شبيهاً بالكلام الذي يقوله من يرمونهم بالتطرف والابتداع، غير أن ولاة الأمور يسارعون إلى استرضاء الشيوخ، وامتصاص المشكلة التي أغضبتهم، فيعودون بعد هذا الاسترضاء إلى سيرتهم السابقة في الثناء على ولاة أمورهم، وفي التماس الأعذار لهم، ولما كان أثر هذا الصنف من الشيوخ لا يقارن بأثر الصنف الأول الذين مردوا على النفاق، وبالغوا في تقديس السلاطين والتقيد بتعليماتهم وأوامرهم، لذا فقد رأينا مناقشة أهم الشبهات التي يثيرونها لعل في ذلك خيراً لنا ولهم:

<u>الشبهة الأول - يقولون: نخشى الفتنة:</u> قال تعالى: ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني، ألا في الفتنة سقطوا، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين [التوبة: 50]، وقال تعالى: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله [الأنفال: 39].
يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن الآية الأولى: "وقد ذكر في التفسير أنها نزلت في الجَدِّ بن قيس لما أمره النبي صلى الله عليه وسلم بالتجهز لغزو الروم.. فقال يا رسول الله: إني رجل لا أصبر عن النساء؛ وإني أخاف الفتنة بنساء بني الأصفر فائذن لي ولا تفتني. وهذا الجَدُّ هو الذي تخلف عن بيعة الرضوان تحت الشجرة، واستتر بجمل أحمر؛ وجاء فيه الحديث: [إن كلهم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر] فأنزل الله تعالى فيه: ومنهم من يقول: ائذن لي ولا تفتني! ألا في الفتنة سقطوا. أي: "نفس إعراضه عن الجهاد الواجب ونكوله عنه وضعف إيمانه ومرض قلبه الذي زين له ترك الجهاد: فتنة عظيمة قد سقط فيها، فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابته؟ والله يقول: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. فمن ترك القتال الذي أمر الله به لئلا تكون فتنة: فهو في الفتنة ساقط بما وقع فيه من ريب قلبه ومرض فؤاده، وترك ما أمر الله به من الجهاد"[1] .
- الفتنة إذن: أن يكون الدين - كله أو بعضه - لغير الله تعالى، سواء قلّ هذا البعض أو كثر[2]، ثم يسكت بعض العلماء عن مواجهة هذا الكفر البواح رغبة في مناصب السلطان وأمواله، أو رهبة من بطشه وجبروته وطغيانه.
- والفتنة في تراجع بعض العلماء عن فتاويهم ومواقفهم السابقة، ويوقعون أنفسهم في تناقضات يعرف المبتدئون في طلب العلم خطأها، وذلك كقولهم: لا يجوز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بإذن السلطان، وإذا كان الأمر يتعلق بولي الأمر فلا يصح إلا أن يكون سراً... وقولهم إن "الحاكمية" لا تعد قسماً من

---

[1] - فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 28/166.
[2] - إذا كان معلوماً من الدين بالضرورة.

أقسام التوحيد، ثم يقام النكير على من يخالفهم القول في ذلك.
- والفتنة في مسارعة هذا البعض من العلماء إلى إصدار الفتاوى التي ترضي السلطان، وتهيئ له الفرصة للبطش بالعلماء والدعاة الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، وتمكنه من شق صف العلماء وزعزعة موقفهم أمام عدوهم.
- والفتنة أيضاً في اقتتال المسلمين فيما بينهم، وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة في هذا الشأن منها ما رواه البخاري عن سعيد بن جبير قال: "خرج علينا عبد الله بن عمر فرجونا أن يحدثنا حديثاً حسناً، قال: فبادرنا إليه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن! حدثنا عن القتال في الفتنة والله يقول وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة فقال: هل تدري ما الفتنة ثكلتك أمك؟ وإنما كان محمد صلى الله عليه وسلم يقاتل المشركين، وكان الدخول في دينهم فتنة وليس كقتالكم"[3] .
إن ما يطلبه الناس من العلماء هو بيان حكم الشرع فيمن استبدل شريعة الطاغوت بشريعة الله، وليس المطلوب منهم حمل السلاح أو دعوة الناس إلى ذلك...
ولا يجوز لهم كتمان ما ائتمنهم الله عليه، قال تعالى: وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون [آل عمران: 187].
ولعن الله الذين كفروا من بني إسرائيل لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، قال تعالى: لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون [المائدة: 78 و 79].
وكل من يفعل فعل الذين كفروا من بني إسرائيل يستحق اللعنة، قال تعالى: إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون [البقرة: 159]
وللمفسرين أقوال مهمة في تفسير هذه الآية: قال الطبري:
"وهذه الآية وإن كانت نزلت في خاص من الناس، فإنها معني بها كل كاتم علماً فرض الله تعالى بيانه للناس،

---

[3] - رواه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب الفتن 8/95.

وذلك نظير الخبر الذي روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: [من سئل عن علم يعلمه فكتمه، أُلجِمَ يوم القيامة بلجام من نار]" [4] .
وقال صاحب المنار:
"إن العبرة في الآية هي أن حكمها عام وإن كان سببها خاصاً، فكل من يكتم آيات الله وهدايته عن الناس فهو مستحق لهذه اللعنة. ولما كان هذا الوعيد وأشباهه حجة على الذين لبسوا لباس الدين من المسلمين وانتحلوا الرئاسة لأنفسهم بعلمه، حاولوا التفصي منه، فقال بعضهم: إن الكتمان لا يتحقق إلا إذا سئل العالم عن حكم الله تعالى فكتمه، وأخذوا من هذا التأويل قاعدة هي أن العلماء لا يجب عليهم نشر ما أنزل الله تعالى ودعوة الناس إليه وبيانه لهم، وإنما يجب على العالم أن يجيب إذا سئل عما يعلمه وزاد بعضهم: إذا لم يكن هناك عالم غيره وإلا كان له أن يحيل على غيره.
وهذه القاعدة مسلمة عند أكثر المنتسبين إلى العلم اليوم وقبل اليوم بقرون، وقد ردها أهل العلم الصحيح فقالوا: إن القرآن الكريم لم يكتف بالوعيد على الكتمان، بل أمر ببيان هذا للناس، وبالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأوعد من يترك هذه الفريضة، وذكر لهم العبر فيما حكاه عن الذين قصروا فيها من قبل... وختم كلامه بقوله:
ما ورد عن تدافع علماء السلف في الفتوى فإنما هو في الوقائع العملية الاجتهادية، التي تعرض للناس، لا في الدعوة إلى مقاصد الدين الثابتة بالنصوص وسياجها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[5] .
إن العلماء المعنيين لا يجهلون هذه الأحكام التي عرضناها، ومع ذلك فقد سئلوا وألح عليهم السائلون فكتموا ما أوجب الله عليهم بيانه والصدع به، وسكتوا عن بيان قواعد الدين وإسقاطها على الواقع خوفاً من السلطان، والله جلَّ وعلا أحق بالخوف والخشية من أعتى سلاطين أهل الأرض، وهذه والله هي الفتنة!!.
وإذا كنا نتفق مع المخالفين في الإقتداء بأئمة السلف، فلا بأس من التذكير بشيء من فهمهم للنصوص الآنفة

---

[4] - تفسير الطبري، دار المعارف بمصر: 3/252، وخرج أحمد شاكر الحديث فقال: هذا حديث صحيح رواه أحمد في المسند من حديث أبي هريرة، وخرجناه في شرح المسند، وفي صحيح ابن حبان بتحقيقنا.
[5] - تفسير المنار: 2/51.

الذكر ومن مواقفهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي عدم كتمان العلم:

1 - أبو حنيفة النعمان: رفض الأعطيات التي كان يعرضها عليه أبو جعفر المنصور، وقال لرسول الخليفة: "ما وصلني أمير المؤمنين في ماله بشيء فرددته، ولو وصلني بذلك لقبلته إنما أوصلني أمير المؤمنين من بيت مال المسلمين ولا حق لي في بيت مالهم، إني لست ممن يقاتل من ورائهم، فآخذ ما يأخذه المقاتل، ولست من ولدانهم فآخذ ما يأخذه الولدان، ولست من فقرائهم فآخذ ما يأخذه الفقراء".
ورفض رئاسة القضاء، وعُذب من أجل ذلك، فكان رده على المنصور: "... إن هذا دعاني للقضاء فأعلمته أني لا أصلح، ولا يصلح للقضاء إلا رجل يكون له نفس يحكم بها عليك، وعلى ولدك وقوادك، وليس تلك النفس لي، إنك لتدعوني فما ترجع نفسي حتى أفارقك"[6] .
2 - مالك بن أنس: بدأت محنة الإمام مالك في درس من دروسه التي كان يقررها في المسجد النبوي بالمدينة، وذلك عندما شرح حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس على مستكره طلاق" ووجد المناوئون لحكم أبي جعفر المنصور في هذا الحديث مستنداً قوياً على التحلل من بيعته لأنها جاءت عن طريق الإكراه، إذ قاسوا البيعة على الطلاق، فقالوا: "وليس على مستكره بيعة".
ووجد المنصور وولاته خطراً عليهم في نشر هذا الحديث، فحاولوا منع الإمام مالك من التحدث به، فما استجاب لهم رغم تعرضه للضرب والإهانة وأبى كتم العلم[1] .

3 - سفيان الثوري: عن سفيان الثوري قال: دخلت على أبي جعفر بمنى، فقال لي: ارفع حاجتك. فقلت له: اتق الله! فإنك قد ملأت الأرض جوراً وظلماً، قال: فطأطأ رأسه، ثم رفع وقال: ارفع لنا حاجتك. فقلت: إنما أنزلت هذه المنزلة بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعاً، فاتق الله وأوصل إليهم

---

[6] - انظر تاريخ بغداد: 13/328، والمناقب للمكي: 1/215.
[1] - البداية والنهاية: 10/174 و 10/84، وكتاب الإسلام بين العلماء والحكام للشيخ عبد العزيز البدري، ص: 155.

حقوقهم. قال: فطأطأ رأسه ثم رفع وقال: ارفع إلينا حاجتك. قلت: حج عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال لخازنه: كم أنفقت؟ قال: بضعة عشر درهماً، وأرى هاهنا أموراً لا تطيق الجمال حملها.
وكانت له مواقف قوية مع المهدي الذي عهد إليه بقضاء الكوفة، فأخذ العهد ومزقه بعد أن غادر ديوان الخلافة، وغاب عن أنظار الناس، فطلب في كل بلد، ومات عام 161 هـ مستخفياً بالبصرة.
وعن يحيى بن يمان قال: سمعت سفيان يقول: العالم طبيب الدين، والدرهم داء الدين، فإذا اجتر الطبيب الداء إليه متى يداوي غيره. هذا هو سفيان الثوري الذي قال عنه شعبة: أصحاب المذاهب الثلاثة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه، وقال عنه الإمام أحمد: لا يتقدمه في قلبي أحد. ثم قال: تدري من الإمام؟ الإمام سفيان الثوري[2] .

4 - أحمد بن حنبل: أصدر الخليفة المأمون أمره لواليه على بغداد - إسحاق بن إبراهيم - بضرب عنق كل من يخالف اعتقاده بخلق القرآن الكريم، وأخذ العلماء بالرخص إلا أربعة منهم: أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح وعبيد الله القواريري وسجادة، فأدخلوا السجن مصفدين بالأغلال، وفي اليوم التالي جيء بهم إلى حاكم بغداد لإعادة السؤال عليهم... فأجاب سجادة بما ينجيه ولحق القواريري بصاحبه، فأطلق سراحهما، وبقي ابن حنبل وابن نوح.
أما ابن نوح فمات سجيناً في [عانة] - وهي بلدة عراقية -، وأما الإمام أحمد فنقلوه من سجن لآخر حتى انتهى المطاف به في سجن الياسرية ببغداد، ثم نقلوه إلى حبس العامة في درب الموصلية، وفي هذا السجن طرح ثمانية وعشرين شهراً، وجلد أكثر من ألف سوط، وسالت دماؤه وأشرف على الموت دون أن ينتزع منه الطغاة أي اعتراف ببدعتهم، ومن أقواله المأثورة: "ياعم [عمه إسحاق بن حنبل] إذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهل، متى يتبين الحق؟". ولما دخل عليه يحيى بن معين يعوده في مرضه، لم يرد عليه السلام،

---

[2] - البداية والنهاية: 10/134، وتذكرة الحفاظ: 1/204، وما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين، للسيوطي، دار ابن حزم، ص: 83.

فمازال ابن معين يعتذر بقوله الله تعالى إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان [النحل: 106]، وبحديث عمار، فقلب أحمد وجهه إلى الجانب الآخر، فقال يحيى: لا يقبل عذراً.
فلما خرج يحيى قال أحمد: يحتج بحديث عمار، وحديث عمار: مررت بهم وهم يسبونك فنهيتهم فضربوني، وأنتم قيل لكم: نريد أن نضربكم، فقال يحيى: والله ما رأيت تحت أديم السماء أفقه في دين الله منك.
شهد الإمام أحمد رحمه الله هلاك المأمون ثم المعتصم ثم الواثق الذي خشي من قوة شعبية ابن حنبل فمنعه من التدريس، وفرض عليه الإقامة الجبرية في منزله، ثم جاء المتوكل فأزال الغمة، وفك أسر المسجونين. ونصر الله أهل السنة والجماعة[3] .

5 - الإمام البخاري: طلب خالد بن أحمد الذهلي - أمير خراسان - من الإمام البخاري أن يحضر إليه من بلده بخارى ليسمع أولاده منه [أي ليعلمهم وهذا ما يتمناه ويسعى إليه كثير من العلماء في هذا العصر وغيره]، فأبى أن يذهب، وقال لرسول الأمير: "في بيتي يؤتى العلم"، وكان ذلك سبباً في حقد الأمير عليه، وفي نفيه من بلده بخارى إلى بلدة [خرتنك] على بعد فرسخين من سمرقند. وعندما توفاه الله في هذا المنفى عم بغداد الاستياء، وطالبوا بالثأر للإمام البخاري من أمير خراسان، وكان لهم ما أرادوا فقد انتقم الله من هذا الظالم، ومات في سجن بغداد[4] .

6 - الإمام النووي: يقول علاء الدين بن العطار تلميذ الإمام النووي:
"وكان - النووي - مواجهاً للملوك والجبابرة، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وكان إذا عجز عن المواجهة؛ كتب الرسائل، وتوصل إلى إبلاغها، فمما كتبه وأرسلني في السعي فيه وهو يتضمن العدل في الرعية، وإزالة المكوس عنهم[5] ... فكان جواب السلطان بالإنكار

---

[3] - البداية والنهاية 12/168، وطبقات الشافعية 2/37، وسير أعلام النبلاء 11/177، ومجموعة التوحيد ص: 343، والإسلام بين العلماء والحكام للبدري.
[4] - وفيات الأعيان: 3/329، والبداية والنهاية: 11/24.
[5] - كتب معه في ذلك: شيخ الإسلام عبد الرحمن بن أبي عمر شيخ الحنابلة، والشيخ العلامة عبد السلام بن عمر الزواوي شيخ المالكية، والشيخ المفتي محمد بن عبد الكريم الحرستاني خطيب دمشق وابن خطيبها، وجماعة آخرون.

والتوبيخ والتهديد، فكتب رحمه الله جواباً لذلك الجواب، ومما جاء فيه:
"... وقد أوجب الله إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها، فقال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾، فوجب علينا حينئذ بيانه، وحُرِّم علينا السكوت"[6] .
وقال أيضاً ما موجزه:
"ولا يَحِلُّ أن يُؤْخذ من الرعية شيء ما دام في بيت المال شيء، من نقد، أو متاع، أو أرض، أو ضياع تباع، أو غير ذلك... وهؤلاء علماء المسلمين في بلاد السلطان - أعز الله أنصاره - متفقون على هذا، وبيت المال بحمد الله معمور".
وقال في رده على تهديد السلطان:
"وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا، وتهديد طائفة؛ فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه! وأي حيلة لضعفاء المسلمين المغرقين في أقطار ولاية السلطان في كتاب كتبه بعض المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم، ولا علم لهم به؟ وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه؟!".
"وأما أنا في نفسي؛ فلا يضرُّني التهديد، ولا أكبر منه، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان، فإني أعتقد أن هذا واجب علي وعلى غيري، وما ترتب على الواجب؛ فهو خير وزيادة عند الله تعالى؛ إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار، وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ، وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول بالحق حيث ما كنا، وأن لا نخاف في الله لومة لائم".
ومما كتبه لما احتيط على أملاك دمشق - حرسها الله تعالى - بعد إنكاره مواجهة السلطان الظاهر، وعدم إفادته وقبوله:
"ولقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم أنواع من الضرر، لا يمكن التعبير عنها، وطلب منهم إثباتٌ لا يلزمهم، فهذه الحوطة لا تَحِلُّ عند أحد من علماء

---

[6] يضاف قول النووي هذا إلى الأدلة السابقة التي ذكرناها قبل صفحات قليلة عن وجوب إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها.

المسلمين، بل من في يده شيء فهو ملكه لا يحل الاعتراض عليه، ولا يكلف بإثباته"[7] .
إنه لا شيء كان يمنع الإمام النووي رحمه الله من وقوف هذه المواقف الجريئة، لأنه رفض الألقاب والوظائف، ونأى بنفسه عن مجالس الأمراء والسلاطين، وكان طعامه خشناً، ويكتفي بأكلة واحدة في اليوم، وينام في غرفة بمدرسة الرواحية، ولم يكن له أبناء ولا زوجة، فأي شيء يشده - رحمه الله - إلى مفاتن الدنيا وشهواتها؟!.

7 - العز بن عبد السلام: استعان الملك إسماعيل بن العادل بالصليبيين ضد أخيه نجم الدين سلطان مصر، وأعطاهم مقابل ذلك صيدا [حسب رواية السبكي] وقلعة صفد وغيرها [حسب رواية المقريزي]، ثم سمح للصليبيين بدخول دمشق بقصد شراء السلاح وسائر آلات الحرب.
وقف سلطان العلماء العز بن عبد السلام بوجه هذه الخيانة[1] وأفتى بتحريم بيع السلاح، ثم صعد منبر الجامع الأموي حيث كان خطيبه الرسمي وأعلن فتواه المشهورة بتحريم بيع السلاح للصليبيين ثم قطع من الخطبة الدعاء للسلطان إسماعيل، وهذا يعني نزع البيعة له ثم راح يدعو الدعاء التالي والناس يضجون بالتأمين على دعائه: "اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد يُعزُ فيه أولياءك، وتذل فيه أعداءك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهى فيه عن معصيتك".
كان السلطان الصالح إسماعيل خارج دمشق، وعندما جاءه الخبر أمر بعزل الشيخ ابن عبد السلام من خطبة الجمعة ومن سائر وظائفه، واعتقاله مع صاحبه الشيخ ابن الحاجب المالكي لاشتراكه معه في هذا الإنكار، ثم لما قدم دمشق أمر بالإفراج عنهما، وفرض الإقامة الجبرية على العز بن عبد السلام.
إذا شئنا الحديث عن وظائف العز بن عبد السلام التي عزل عنها بلغة هذا العصر، فهي: وزارة المعارف، ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ووزارة الإعلام،

---

[7] - تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محي الدين، لتلميذه علاء الدين علي بن إبراهيم بن العطار المتوفى عام 724، دار الصميعي، الرياض.
[1] - أكثر من هذا يحدث اليوم في كل بلد إسلامي، ولا نجد عالماً واحداً من كبار علماء السلاطين يقفون الموقف الذي وقفه العز بن عبد السلام فإنا لله وإنا إليه راجعون.

أو معظم أقسام هذه الوزارات، وهذا مما لا يطمع به أي عالم من علماء السلاطين اليوم، ومع ذلك فهو لم يتردد في التخلي عنها إرضاء لله سبحانه وتعالى. يقول تلميذه القرافي أن بعض أرباب الدولة كتب إليه يحضه على الاجتماع بملك وقتهم، والتردد إليه ليكون ذلك مقيماً لجاهه وكابتاً لعدوه، فقال: "قرأت العلم لأكون سفيراً بين الله وبين خلقه وأتردد إلى أبواب هؤلاء؟!".
ولما كان التطبيق العملي يبين معادن الرجال، ويكشف ما تكنه الصدور، فإن رد العز بن السلام على بعض خواص السلطان الذين جاؤه يعرضون عليه الاعتذار مقابل العودة إلى وظائفه المغرية خير دليل على أنه يتبع القول العمل.
قالوا له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير.
قال: والله ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده. يا قوم أنتم في واد وأنا في واد، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به.
قالوا: يا شيخ قد رسم لنا أن توافق على ما يطلب منك، وإلا اعتقلناك.
قال: افعلوا ما بدا لكم، ثم أخذوه معتقلاً في خيمة مجاورة لخيمة السلطان.
وقعت الحرب بين الأخوين، وأسفرت عن انتصار السلطان نجم الدين أيوب على السلطان إسماعيل وحلفائه الصليبيين. ونجا الشيخ ابن عبد السلام من الأسر، ثم دخل مصر معززاً مكرماً، وتولى منصب قاضي القضاة فيها... ولكن: هل أخلد الشيخ إلى الراحة، وشغله منصبه الرفيع عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟، وعنده مسوغات كثيرة لو شاء اتخاذ مثل هذا القرار.
يقول السبكي: لم يثبت عند الشيخ أن أمراء الدولة الأتراك أحرار، ولهذا فإن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، وقال الشيخ بإبلاغهم ذلك.
استشاط نائب السلطنة غضباً، وركب بنفسه في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ، ثم طرق بابه وسيفه مسلول بيده، فخرج ولد الشيخ، وهاله ما رأى، فعاد إلى أبيه وشرح له الحال، فما اكترث الشيخ لذلك ولا تغير، وقال: يا ولدي أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله، ثم

خرج، فسقط السيف من يد نائب السلطنة عندما وقع بصر الشيخ عليه، وأرعدت مفاصله، فبكى النائب، وسأل الشيخ أن يدعو له، ثم قال: يا سيدي خير، أي شي تعمل؟. قال: أنادي عليكم وأبيعكم، قال: ففيمَ تصرف ثمننا؟. قال: في مصالح المسلمين، قال: من يقبضه؟. قال: أنا.

وأخيراً فقد تم للشيخ ما أراد حيث نادى على الأمراء واحداً واحداً، وغالى في ثمنهم، وقبضه وصرفه في وجوه الخير، رحم الله سلطان العلماء، وجزاه عن الإسلام والمسلمين كل خير[2]

[2] - اختصرت الروايات التي تحدثت عن بيع الشيخ لمماليك مصر، والمصادر التي اعتمدت عليها هي: ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين للسيوطي، وطبقات الشافعية للسبكي: 5/84، والسلوك للمقريزي: 1/303، وفوات الوفيات: 1/596، والإسلام بين العلماء والحكام.

نحو كيان جديد (الحلقة 30)
الحوار بين أهل السنة

محمد سرور زين العابدين

السلفية بين الولاة والغلاة

عندما يكون الحكم لغير شريعة الله
(2 - 3)
- شيخ الإسلام ابن تيمية: الاستدلال بمواقف شيخ الإسلام ابن تيمية التي تتعلق بموضوع بحثنا مهم من وجهين:
الوجه الأول: نحن وكثير من المخالفين الذين يتمسكون بالمنهج السلفي متفقون على أنه لم يبرز في القرون التي تلت عصر ابن تيمية إمام مثله، ولم نقرأ لمخالفينا هؤلاء رداً علمياً ينقض هذه المواقف، وكل الذي نعرفه إعجابهم بها وتقديرهم لها، والاستشهاد بها فيما يكتبون ويدرّسون.
الوجه الثاني: هناك تشابه بين عصرنا وعصر شيخ الإسلام، ففي العصرين تعرضت بلدان العالم الإسلامي لهجمات صليبية ووثنية وباطنية، وأسفرت هذه الهجمات عن احتلال بعض بلداننا.
وإذا كان المجال لا يسمح بعرض مواقف شيخ الإسلام بشكل موسع مع التعليق عليها فلا أقل من الحديث عنها مع شيء من الإيجاز:
1 - موقفه من قازان: أسلم قازان، وتسمى محمود، وكان يشهد الجمعة، وأسلم معه خلق كثير من التتار،

وكان في جيشه وعاظ ومصلحون، وكان للصالحين من المسلمين عندهم قدر. قال صاحب خطط الشام: "... قال صاحب التتر: إنه حارب حكام مصر والشام لأنهم خارجون عن طريق الدين غير متمسكين بأحكام الإسلام"... هذا هو قازان[1] الذي أصدر بحقه وحق جيشه فتواه المشهورة، أما عن لقائه مع قازان وماذا قال له؟، يقول الشيخ عمر ابن أبي بكر البالسي وهو أحد أعضاء الوفد:

"قال شيخ الإسلام للترجمان قل لقازان: أنت تزعم أنك مسلم ومعك مؤذنون وقاضي وإمام وشيخ على ما بلغنا فغزوتنا وبلغت بلادنا على ماذا؟ وأبوك وجدك هولاكو كانا كافرين وما غزوا بلاد الإسلام، بل عاهدوا قومنا، وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت.

قال - أي البالسي - : وقرب إلى الجماعة طعاماً فأكلوا منه إلا ابن تيمية، فقيل له: ألا تأكل؟ قال: كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس، قال: ثم إن قازان طلب منه الدعاء، فقال في دعائه: اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا وليكون الدين كله لله فانصره وأيده وملكه البلاد والعباد، وإن كان إنما قام رياءً وسمعة وطلباً للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليذل الإسلام وأهله فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره.

قال البالسي: وقازان يؤمن على دعائه، ويرفع يديه.

قال:

فجعلنا نجمع ثيابنا خوفاً من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله، قال:

فلما خرجنا من عنده قال له قاضي القضاة نجم الدين بن صصري وغيره:

كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، والله لا نصحبك من هنا، فقال:

وأنا والله لا أصحبكم، قال: فانطلقنا عصبة وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه، فتسامعت به الخواقين والأمراء من أصحاب قازان فأتوه يتبركون بدعائه، وهو سائر إلى دمشق، وينظرون إليه، قال:

والله ما وصل دمشق إلا في نحو ثلثمائة فارس في ركابه، وكنت أنا من جملة من كان معه، وأما أولئك الذين

---

[1] - هذه الصفات لا تتوفر في معظم الحكام المعاصرين.

أبوا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتر فشلحوهم عن آخرهم[2] .
- كان رحمه الله عالماً مجاهداً شجاعاً لا يخشى الموت، يقول الإمام محمد ابن عبد الهادي عن قتال الشيخ في معركة "شَقْحب" المشهورة:
"وبقي الشيخ رضي الله عنه هو وأخوه وأصحابه ومن معه من الغزاة قائماً بظهوره وجهاده وَلأُمةِ حربه، يوصي الناس بالثبات ويعدهم بالنصر، ويبشرهم بالغنيمة والفوز بإحدى الحسنيين إلى أن صدق الله وعده، وأعز جنده، وهزم التتار وحده، ونصر المؤمنين... ودخل جيش الإسلام المنصور إلى دمشق المحروسة والشيخ في أصحابه شاكياً في سلاحه، داخلاً معهم، عالية كلمته، قائمة حجته، ظاهرة ولايته، مقبولة شفاعته... وهو مع ذلك يقول للمداحين له: أنا رجل مِلَّة، لا رجل دولة.
"ولقد أخبرني حاجب من الحجاب الشاميين [لا يزال الكلام لابن عبد الهادي]، أمير من أمرائهم، ذو دين متين، وصدق لهجة معروفة في الدولة، قال: قال لي الشيخ يوم اللقاء، ونحن بمرج الصُّفَّر، وقد تراءى الجمعان:
يا فلان، أوقفني موقف الموت.
قال: فسقته إلى مقابلة العدو، وهم منحدرون كالسيل تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم. ثم قلت له: يا سيدي، هذا موقف الموت، وهذا العدو، قد أقبل تحت هذه الغَبَرةِ المنعقدة، فدونك وما تريد.
قال: فرفع طرفه إلى السماء، وأشخص بصره، وحرَّك شفتيه طويلاً، ثم انبعث وأقدم على القتال. وأما أنا فخيل إليَّ أنه دعا عليهم وأن دعاءه استجيب منه في تلك الساعة.
قال: ثم حال القتال بيننا والالتحام، وما عدت رأيته، حتى فتح الله ونصر، وانحاز التتار إلى جبل صغير، عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة وكان آخر النهار.
قال: وإذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوتيهما، تحريضاً على القتال، وتخويفاً للناس من الفرار.

---

[2] - البداية والنهاية: 14/89، كما روى هذا الخبر الشيخ كمال الدين بن المنجا في "الكواكب الدرية"، وكان ممن صحب شيخ الإسلام في لقائه مع قازان. وقال ابن كثير بعد أن ساق رواية البالسي: "وقد سمعت هذه الحكاية من جماعة غيره".

فقلت: يا سيدي، لك البشارة بالنصر. فإنه قد فتح الله ونصر، وهاهم التتار محصورون بهذا السفح. وفي غد إن شاء الله تعالى، يؤخذون عن آخرهم.
قال: فحمد الله تعالى، وأثنى عليه بما هو أهله، ودعا لي في ذلك الموطن دعاء وجدت بركته في ذلك الوقت وبعده.
بعد هذا الانتصار الفاصل كان لابد للمسلمين المجاهدين من تأديب النصارى، والنصيريين، والرافضة، والاسماعيليين الذين غدروا بالمسلمين، وقدّموا جميع أنواع الدعم للغزاة التتار، كما تعاونوا من قبل مع جحافل الغزاة الصليبيين، وسوف تبقى الجبهة الداخلية ضعيفة ومفككة إذا ترك الحبل على غاربه لهؤلاء الخونة العملاء. لا سيما وأن شيخ الإسلام ابن تيمية - وهو الخبير بأساليب الباطنيين - يعلم حق العلم أن الرافضي الخبيث ابن العلقمي - وزير المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين - استغل ثقة الخليفة به، فقام بدور لا مثيل له في تاريخنا الإسلامي: فهو من جهة كان يراسل "هولاكو" الوثني قائد جيش التتار بعد احتلاله لإيران ويحرّضه على احتلال بغداد، ومن جهة أخرى فقد أشار على المستعصم المثول بين يدي هولاكو عندما اقتربت جيوشه من عاصمة الإسلام، ومن جهة ثالثة فقد أقنع القائد التتري بقتل الخليفة، ففعل وقتل معه سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء وسائر أعيان الدولة وأركانها عندما مثلوا بين يديه. ثم دخل طاغية التتار بغداد يتقدمهم الرافضي ابن العلقمي. وزميله الرافضي نصير الدين الطوسي الذي اتخذه هولاكو ليكون في خدمته كالوزير المشي... وفي بغداد قتل التتار كل من قدروا عليه: من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب، فيفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة حتى تجري الميازيب من الدماء بالأزقة[1] .

---

[1] - البداية والنهاية، أحداث سنة 656 هـ: 13/200 مع الاختصار والتصرف اليسير.

وقعت هذه المذبحة عام 656 هـ، ولهذا فقد قدم والد شيخ ا لإسلام إلى دمشق ومعه ولداه عام 667 هـ ... فكيف ينتظر من عالم مثل ابن تيمية أن لا يستفيد من هذا الدرس المرير؟!.
وهاهنا يبرز أمام الباحث الذي يستعرض النصوص التاريخية سؤال يدعو إلى الحيرة والدهشة:
هل شيخ الإسلام ابن تيمية سلطان حاكم في بلاد الشام، أم هو عالم اعتزل الوظائف ولم يتقلد أي منصب طوال سني عمره؟!.
ينقل ابن عبد الهادي عن الأمير الحاجب قوله:
"ثم لم يزل الشيخ بعد ذلك على زيادة في الحال والقال والجاه، والتحقيق في العلم، حتى حرَّك الله عزمات نفوس ولاة الأمر لقتال أهل جبل كسروان. وهم الذين بغوا وخرجوا على الإمام، وأخافوا السُّبلُ وعارضوا المارِّين بهم من الجيش بكل سوء".
"فقام الشيخ في ذلك أتم قيام، وكتب إلى أطراف الشام في الحثِّ على قتال المذكورين، وأنها غَزاة في سبيل الله".
"ثم تجهز هو بمن معه لغزوهم بالجبل، صحبه ولي الأمر نائب المملكة المعظمة، أعز الله نصره، والجيوش الشآمية، المنصورة، وما زال مع ولي الأمر في حصارهم وقتالهم، حتى فتح الله الجبل، وأجلى أهله. وكان من أصعب الجبال، وأشقها ساحة. وكانت الملوك المتقدمة لا تقدم على حصاره، مع علمها بما عليه أهله من البغي والخروج على الإمام والعصيان، وليس إلا لصعوبة المسلك، ومشقة النزول عليهم".
"وكان فتحه أحد المكرمات والكرامات المعدودة للشيخ، لسببين على ما يقوله الناس:
أحدهما: لكون أهل هذا الجبل بغاة رافضة سبَّابةً تعيَّن قتالهم.
والثاني: لأن جبل الصالحية لما استولت الرافضة عليه - في حال استيلاء الطاغية قازان - أشار بعض كبرائهم بنهب الجبل، وسبي أهله وقتلهم، وتحريق مساكنهم، انتقاماً منهم لكونهم سنِّيَّة، وسماهم ذلك المشير: نواصب، فكان ما كان من أمر جبل الصالحية بذلك القول، وتلك الإشارة".

"قالوا: فكوفئ الرافضة بمثل ذلك، بإشارة كبير من كبراء أهل السنة وزناً بوزنٍ، جزاءً على يد ولي الأمر، وجيوش الإسلام.
والمشير المذكور: هو الشيخ المشار إليه".
"ولما فتح الجبل، وصار الجيش بعد الفتح إلى دمشق المحروسة عكف خاصُّ الناس وعامُّهم على الشيخ بالزيارة والتسليم عليه، والتهنئة بسلامته، والمسألة له منهم عن كيفية الحصار للجبل، وصورة قتال أهله، وعما وقع بينهم وبين الجيوش من المراسلات، وغيرها، فحكى الشيخ ذلك".
"وكان توجه الشيخ تقي الدين رضي الله عنه إلى الكسروانيين في مستهل ذي الحجة من سنة أربع وسبعمائة وصحبه الأمير قراقوش، وتوجه نائب السلطنة، الأمير جمال الدين الأفرم، بمن تأخر من عسكر دمشق إليهم، لغزوهم واستئصالهم في ثاني شهر المحرم من سنة خمس وسبعمائة، وكان قد توجه قبله العسكر، طائفة بعد طائفة في ذي الحجة".
"وفي يوم الخميس سابع عشر وصل النائب والعسكر معه إلى دمشق، بعد أن نصرهم الله تعالى على حزب الضلال من الروافض والنصيرية وأصحاب العقائد الفاسدة، وأبادهم الله من تلك الأرض، والحمد لله رب العالمين"اهـ[2] .
يتحدث ابن كثير عن هزيمة المسلمين أمام قازان، وجيشه في سنة تسع وتسعين وستمائة فيقول:
"ولى السلطان هارباً فإنا لله وإنا إليه راجعون، وقتل جماعة من الأمراء وغيرهم... وكان أهل دمشق في خوف شديد على أنفسهم وأهليهم وأموالهم... وهرب جماعة من أعيان البلد وغيرهم إلى مصر، كالقاضي إمام الدين الشافعي، وقاضي المالكية الزواوي، وتاج الدين الشيرازي، وعلم الدين الصوابي والي البر، وجمال الدين بن النحاس والي المدينة، والمحتسب وغيرهم من التجار والعوام، وبقي البلد شاغراً ليس فيهم حاكم سوى نائب القلعة".
"وفي ليلة الأحد ثاني ربيع الأول كسر المحبوسون بحبس باب الصغير الحبس وخرجوا منه على حميّة، وتفرقوا في البلد، وكانوا قريباً من مائتي رجل، فنهبوا

---

[2] - الكواكب الدرية، ص: 182، ومنه نقلت ما كتبته عن جهاد شيخ الإسلام في موقعة "شقحب".

ما قدروا عليه، وجاؤوا إلى باب الجابية فكسروا أقفال الباب البراني وخرجوا منه إلى بر البلد... ثم يتحدث عن كسر أبواب البساتين، وقلع الأبواب والشبابيك، وعن غلاء الأسعار وغير ذلك"[3] .

تلفتت دمشق في هذه الأيام العصيبة، فلم تجد إلا عالمها الشجاع ابن تيمية، الذي أرسل إلى نائب القلعة من يقول له: لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت، وعندما أقبل علماء السوء نحو قازان يخطبون له على المنابر، ويحظون بشيء من ذهبه وفضته، كان شيخ الإسلام مشغولاً بما يدخل الأمان على قلوب الناس الخائفين، ولا يفكر بخاصة نفسه، فهو من جهة يحاول مقابلة قازان مرة أخرى لأخذ الأمان منه، وعندما يحجبه عنه وزيره، يكرر المحاولة بعد ارتحال قازان عن بلاد الشام، وينجح في مقابلة نائبه "أمير بولائي" وتمكن من استنقاذ كثير من أسرى المسلمين، وكان من بين الذين استنقذهم الأسرى من الشاميين الذميين.

ومن جهة أخرى يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال، ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط.

وفي جميع أحواله [سواء كانت دمشق تخضع لسيطرة التتار أم لسيطرة سلطان المسلمين] كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر:

ففي سنة تسع وتسعين وستمائة وقبل قدوم العساكر المصرية بأيام دار الشيخ تقي الدين ابن تيمية وأصحابه على الخمارات والحانات فكسروا آنية الخمور وشققوا الظروف وأراقوا الخمور، وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش، ففرح الناس بذلك.

وفي سنة إحدى وسبعمائة ثار جماعة من الحسدة على الشيخ تقي الدين ابن تيمية وشكوا منه أنه يقيم الحدود ويعزر ويحلق رؤوس الصبيان، وتكلم هو أيضاً فيمن يشكو منه ذلك، وبين خطأهم، ثم سكنت الأمور.

وفي سنة أربع وسبعمائة أحضر إلى الشيخ تقي الدين ابن تيمية شيخ كان يلبس دلقاً كبيراً متسعاً جداً يسمى المجاهد إبراهيم القطان، فأمر الشيخ بتقطيع ذلك الدلق فتناهبه الناس من كل جانب وقطعوه حتى لم

---

[3] - البداية والنهاية: 14/6 مع الاختصار.

بدعوا فيه شيئاً وأمر بحلق رأسه، وكان ذا شعر، وقلم أظفاره وكانوا طوالاً جداً، وحف شاربه المسبل على فمه المخالف للسنة، واستتابه من كلام الفحش وأكل ما يغير العقل من الحشيشة وما لا يجوز من المحرمات وغيرها.
وبعده استحضر محمد الخباز البلاسي فاستتابه أيضاً عن أكل المحرمات ومخالطة أهل الذمة، وكتب عليه مكتوباً أن لا يتكلم في تعبير المنامات ولا في غيرها بما لا علم له به. وفي هذا الشهر[4] بعينه راح الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى مسجد النارنج وأمر أصحابه ومعهم حجارون بقطع صخرة كانت هناك بنهر قلوط تزار وينذر لها، فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيماً، وبهذا وأمثاله حسدوه وأبرزوا له العداوة، وكذلك بكلامه بابن العربي وأتباعه، فحسد على ذلك وعودي، ومع هذا لم تأخذه في الله لومة لائم، ولا بالى، ولم يصلوا إليه بمكروه، وأكثر ما نالوا منه الحبس مع أنه لم ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام، ولم يتوجه لهم عليه ما يشين وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه كما سيأتي، وإلى الله إياب الخلق وعليه حسابهم".
أما المحن التي ابتلي بها الشيخ رحمه الله بسبب مواقفه واجتهاداته، فنشير فيما يلي إلى أهمها:
في عام 705 هـ حبس أياماً في برج بمصر، ثم نقل منه ليلة العيد إلى الحبس المعروف بالجب، هو وأخوه شرف الدين عبد الله، وخرج من هذا السجن عام 707 هـ، ثم أعيد إلى السجن - حبس القضاة - في شوال عام 707 هـ، وانتهت هذه المحنة بعودة السلطان ناصر بن قلاؤون إلى الحكم في 13 من شعبان عام 709 هـ، وكان الإفراج عن ابن تيمية في 8 شوال 709 هـ، وعندما استفتاه السلطان في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموا فيه، فقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، فقال: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مراراً، فقال: من آذاني فهو في حل.
وفي يوم الخميس ثاني عشرين رجب من سنة عشرين وسبعمائة عقد مجلس بدار السعادة للشيخ تقي الدين ابن تيمية بحضرة نائب السلطنة، وحضر فيه القضاة

---

[4] - شهر رجب من عام: 704 هـ.

والمفتون من المذاهب، وحضر الشيخ وعاتبوه على العود إلى الإفتاء بمسألة الطلاق ثم حبس في القلعة فبقي فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً، ثم ورد مرسوم من السلطان بإخراجه يوم الاثنين - يوم عاشوراء - من سنة إحدى وعشرين وسبعمائة.
"وفي السابعة من شعبان 726 هـ صدر مرسوم بحبسه بسبب فتواه بعدم جواز شد الرحال لزيارة قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقبور الصالحين، وبعد أيام أمر قاضي القضاة الشافعي في حبس جماعة من أصحاب الشيخ تقي الدين".
وفي ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، توفي شيخ الإسلام ابن تيمية بقلعة دمشق بالقاعة التي كان محبوساً بها"[1] .
لقد عجز كيد المرجفين وعداوة الحاسدين وخشونة سجون الظالمين، عن النيل من شموخ شيخ الإسلام ابن تيمية وعلو همته، وأشهد باني ما وجدت في أقوال العلماء الأئمة مثل تفسيره للمحن والابتلاءات، يقول رحمه الله:
"ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري أين رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان يقول في مجلسه في القلعة:
لو بذلت ملء الأرض ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا إلي فيه من الخير ونحو هذا. وكان يقول في سجوده وهو محبوس: "اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ماشاء الله. وقال لي مرة[2] : المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه، ولما أدخل ووصل إلى القلعة وصار داخل سورها، نظر إليه وقال:
[فضرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب]. وعلم الله ما رأيت [ما يزال الكلام لابن القيم] أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً،

---

[1] - البداية والنهاية: 14/1 - 135، والكواكب الدرية.
[2] - هذا النص كله يرويه عنه تلميذه ابن قيم الجوزية الذي كان محبوساً معه في سجن القلعة.

وأسرهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، فينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة"[3] .
ومن شجاعته وترفعه عن التقرب إلى أولي النهي والسلطان ما حكاه في الكواكب قال:
"لما وشوا به إلى السلطان الأعظم الملك الناصر لدين الله، وأحضره بين يديه قال من جملة كلامه: إنني أخبرت أنك قد أطاعك الناس، وأن في نفسك أخذ الملك، فلم يكترث به، بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت، وصوت عال سمعه كثير من حضر:
أنا أفعل ذلك؟ والله إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي فلساً، فتبسم السلطان لذلك وأجابه في مقابلة بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة: إنك والله لصادق، وإن الذي وشى بك إلي لكاذب، واستقر له في قلبه من المحبة الدينية ما لولاه لكان قد فتك به منذ دهر طويل من كثرة ما يلقى إليه في حقه من أقاويل الزور والبهتان، ممن ظاهر حاله العدالة، وباطنه مشحون بالفسق والجهالة"[4] .
لقد كان السلطان يعلم من سيرة هذا الشيخ ومن مواقفه المجردة من الأهواء والمنافع أن ملكه وملك المغول لا يساوي عند ابن تيمية فلساً، فكيف بما هو أدنى من ذلك كمنصب وزير أو قاضي القضاة أو غير ذلك؟، أما شيخ الإسلام فما كان يبالي بما سيفعله السلطان عندما رد عليه هذا الرد الحاسم.
إن أمة يبرز فيها أمثال ابن تيمية لابد وأن تتبوأ مكانتها القيادية المرموقة، وإذا تعرضت لانتكاسة كما حدث في غزو التتار، فإن أمثال هذا الشيخ هم الذين يقودون أمتهم ويحولون فشلها إلى نجاح وهزيمتها إلى نصر بإذن الله، فليتق الله الذين يبررون تخاذلهم بشواهد يستدلون بها من أقوال شيخ الإسلام، أو ليبينوا لنا كيف يقرأون ويفهمون هذه المواقف التي عرضناها؟

الشبهة الثانية

---

[3] - الكلم الطيب والعمل الصالح، لابن القيم [عن كتاب حياة شيخ الإسلام ابن تيمية لمؤلفه محمد بهجت البيطار].
[4] - حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، للشيخ محمد بهجت البيطار، ص: 15.

يقولون: إن الأوضاع العامة في بلدنا - رغم وجود بعض الأخطاء والانحرافات - أفضل مما هي عليه في البلدان المجاورة، بل من الظلم مقارنة هذا بذاك، والواجب شكر الله على نعمه الكثيرة التي أنعم بها علينا، ونسأله جل وعلا أن يجنبنا الخلافات والفتن والحروب التي تشهدها البلدان الأخرى.
وقولهم هذا عائم وغير منضبط بالضوابط الشرعية، وفيه حيدة ظاهرة عن الحق، ومن الدلائل على ذلك أن بعض العلماء والدعاة في كل بلد يستطيعون ترديد مثل هذا الادعاء، ولا يعدمون ميزة يمتازون بها عن غيرهم، وتدفعهم إلى الافتخار بها.
ومن جهة أخرى فقد يكون في البلد المفضول قدر من الحرية يسمح بنقد المسؤولين وبيان أخطائهم، ثم تنتشر هذه الأخطاء والمفاسد في وسائل الإعلام ويتحدث بها القاصي والداني، في حين تنعدم هذه الحرية في البلد الفاضل [حسب ادعائهم] ولا تجرؤ وسائل الإعلام على نقد أحد من كبار المسؤولين، ومن يفعل ويقترف مثل هذه الجريمة فإنه معرض لأقسى عقوبة، وقد تبلغ حد الموت، وعندما يطمئن المواطنون في مجالسهم الخاصة ويأمنون شر الجواسيس يتحدثون عن أضعاف المفاسد التي تشهدها البلدان الأخرى، ثم لابد بعد ذلك أن تبقى بعض الانحرافات المجهولة التي لا يعرف الناس شيئاً عنها.
ومن جهة ثالثة فقد يكون نقد البلدان الأخرى وسيلة من وسائل تجنيد الدولة لهذا النوع من الدعاة في حملتها الدعائية المعادية لهذه الدولة أو تلك، وليس للدعوة الإسلامية أية فائدة من هذه المهاترات الشخصية الفاجرة.
ومن جهة رابعة فقد يكون الحال في بلد من البلدان أفضل حالاً مما هو عليه في البلدان الأخرى، ومع ذلك فإن هذه الحقيقة لا تعفي العلماء والدعاة من وجوب إنكار المنكر في بلدهم، وبيان حكمها الشرعي، وهم آثمون إذا لم ينهضوا بما أوجبه الله عليهم، ولندلل على ذلك بالمثال الآتي:
لنفترض أن السلطان في البلد الفاضل أصدر مرسوماً تشريعياً يسمح بإقامة بنوك ربوية، وينظم مقدار الفائدة، وبموجب هذا القانون أصبحت هذه البنوك

بأبنيتها الشاهقة معلماً من معالم المدن داخل البلد المشار إليه، ويستطيع أي باحث لهذه المسألة أن يتوصل لمعلومات دقيقة عن تعامل هذه الدولة: مع صندوق النقد الدولي، ومع البنوك العالمية والمحلية، وعن مقدار الاستثمارات الربوية في البنوك الغربية وغيرها.
ولنفترض أن العلماء قابلوا السلطان، وتحدثوا معه بطريقة مهذبة عن عيوب هذا المرسوم ومخالفته لشرع الله، ثم وعدهم كعادته خيراً، ومرت الأيام والأعوام دون أن يروا بصيصاً من هذا الخير الذي وعدهم به، وليس من اللائق أن يكلموه مرة أخرى لأنهم يخشون الفتنة، وما يعجز غيرهم عن أخذه بالقوة هم قادرون على أخذه بالحسنى... غير أنهم عادوا إليه مرة أخرى يطلبون ما هو أقل من ذلك بكثير... عادوا يطلبون إصدار مرسوم يسمح بإقامة بنوك إسلامية، كما هو الحال في بعض البلدان العربية الأخرى التي يكثرون من الحديث عما فيها من الفتن والفساد، أو كما هو الحال في بعض الدول الأوربية الكافرة التي سمحت بقيام هذا النوع من البنوك، ووعدهم سلطانهم خيراً، ولكن هذا الوعد كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء.
وزيادة على إخلافه بالوعد فقد وردت العلماء معلومات وفيرة تؤكد عداوة هذا السلطان للبنوك الإسلامية، وسعيه الحثيث من أجل وصول هذه المشاريع الإسلامية إلى طريق مسدود، ولهذا فهو يحرك ضدها أشباه المثقفين، ويدفعهم إلى كتابة المقالات التي تندد بمخاطرها على الاقتصاد، ومن جهة أخرى فهو يحذّر أكثر الحكام الذين يلتقي بهم من الأصولية (!!) التي تقف وراء هذه البنوك.
والسؤال المطروح:
ما هو الحكم الشرعي في هذه المسألة؟ وما الذي يجب على العلماء فعله؟.
الجواب: فصّل علماؤنا القول في أمثال هذه المسألة، ولندع الجواب فيما يلي لشيخ الإسلام ابن تيمية، يقول رحمه الله:
"كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها باتفاق أئمة المسلمين؛ وإن تكلمت بالشهادتين. فإذا أقروا

بالشهادتين وامتنعوا عن الصلوات الخمس وجب قتالهم حتى يصلوا. وإن امتنعوا عن الزكاة وجب قتالهم حتى يؤدوا الزكاة، وكذلك إن امتنعوا عن صيام شهر رمضان أو حج البيت العتيق. وكذلك إن امتنعوا عن تحريم الفواحش، أو الربا، أو الميسر، أو الخمر، أو غير ذلك من محرمات الشريعة. وكذلك إن امتنعوا عن الحكم في الدماء والأموال والأعراض والأبضاع ونحوها بحكم الكتاب والسنة. وكذلك إن امتنعوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار إلى أن يسلموا ويؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون. وكذلك إن أظهروا البدع المخالفة للكتاب والسنة واتباع سلف الأمة وأئمتها؛ مثل أن يظهروا الإلحاد في أسماء الله وآياته، أو التكذيب بأسماء الله وصفاته، أو التكذيب بقدره وقضائه، أو التكذيب بما كان عليه جماعة المسلمين حتى يدخلوا في طاعتهم التي توجب الخروج عن شريعة الإسلام، وأمثال هذه الأمور، قال تعالى: {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله}، فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله وجب القتال حتى يكون الدين كله لله. قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله}، وهذه الآية نزلت في أهل الطائف، وكانوا قد أسلموا وصلوا وصاموا، لكن كانوا يتعاملون بالربا، فأنزل الله هذه الآية، وأمر المؤمنين فيها بترك ما بقي من الربا. وقال: {فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله} وقد قرئ {فأذنوا} و {آذنوا} وكلا المعنيين صحيح. والربا آخر المحرمات في القرآن، وهو ما لا يؤخذ بتراضي المتعاملين، فإذا كان من لم ينته عنه محارباً لله ورسوله، فكيف بمن لم ينته عن غيره من المحرمات التي هي أسبق تحريماً وأعظم تحريماً"[1] .

قلت: هذا هو الحكم الشرعي في هذه المسألة التي سقناها على شكل افتراض، مع أنها حقيقة ناصعة البيان، ولهذا فقد قاتل الصحابة رضوان الله عليهم القبائل التي امتنعت عن دفع الزكاة لأبي بكر قتال ردة لا قتال بغي، وهذا مع إقرارهم بالصلاة وغيرها من أركان الإسلام - سوى الزكاة - .

---

[1] - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، مطابع الرياض: 28/510.

أما عن واجب العلماء، فليس المطلوب منهم القتال أو الإفتاء بالخروج[2]، لأن الخروج لا يكون إلا عند توفر شروط: منها: استفراغ النصح، ومنها: الاستطاعة، بل المطلوب منهم بيان الحكم الشرعي في مثل هذه المسألة، وهذا الذي ذهب إليه الإمام النووي رحمه الله في قوله الذي رد به على السلطان:
"وأما أنا في نفسي؛ فلا يضرني التهديد، ولا أكثر منه، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان، فإني أعتقد أن هذا واجب علي وعلى غيري، وما ترتب على الواجب؛ فهو خير وزيادة عند الله تعالى؛ {إنما هذه الحياة متاع وإن الآخرة هي دار القرار}، {وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد}، وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول بالحق حيث ما كنا، وأن لا نخاف في الله لومة لائم".
وقوله رحمه الله: "وقد أوجب الله إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها".
وإيضاح الأحكام لابد أن يطلّع عليه الناس، لأن السلطان لا يفتأ يردد عبر أجهزة إعلامه أن مراسيمه وقوانينه كلها شرعية باتفاق العلماء، ومن جهة أخرى فإن بعض المنسوبين إلى العلم بدأوا يفتون ويكررون أقوالاً شاذة سبقهم إليها بعض العلماء، وخلاصتها أن يسير الربا حلال ولا شبهة فيه، أو يقولون إن البنوك الربوية وصندوق النقد الدولي من الضرورات في هذا العصر والضرورات تبيح المحظورات، وحاجة الناس ملحة إلى معرفة الحكم الشرعي في هذه المسألة حتى لا يسقطوا في الفتنة فيتعرضوا لحرب الله ورسوله، ومن العبث أن ينشغل العلماء في هذه الحالة بشؤون البلدان الأخرى التي يرتع فيها الفساد أضعافاً مضاعفة، ويسكتوا عما يجري في بلدهم، وهو بالتأكيد ليس قاصراً على مرسوم تنظيم أعمال البنوك الربوية، وهم يعرفون ذلك جيداً، ولا يجوز لأحد منهم الاعتذار بالجهل، وسكوتهم لا يبرئ ذمتهم أمام الله تعالى.
وإذا كانوا يخشون من دفع هذا المنكر بمنكر أشد، فليبينوا ذلك وليحذروا من الفوضى والتخبط والغلو، وسوف يطيعهم الناس في الأولى والثانية .

---

[2] سوف نعود - إن شاء الله - إلى الحديث عن مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية وفتواه في قتال التتار عند الحديث عن الاستطاعة.

نحو كيان جديد (الحلقة 31)
الحوار بين أهل السنة

السلفية بين الولاة والغلاة

محمد سرور زين العابدين

عندما يكون الحكم لغير شريعة الله
(3 - 3)

قيمة ما يصدر عنهم من فتاوى في المسائل المتعلقة بالسلطان ونظامه

جاء في كتاب أعلام الموقعين ما يلي:
"ذكر أبو عبد الله بن بطة في كتابه في الخلع عن الإمام أحمد أنه قال:
لا ينبغي للرجل أن ينصّب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال: أولها: أن تكون له نية، فإن لم يكن له نية لم يكن عليه نور ولا على كلامه نور. والثانية: أن يكون له علم وحلم ووقار وسكينة. والثالثة: أن يكون قوياً على ما هو فيه وعلى معرفته. الرابعة: الكفاية وإلا مضغه الناس. الخامسة: معرفة الناس. وهذا مما يدل على جلالة أحمد ومحله من العلم والمعرفة؛ فإن هذه

الخمسة هي دعائم الفتوى، وأي نقص منها ظهر الخلل في المفتي بحسبه"[1] .
وعلماء السلطان لا تتوفر فيهم هذه الخصال الخمس، وأنا أنقل فيما يلي كلام ابن القيم في شرحه لهذه الخصال، ثم أعلق عليها:
1 - يقول عن النية: "فكم بين مريد بالفتوى وجه الله ورضاه والقرب منه وما عنده، ومريد بها وجه المخلوق ورجاء منفعته وما يناله منه تخويفاً أو طمعاً!".
2 و 3 - "فليس صاحب العلم والفتيا إلى شيء أحوج منه إلى الحلم والسكينة والوقار... فبالعلم تنكشف له مواقع الخير والشر والصلاح والفساد، وبالحلم يتمكن من تثبيت نفسه عند الخير فيؤثره ويصبر عليه".
ويقول عن السكينة: "وهي طمأنينة القلب واستقراره وأصلها في القلب، ويظهر أثرها على الجوارح... وهذه السكينة هي التي حصلت لإبراهيم الخليل وقد ألقي في المنجنيق مسافراً إلى ما أضرم أعداء الله من النار... وكذلك السكينة التي حصلت لنبينا صلى الله عليه وسلم وقد أشرف عليه وعلى صاحبه عدوهما وهما في الغار فلو نظر أحدهم إلى تحت قدميه لرآهما".
وعن الأسباب المؤدية إلى السكينة يقول:
"استيلاء مراقبة العبد لربه جل جلاله حتى كأنه يراه، وكلما اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء ما لا يحصل بدونها".
وعن العلم يقول: "أن يكون مستظهراً بالعلم متمكناً منه، وغير ضعيف فيه؛ فإنه إذا كان ضعيفاً قليل البضاعة غير مضطلع به أحجم عن الحق في موضع ينبغي فيه الإقدام لقلة علمه بمواضع الإقدام والإحجام، فهو يقدم في غير موضعه، ويحجم في غير موضعه".
4 - ويقول عن الكفاية: "فإنه إذا لم يكن له كفاية احتاج إلى الناس وإلى الأخذ مما في أيديهم، فلا يأكل منهم شيئاً إلا أكلوا من لحمه وعرضه أضعافه، وقد كان لسفيان الثوري شيء من مال، وكان لا يتروى في بذله ويقول: لولا ذلك لتمندل بنا هؤلاء".
5 - ويقول عن معرفة الناس: "ينبغي أن يكون فقيهاً في معرفة مكر الناس وخداعهم واحتيالهم وعوائدهم

---

[1] - أعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، 4/199.

وعُرفياتهم، فإن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعوائد والأحوال"[1] .
قلت: منذ حوالي نصف قرن كان للعلماء شيء من الاستقلالية، وكانوا يشاركون السلطان في اختيار المفتي وكبار القضاة، أما اليوم فقد أصبحت حالنا غير تلك الحال: لقد انفرد السلطان في تعيين المفتي وكبار وصغار المسؤولين في شؤون الإفتاء والقضاء والأوقاف، ولابد أن يحوي قرار التعيين الصيغة التالية: "نحن [يذكر اسم الرئيس أو الملك] بناء على المادة (...) من الدستور نرسم أو نأمر بما هو آت".
فالمختار: هو نفسه الذي استبدل شريعة الطاغوت بشريعة الله، وهو نفسه الذي يطارد الدعاة إلى الله سبحانه وتعالى، وهو نفسه الذي يوالي أعداء الله، والدستور الذي استند إليه الزعيم في المرسوم الذي أصدره هو الذي يضمن حرية الاعتقاد، مهما كان هذا الاعتقاد، وتدخل العلمانية والشيوعية وغيرهما في هذا الإطار، وبعد هذا التعيين تحدد صلاحيات المفتي، ولا يجوز له تجاوز هذه الصلاحيات باسم إنكار المنكر وغير ذلك، وإن خرج عن الحدود المرسومة له لابد أن تصدر بحقه العقوبة والتي تتراوح بين الإنذار والطرد من وظيفته أو نقله لوظيفة مجردة من أي مضمون.
والذين وقع عليهم الاختيار، إما أن يكونوا من الذين أراقوا ماء وجوههم من أجل الحصول على هذه الوظيفة، وهؤلاء لن يترددوا في الاستجابة لكل ما يأمرهم به سلطانهم أو وزير هذا السلطان، وإما أن يكونوا ممن سعى إليهم السلطان، وقبلوا أخيراً هذه المناصب بعجرها وبجرها، والنتيجة في الحالين واحدة بالنسبة إلى السلطان، ودليلنا على ذلك أننا لم نسمع أن واحداً من هؤلاء المفتين أصدر فتوى ضد رغبة السلطان أو ضد نظامه، ولم نسمع أن قاضياً أصر على استدعاء السلطان [أو نائبه أو وزيراً من وزرائه أو قريباً من أقربائه] إلى قاعة المحكمة وحكم عليه بالرجم أو الجلد أو قطع اليد أو التعزير مع استحقاقهم لهذه العقوبات كلها أو بعضها لو أراد القاضي وجه الله تعالى، وعلى نقيض ذلك فما من موقف يتخذه السلطان في الصد عن سبيل الله إلا ويرافقه تأييد من بعض هؤلاء والأمر لله

---

[1] - أعلام الموقعين: 4/199 - 205.

من قبل ومن بعد، والأسوأ من ذلك قول هذا الظالم في بعض الأحيان: نحن في كل أمورنا نستفتي علماءنا وننفذ ما يفتون به.
إن السلطان يشترط فيمن يختارهم من العلماء شروطاً تختلف عن الشروط التي أشار إليها الإمام أحمد وغيره من الأئمة؛ فهو [السلطان] لابد أن يستفتي أجهزة أمنه أولاً، وهذه الأجهزة تقدم له تقريراً كاملاً عن الشيخ ومدى استعداده لإطاعة السلطة، ثم تبيّن له نقاط الضعف التي يسهل اختراقه من خلالها... وإذا جاء هذا التقرير موافقاً لرغبة السلطان، فغير مهم أمر العلم[1]، ويكفي الشكل، والقدرة على الخطابة، وأن يكون معروفاً بين العامة أنه من زمرة العلماء، أما الحديث عن الحلم والسكينة والوقار فتتعارض مع وقوف الشيخ الساعات الطوال على أعتاب السلطان ينتظر الإذن بالدخول، وأما معرفة الناس فيتم معظمها عن طريق مؤسسات الدولة، والقائمون على هذه المؤسسات يعرفون كيف يحددون مناط الفتوى للشيخ.
رحم الله الإمام أبي حنيفة كم كان مصيباً في قوله للمنصور:
"إن هذا دعاني للقضاء فأعلمته أني لا أصلح، ولا يصلح للقضاء إلا رجل يكون له نفس يحكم بها عليك، وعلى ولدك، وقوادك، وليس تلك النفس لي، إنك لتدعوني فما ترجع نفسي حتى أفارقك"[1] .
الخلاصة: واجه علماؤنا الذين نعتز بهم الظالمين بظلمهم وانحرافاتهم، وكانوا لا يخشون في صدعهم بالحق أحداً إلا الله تعالى، وفيما يلي تلخيص لأهم مواقفهم التي أوضحناها في الصفحات الماضية:
-كانوا ينأون بأنفسهم عن مجالسة الظالمين والتزلف لهم وقبول وظائفهم وأعطياتهم، والذين كانوا يقبلون الوظائف منهم ما كانوا يترددون في التنازل عنها عندما تتعارض مع مواقفهم الثابتة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
-كانوا يعتقدون وجوب إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها عملاً بقوله تعالى: {وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه}، ويؤمنون بحرمة

---

[1] - اطلعت قبل أشهر على أقوال لشيخ الأزهر ومفتي مصر في الرافضة وفي أمور أخرى تنم عن جهل يترفع عنه المبتدئ في طلب العلم.
[1] - مر معنا هذا القول فيما ذكرناه عن الإمام أبي حنيفة.

السكوت عن بيان الأحكام، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بليّ أعناق النصوص أو تحريف الكلم عن مواضعه كما يفعله البعض في هذا العصر؟!.
- علماؤنا كانوا يقولون - والخطر محدق بهم من كل جانب - : "إذا أجاب العالم تقية، والجاهل يجهل، متى يتبين الحق؟"، وهذا يعني أن بعضهم كان يفضل الموت على التقية.
- علماؤنا كانوا يرون أن الأمة تفتن إذا كان الدين لغير الله أو إذا كان بعضه لله وبعضه لغير الله.
- زجّ بعض الظالمين ببعض كبار علمائنا في السجون ليتراجعوا عن فتاوى أفتوا بها على ملأ من الناس فما زادهم ذلك إلا ثباتاً وقوة واستعلاء، ولهم في ذلك كلمات سجلها التاريخ بأحرف من نور:
فالإمام أحمد بن حنبل كان وهو يجلد مشغولاً بشد حزام سرواله خوفاً من أن تظهر عورته، والعز بن عبد السلام قال لمن جاء يفاوضه ويطلب منه تقبيل يد السلطان والاعتذار منه ثم تعاد له جميع وظائفه: والله ما أرضاه أن يقبّل يدي فضلاً عن أن أقبّل يده. يا قوم أنتم في واد وأنا في واد، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به، وشيخ الإسلام ابن تيمية كان يقول:
أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.
- كان علماؤنا يعتقدون أن المنكر إذا كان عاماً فإن النهي عنه يكون عاماً كذلك: ففتوى الإمام مالك المتعلقة بطلاق المكره كانت عامة، وموقف الإمام أحمد من فتنة خلق القرآن كانت عامة، وإنكار العز بن عبد السلام على السلطان إسماعيل الذي استعان بالنصارى ضد أخيه سلطان مصر كانت عامة، وفي خطبة جمعة في المسجد الأموي بدمشق... ولقاء شيخ الإسلام ابن تيمية مع محمود قازان كان على مرأى ومسمع وفد علماء دمشق الذين كانوا يرافقون ابن تيمية، وأمام كبار قادة جيش قازان، ثم طارت أخبار هذا اللقاء فسمع بها الخواقين والأمراء الذين أحاطوا بهذا العالم الجليل عند عودته إلى دمشق يتبركون به ويسألونه الدعاء لهم... ورسائل الإمام النووي التي كان يرسلها إلى سلاطين عصره كانت عامة لأن عدداً من كبار العلماء كانوا يوقعون عليها من جهة، ومن جهة أخرى فقد كانت هذه

الرسائل تتعلق بقضايا عموم المواطنين "كالحوطة" وغيرها، وإذا استعرنا اللغة المستعملة اليوم: فلقد كان النووي ناطقاً باسم الجماهير ومدافعاً عن حقوقهم المغتصبة.
- وكان علماؤنا لا ينكرون المنكر بمنكر أشد، ولا يجيزون اقتتال المسلمين فيما بينهم.
- وكان علماؤنا يرون وجوب السمع والطاعة لأمرائهم، ولا يرون الخروج عليهم[1] وإن ظلموا وضربوا الظهور وأخذوا الأموال لكنهم كانوا يلتزمون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف"[2]، كما أن عدم الخروج عليهم مشروط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والطاعة أيضاً لا تعني الإذعان والاستعباد والقهر، قال صلى الله عليه وسلم: "خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى رجل فأمره ونهاه في ذات الله فقتله على ذلك"[3] .
هذه هي فتاوى علمائنا، وهذه هي مواقفهم التي نعتز بها وننسج على منوالها:
أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

<u>لا عذر لأحد منهم بالجهل:</u> سنمضي تحت هذا العنوان: "لا عذر لأحد منهم بالجهل" في الحديث عن رد فتوى هؤلاء العلماء التي تتعلق بالسلطان ونظام حكمه، وفي دحض شبهاتهم التي يدافعون بها عن قبولهم المناصب والأعطيات، فنقول:
للعلماء دور كبير في استقرار الحكم والحاكم، وفي إضفاء الشرعية عليه، لأن الناس يحترمونهم، وينتظرون مواقفهم وفتاويهم في الأحداث المهمة، وإن قالوا أصغت الغالبية لقولهم، وتلقته على أنه دين وحكم شرعي.
ولما كان الحكام لا يهتمون بشيء كما يهتمون بمناصبهم وبطاعة الناس لهم، ولما كان العلماء خيراً لهم من أسطول إعلامي ضخم، لهذا وذاك فقد سعوا

---

[1] - ليس هذا موضع إجماع أهل السنة، كما بينت ذلك فيما مضى.
[2] - صحيح مسلم، الحديث رقم: 1225، كتاب الإمارة.
[3] - أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة 1/374.

منذ القديم إلى كسب ود العلماء، واستخدموا معهم سلاح الترغيب تارة، وسلاح الترهيب تارة أخرى، ووجدوا بعد خبرة طويلة أن الترغيب أعظم نفعاً وأكثر جدوى من الترهيب، وهذا الذي كان يحذّر منه أئمة السلف رحمهم الله، يقول سفيان الثوري: "ما أخاف من إهانتهم لي إنما أخاف من إكرامهم فيميل قلبي إليهم [1].

وكان أبو حامد الغزالي رحمه الله يفتي بعدم جواز أخذ أعطيات الظالمين وقبول ولاياتهم، فقال له بعض الذين يخالفونه فيما أفتى به: إن بعض الصحابة والتابعين كانوا يأخذون أعطيات وجوائز الظالمين، فكان له هذا القول الجميل في الرد عليهم: "إن الظلمة في العصر الأول لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين كانوا مستشعرين من ظلمهم ومتشوفين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال. بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ويفرحون به، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون ولا يطيعون السلاطين في أغراضهم ولا يغشون مجالسهم ولا يكثرون جمعهم ولا يحبون بقاءهم بل يدعون عليهم ويطلقون اللسان فيهم وينكرون المنكرات منهم عليهم، فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم ولم يكن بأخذهم بأس، فأما الآن فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا في استخدامهم والتكثر بهم والاستعانة بهم على أغراضهم والتجمل بغشيان مجالسهم وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء والتزكية والإطراء في حضورهم ومغيبهم، فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولاً، وبالتردد بالخدمة ثانياً، وبالثناء والدعاء ثالثاً، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعاً، وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامساً، وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة على أعدائه سادساً، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوي أعماله سابعاً، لم ينعم عليه بدرهم واحد ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلاً [1] ، فإذاً لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه

---

[1] - تلبيس إبليس، ابن الجوزي، دار الفكر، ص: 122.

[1] - للشافعي رحمه الله فضائل كثيرة، ولكن إفراد أبي حامد الغزالي لاسمه في هذا الموضع دليل على تعصبه المذهبي.

المعاني فكيف ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه؟ فمن استجرأ على أموالهم وشبّه نفسه بالصحابة والتابعين فقد قاس الملائكة بالحدادين"[2] .

إن غشيان العلماء لمجالس الأئمة العدول بقصد تذكيرهم بيوم الحشر والمعاد، وتحذيرهم من الركون إلى الدنيا، وتبليغهم بمظالم الرعية التي لم تبلغهم واجب شرعي لقوله صلى الله عليه وسلم: "الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" [1] ، بل هو [النصح] أصل عظيم من أصول الإسلام، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم عندما يبايع أحداً، يشترط عليه النصح لكل مسلم. قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: "بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم"[2] .

أما إذا كان السلطان ظالماً مفسداً كذاباً، لا يقبل نصحاً، ولا يفي بوعد، فقد وردت الآثار باعتزال مجلسه، ورفض أعطياته.

- عن كعب بن عجرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "سيكون بعدي أمراء، فمن دخل عليهم فصدَّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه وليس بوارد علي الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يُصدِّقهم بكذبهم، فهو مني وأنا منه وهو وارد عليّ الحوض" [3] .

قال أبو سليمان الخطابي: "ليت شعري من الذي يدخل إليهم اليوم فلا يصدقهم على كذبهم، ومن الذي يتكلم بالعدل إذا شهد مجالسهم، ومن الذي ينصح ومن الذي ينتصح منهم؟ إن أسلم لك يا أخي في هذا الزمان وأحوط لدينك أن تقلَّ من مخالطتهم وغشيان أبوابهم ونسأل الله الغنى عنهم والتوفيق لهم"[4] .

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من بدا جفا، ومن اتبع الصيد

---

[2] - إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي: 2/139.

[1] - رواه مسلم في كتاب الإيمان.

[2] - رواه مسلم في كتاب الإيمان، وانظر كتاب الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة، مصدر سابق، ص:408 .

[3] - رواه الترمذي في الفتن، ورواه أحمد عن ابن عمر، وقال أحمد شاكر: صحيح الإسناد: 8/62، من المسند [عن الإمامة العظمى، ص: 400].

[4] - العزلة والخلطة [عن الإمامة العظمى، ص: 401].

غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن، وما ازداد عبد من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً"[1] .
- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليأتين عليكم أمراء يقربون شرار الناس، ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فمن أدرك ذلك منكم فلا يكونن عريفاً، ولا شرطياً، ولا خازناً"[2].
ومما يجدر التذكير به هنا أننا قد بيّنا فيما مضى من هذا البحث أن الذين قبلوا المناصب من علماء السلف ما كانوا يبيعون دينهم بدنياهم، ولا كانوا يترددون في إنكار المنكر أو بيان الأحكام الشرعية عند الحاجة إليها متمثلين بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه في ذات الله فقتله على ذلك"[3] .
- وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله أي الجهاد أفضل؟ ورسول الله يرمي الجمرة الأولى فأعرض عنه، ثم قال له عند الجمرة الوسطى فأعرض عنه، فلما رمى جمرة العقبة ووضع رجله في الغرز قال: أين السائل؟ قال: أنا يا رسول الله. قال: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر"[4] .
فإن قال قائل: إن هذه المنكرات التي تتحدثون عنها لا نراها في مجالس السلطان ومجالس كبار مساعديه وإننا لا نسمع منهم عند جلوسنا وإياهم إلا كل ما فيه خير للإسلام والمسلمين.
قلنا: يكفينا في رد هذه المقولة الإشارة إلى الأمثلة الثلاثة الآتية:
المثال الأول: مما هو معلوم من الدين بالضرورة أن بعض هؤلاء السلاطين نحوا شريعة الله كلها، وبعضهم نحوا بعض أحكام الشريعة، وأساءوا تطبيق البعض الآخر الذي أبقوه.
المثال الثاني: لقد تواترت أخبار ظلم السلاطين، وتحدثت حتى منظمات العفو الدولية عن السجون والمعتقلات التي امتلأت بالأبرياء من خيرة العلماء

---

[1] - أخرجه أحمد في المسند: 2/371، وذكره الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: 3/267، رقم: 1272.
[2] - رواه ابن حبان في موارد الظمآن، كتاب الإمارة.
[3] - أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة 1/374.
[4] - أخرجه أحمد في المسند: 5/251، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: 1/62 [أنظر الإمامة العظمى: ص: 410].

والدعاة إلى الله، وتقول أدق الإحصائيات الصادرة عن المحامين الذين يدافعون عن هؤلاء الضحايا أن عددهم في أحد البلدان العربية يبلغ ستين ألفاً فضلاً عن عدد الذين يعدمون أو عن عدد الذين يقتلون دون أن يحاكموا أو يسجنوا.

هذا ولا يستطيع عالم من العلماء الادعاء بأنه لم يسمع بأخبار الأراضي التي اغتصبها إخوان الملوك والرؤساء وأبناؤهم من مالكيها الذين ورثوها عن آبائهم أو التي أفنوا سني عمرهم حتى جمعوا ثمنها، وإن أي مواطن يستطيع ضرب أمثلة على هذا الظلم الصارخ مما يحدث في مدينته أو في منطقته.

ولا يستطيع أي عالم من العلماء - أيضاً - الادعاء بأنه لم يسمع بأخبار أصحاب الشركات أو المؤسسات التجارية الذين يذهبون مضطرين إلى إخوان الملوك والرؤساء يعرضون عليهم مشاركتهم بنسبة تتراوح بين الربع والنصف [دون أن يدفعوا قرشاً واحداً] مقابل حمايتهم من إخوانهم أو أبناء عمومتهم، وكلما علت مكانة المسؤول كلما كان السعر باهظاً.

وليس من العلماء من يجهل أمر العصابات التي تتنافس على السلب والنهب، وكل عصابة يتولى قيادتها وحمايتها قطب من أقطاب النظام تبدأ به وتنتهي بأطراف متعددة داخل البلد وخارجه، وقد أطلقت الصحافة في بعض البلدان على هذه العصابات مصطلح (القطط السمان)[1]، وصدر في أمريكا وأوربا عدد من الكتب ومئات المقالات عن هذه الفضائح مثل صفقات الأسلحة وغيرها وغيرها، والعملاء الذين كان دورهم ثانوياً أصبحوا بعد عدد من هذه الصفقات يملكون المليارات من الدولارات فما بالكم بما يملكه رئيس العصابة الذي لا يرضى أحياناً إلا أن يكون ما يدخل جيبه مساوياً لثمن الصفقة التي تم شراؤها.

المثال الثالث: كانت المنكرات والمفاسد التي يرتكبها أئمة الجور شخصية ومحدودة، تحدثنا كتب التاريخ عن بعض الخلفاء الذين كانوا يقتنون الجواري في قصورهم، وكان الخليفة الذي رق دينه وأسرته شهوته يتمتع بمن شاء منهن، وقد تشاركه الحاشية في مشاهدتهن وهن يرقصن ويغنين، أما اليوم فقد أنشأت

---

[1] - أعني بعض البلدان التي تسمح بهامش يسير من الحرية.

الحكومات دور الإذاعة والتلفاز، ونظمت برامجها وفق مراسيم صادرة عن الجهات الرسمية المختصة، وأصبح الغناء والرقص والموسيقى عملاً مشروعاً عند هذه الحكومات.
كنا بالأمس وقبل بضعة عقود نستنكر فتح سينما في مدينة من المدن، أما اليوم فقد دخلت هذه السينما بل عدد كبير من دور السينما إلى كل بيت، وأصبحت الأجيال الناشئة تتربى على ألفاظ المغنية وحركاتها ومعاني الأغنيات الهابطة، وعلى كل هذا الذي جاءوا به مما يخدش الحياء، ويحض على الرذيلة... وزادوا الطين بلة عندما أدخلوا ما أسموه البث المباشر، وكأن بلاء ما أحدثوه من مفاسد محلية لا يكفى فعملوا على إدخال كل فساد في أوربا وغيرها، ثم دفعوا شركاءهم من أصحاب رؤوس الأموال إلى إنشاء أقنية فضائية في البلدان الأوربية موجهة نحو البلدان العربية تخاطبهم بلغتهم، وتتمم مهمة إفساد الأجيال لأنها خارج حدود الرقابة - هكذا يعتذرون - .
هذا عن دور الإذاعة والتلفاز: أما الصحافة فقد أصبحت وقفاً على العلمانيين من أهل الكفر والزندقة وعلى المنافقين الذين يبدّلون مواقفهم كما يبدل المرء ثوبه، ونجح المشرفون[1] على هذه الصحف المشهورة في تجنيد الكتاب المعروفين بعدائهم للإسلام: مثل النصارى [وخاصة الموارنة من نصارى لبنان]، وفلول الرافضة الحاقدين، وشياطين اليسار الذين يعملون اليوم في معية من كانوا بالأمس ألد أعدائهم، ودعاة القومية العلمانية، ومنظري الأنظمة الرأسمالية اليمينية... كل هؤلاء الكتاب الذين يختلفون في الوسائل والعقائد جنود في حزب الشيطان، ويدركون جيداً أنهم من خلال عملهم في هذه الصحف يخوضون معركة ضد حزب الرحمن.
والناظر في هذه الصحف - الرسمية منها أو شبه الرسمية - يقرأ فيها الإعجاب بالفلسفة الوجودية والسخرية من الصحابة والتابعين وتابع التابعين، ويسلكون في ذلك أساليب خبيثة ظاهرها ما يسمونه البحث العلمي وحقيقتها التشكيك والدس والافتراء،

---

[1] - إنهم من أقطاب الأنظمة الحاكمة، وينفقون أرقاماً خيالية من أموال الأمة من أجل شراء ضمائر هؤلاء الكتاب.

كما يقرأ فيها حملات إرهابية حاقدة ضد الإسلاميين، وضد الإسلام السياسي [كما يدعون]، بحجة عداوة دعاة الإسلام السياسي للأنظمة التي تمتلك هذه الصحف وتشرف عليها.
ويقرأ فيها اهتمام منقطع النظير بأخبار الرياضة والرياضيين مع إبراز صورهم، وأنباء بطولاتهم المزعومة، ويقرأ فيها أخبار الراقصات والمغنيات يرافقها دعوة صريحة إلى ترقب ومشاهدة برامجهن في دور الإذاعة والسينما والتلفاز، ويقرأ أخبار المسؤولين مع نسائهم في حلهم وترحالهم، ويرى أشكالهم التي لا تختلف عن أشكال الكفار.
أما الإسلاميون فقد حيل بينهم وبين إصدار الصحف الخاصة بهم، كما حيل بينهم وبين الدفاع عن دينهم في صحافة القوم العلمانية إلا في حدود ضيقة جداً ومحدودة، فحتى المساواة بين الحقوق الممنوعة للعلمانيين والإسلاميين معدومة عند هؤلاء السلاطين، ولا أعدو الحقيقة عندما أقول: لا يمتلك الإسلاميون في طول البلاد وعرضها صحيفة إسلامية يومية واحدة، ولو صدرت مثل هذه الصحيفة في دولة أوربية[1] لفرض عليها حصار يحول بينها وبين الوصول إلى معظم البلاد العربية إن لم يكن إليها كلها.
قد يقول قائل: بل هناك مجلات إسلامية تصدر في بعض البلدان العربية! فأقول: هذا صحيح، ولكن السلاطين وأجهزة أمنهم يقفون وراء هذه المجلات التي تتخذ من الإسلام والمسلمين شعاراً واسماً تتسمى به وهي في حقيقتها ليست أكثر من مسجد من مساجد الضرار، ولهذا فهي مسخرة للتشنيع على الدعاة والجماعات الإسلامية، كما أنها مسخرة للتشكيك ببعض أصول الإسلام التي تغضب السلطان.
إذن: كيف يقول بعض العلماء: إننا لا نرى هذه المفاسد والمعاصي في مجالس السلاطين التي نتردد عليها؟! نسألهم بالله أن يرهفوا سمعهم، ويدققوا نظرهم، وأن لا ينظروا إلى ما حولهم بعين الرضى والمنفعة، بل بعين الورع والتقوى والزهد، ولو استجابوا لسؤالنا هذا لأيقنوا أن مفاسد السلاطين قد ملأت البر والبحر والجو

---

[1] - إن التعاون من أجل إصدار هذه الصحيفة واجب على الإسلاميين، كما أن خوض هذا الميدان بعمومه واجب.

[نقصد بالجو ما يحدث من مفاسد على طائراتهم]، ولعلموا أن اعتزال مجالس السلاطين من أضعف الإيمان.
وبعد هذا الاستطراد عن فساد السلاطين وظلمهم وتنحيتهم لشريعة الله، نعود إلى قول سفيان الثوري: "ما أخاف من إهانتهم لي إنما أخاف من إكرامهم فيميل قلبي إليهم".
رحم الله هذا الإمام الجليل، لقد كان ينظر بنور الله جلَّ وعلا إلى واقع عصرنا وما سبقه من عصور ويصفها وصفاً دقيقاً، ولو فطن العلماء اليوم إلى أبعاد قول سفيان لأعادوا النظر في كثير من مواقفهم التي كانت في بدايتها ليست أكثر من اجتهاد خاطئ فيه كثير من الغفلة وعدم التبصر بعواقب الأمور، ثم انتهت إلى المراوغة والشقاق والنفاق عند كثير منهم والعياذ بالله.
قلت غير مرة: رأيت صنفين من الحكام في هذا العصر: صنف منهم: حاربوا الإسلاميين عامة دون أن يفرقوا ما بين داعية وداعية آخر أو بين جماعة وجماعة أخرى، وفضلاً عن ذلك فقد دعوا إلى الشرك والإلحاد والزندقة، وسخروا من الدين وسموا المتدينيين رجعيين... وهؤلاء كانت عاقبتهم وخيمة، وقد أذلهم الله وجعلهم عبرة لكل من يعتبر ويتعظ، وانقلب سحرهم على الساحر بعد هلاكهم، وأكسب صنيعهم هذا الدين أعواناً وأنصاراً، وأصبحت أفكارهم وقوميتهم وتقدميتهم مجالاً واسعاً للتندر والسخرية.
وصنف آخر: قربوا إليهم العلماء، وأسندوا إليهم وظائف كبيرة ولكنها خاوية من المضمون الفعال، وأغدقوا عليهم الأموال ومنحوهم الأراضي الواسعة والمنح المجزية، فاغتنى هؤلاء العلماء بعد فقر مدقع، وتلذذوا بنعم الدنيا التي ما كانوا يسمعون بها بعد خشونة العيش التي تربوا عليها وعاشوا في كنفها أبا عن جد، واعتادوا ركوب السيارات الفارهة، وملكوا مئات الملايين من الجنيهات والدولارات... وباتوا أسرى لما امتلكوه، وتناسوا أنهم كانوا من قبل يحذّرون الحكام مما وقعوا فيه، وتعذّر عليهم التخلي عن مكاسبهم ووظائفهم وأعوانهم وجلسائهم الجدد الذين فرضوا السلطان عليهم، وما كانوا يعرفونهم من قبل.

وهكذا كانت سياسة هذا الصنف من الحكام أكثر تدميراً وأسوأ عاقبة من سياسة الصنف الأول، وتمكن السلاطين الذين يدّعون أنهم حماة لدين الله من نقض العديد من عرى الإسلام بعد أن ضعفت نفوس كثير من العلماء، ووقعوا في تناقضات مؤسفة، وقعدوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وصدق أبو حامد الغزالي رحمه الله فالسلاطين لا تسمح نفوسهم بعطية إلا للذين يطمعون في استخدامهم، والاستعانة بهم على أغراضهم، ولو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال وبالتسكع على الأعتاب، وبإظهار الحب والموالاة، وبالستر على ظلم السلاطين وفسادهم وقبائح أفعالهم، لم ينعم عليهم هؤلاء بدرهم واحد.

إن واقع حال العلماء الذين ساروا في ركاب السلاطين الظلمة، ومذكراتهم التي كتبوها قبل مغادرتهم لهذه الدنيا الفانية [رغم ندرتها] تؤكد بأن السلاطين ما كانوا يحبونهم رغم الخدمات المهمة التي قدموها لهم في أيامهم الحرجة، وذلك لأن هؤلاء العلماء مهما بلغوا من رقة الدين، ومن القدرة الفائقة على النفاق لا يستطيعون تجاوز خط معين في هذا التعامل، فلم ينقل إلينا عن أحد منهم أنه كان يتعاطى المخدرات، أو يشرب الخمر، أو يدعو إلى الشرك والزندقة، أو يوالي أعداء الله من اليهود والنصارى، أو يتبنى عن قناعة حرب الله ورسوله والذين آمنوا.

يقول الشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف في حكومة الثورة المصرية عام 1952: "وقد كانت بطانة عبد الناصر من أسوأ البطانات في الأرض إلا قليلاً ممن عصم الله، فكانوا يحرصون على استغلال قربهم منه: إما رجاء لخيره، وإما اتقاء لشره، وهم مع ذلك قليل جداً. ولقد كان من أشد ما ابتلاه الله به، أخذه بالنظام الهتلري في حكم الشعب، واستعانته برجال المخابرات النازية الذين حاولوا أن يصنعوا بمصر ما كانوا يصنعونه بألمانيا في عهد هتلر".

ويقول أيضاً: "وليس يرتاب الذين يؤرخون لهذه الثورة في أنها كانت كسائر الثورات، تستند إلى أمرين: أحدهما التوسع في نشر الجاسوسية، وثانيهما اصطناع أنصار يستغلون صلاتهم بالثوار. فأما التوسع في نشر الجاسوسية، فقد اقترن في أذهان الناس بأنه كلما

استطاع الجاسوس أن ينصب شركاً لأحد خصوم الثورة، كان أولى بالرعاية والثقة به. وكان بعض هؤلاء يصطنعون في كل بيت، وكل مكتب أصدقاء لهم يأتونهم بأخبار - صادقة أو كاذبة - لقاء أجر معلوم، وقد نشأ عن ذلك أن أصبح الوالد يتجسس على ابنه، والجميع ينتظرون من الدولة حسن المثوبة وجزل العطاء في منصب يسند إليهم أو مغنم يدر عليهم أخلاف الرزق الوسيع"[1] .

إن أجهزة التجسس تختلف من حيث القوة والضعف من بلد لآخر، ولكن لابد في النهاية من فرض المراقبة على كبار المسؤولين من العلماء، وقد تناط هذه المهمة بالشرطي الذي يحرس الشيخ أو بسائق سيارته أو بمدير مكتبه، وهذا كله غير أجهزة التصنت ذات التقنية العالية، وإذا كانت ظروف الشيخ الباقوري قد مكنته من نشر مذكراته بعد هلاك عبد الناصر، فغيره غير قادر على ذلك، أو لا يريد أن يقدم على عمل يفضح فيه نفسه.

وأكاد أقرر أنه ما من شيخ أسندت إليه مسؤولية كبيرة قد سلم في النهاية من بطش السلطان خاصة إذا تجاوز الخطوط الحمراء المرسومة له، وعندما يحدث مثل هذا التجاوز تصدر الأوامر الفورية بعزله، وقد يسمع خبر هذا العزل في الإذاعة كغيره من الناس، وقد تفرض عليه الإقامة الجبرية في منزله، ثم تبدأ السلطة بطريقة خبيثة بتسريب وثائق تفضح سيرة الشيخ، وتكشف سوء استخدامه للسلطة:

- فهذه صورة "شيك" ممهور بتوقيع الرجل الأول في الدولة تشير إلى استلام الشيخ مبلغاً كبيراً من المال مقابل فتوى شاذة أفتى بها أو مقابل خدمة مشبوهة قدمها للنظام.

- وتلك وثيقة أخرى تتحدث عن اختلاس الشيخ لعقار كبير من أملاك الدولة العامة التي كانت تتبع وزارته قبل عزله.

وفي غير هذا وتلك قد يتحدث الناس عن مؤامرة مزعومة، وقد يعترف المتآمرون تحت وطأة التعذيب بأنهم كانوا ينسقون أمورهم مع الشيخ، وقد يكون

---

[1] - بقايا ذكريات، للشيخ أحمد حسن الباقوري، ص: 205 و 237، وقد طرد الشيخ من الوزارة، بسبب وشاية كاذبة، ولم تشفع له الخدمات النادرة التي قدمها لعبد الناصر ونظام حكمه.

معظم هذه الوثائق مختلقاً ولا أصل له، والمقصود من ذلك تشويه سمعة الشيخ.
يتحدث الشيخ أحمد حسن الباقوري عن عدد من الشائعات التي روجها النظام ضده بعد طرده من الوزارة، ومن ذلك قوله:
"ولست أنسى ابني عبد العزيز عبد الوارث الدسوقي، الذي جاء في صباح اليوم التالي لاستقالتي مغيظاً محنقاً، ثم أخبرني أن من الاشاعات التي أطلقوها ضدي إشاعة غبية بقدر ماهي مضحكة، ووجه الإضحاك والغباء في هذه الشائعة أنني كنت في رحلاتي العالمية أحمل معي في حقيبة يدي عملات مختلف البلاد التي كنت أزورها، من فرنكات سنغالية، وأخرى فرنسية، وجنيهات استرلينية، وكانت هذه الحقيبة تأخذ مكانها في مكتبي بالوزارة مع مذكراتي ومقالاتي التي كنت أريد أن أحتفظ بها، وقد استولى القوم على هذا كله، ظانين أنه يحمل أسراراً تثبت أنني أدبر مؤامرة ضد عبد الناصر. وكان كل ما في تلك الحقيبة لا يجاوز ثلاثمائة جنيه في عملات مختلفة. فقالت الإشاعات: إن عبد الناصر صادر منذ أيام بنك موصيري، ولم يعلم أن بنك موصيري موجود في حقيبة الشيخ الباقوري"[1] .
وهكذا يعيش الشيخ بقية حياته في وضع يستحق الرثاء، فلا هو أرضى ربه، ولا هو أرضى السلطان، وهذه عاقبة من طلب رضى الناس بسخط الله.

تذكير بمنهج الاستدلال عند أهل السنة

طار حزب الولاة فرحاً بهذه الفتاوى الشاذة وبذلوا جهداً استنفد كافة إمكاناتهم من أجل استغلالها وترويجها بين عامة الناس، ومما فعلوه في هذا المجال: جمع هذه الأقوال والفتاوى وإصدارها في كتيبات على شكل متون، وتولوا هم (!!) شرح هذه المتون بأساليبهم المتعسفة المعوجة وبألفاظهم البذيئة الشائنة.
وبحجة شرح هذه المتون أطلقوا ألسنتهم في شتم وتجريح من نحسبهم من خيرة العلماء والدعاة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وما كان لهؤلاء من ذنب

---

[1] - بقايا ذكريات، الباقوري، ص: 248.

إلا قيامهم بواجب بيان الحكم الشرعي عندما دعت الحاجة إلى بيانه.
وبحجة شرحهم لهذه المتون قرروا أن العلماء الذين قالوا قولاً يرضاه السلطان الظالم المغيّر لشرع الله هم المرجعية المعتبرة لأهل السنة والجماعة في هذا العصر، ولا يجوز لأحد أن يتقدم عليهم بقول أو فعل... ومن تجرأ على ذلك فهو عندهم: مبتدع، متطرف، ضال، مضل، ويستعدون عليه ولاة الأمر دون النظر إلى ما عنده من أدلة شرعية، ودون النظر إلى ما في هذه الأدلة من صواب وخطأ، بل ولو أن أحداً من العلماء الكبار قال قولاً واحداً يغضب ولي أمرهم لأخرجوه من عضوية هذه المرجعية، وأطلقوا ألسنتهم بنهش عرضه، ويتناسون أنهم قبل أيام أو ساعات قلائل كانوا يعدونه من أولياء الله، ويتهمون كل من ينقده.
لا أريد الإطالة في وصف تناقضات حزب الولاة، وانتقالهم بسرعة فائقة من النقيض إلى ضده لأنني قد فصلت القول بأمرهم فيما مضى من هذا البحث، وإنما أريد الوقوف قليلاً عند مسألة المرجعية لأنني رأيت أن هذه المسألة قد التبست على بعض طلاب العلم الطيبين، فعندما تتحدث مع أحدهم، وتسرد له ما عندك من أدلة شرعية يستمع إليك حتى إذا فرغت من مسألة قد أشبعتها بحثاً ودراسة قال لك:
ولكن الشيخ ... [وهو من هو] قال بخلاف ذلك.
وتقول له: يا أخي أنت طالب علم، وأنا قد عرضت عليك أدلة شرعية من كتاب الله وسنة رسوله وأقوال العلماء أو إجماعهم، فكيف تعرض عن ذلك كله وتتمسك بقول للشيخ؟!.
فيكون رده: لا أعتقد أن الشيخ قد غابت عنه هذه الأدلة عندما أفتى بغير ذلك، ثم يغلق باب الحوار معك عند تمسكه بقول الشيخ.
آخرون من طلاب العلم يخشون من إرهاب غوغاء حزب الولاة لاسيما وهم يرون بأعينهم صلاتهم الوثيقة بأجهزة الأمن، ويرون أيضاً عاقبة من خالفهم وقال بغير قولهم، بسبب هذا وذاك يلجأ طلاب العلم هؤلاء إلى التقية فيقولون:

القول عندنا ما يقوله شيوخنا، ثم يذكرون أسماء هؤلاء الشيوخ التي لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة... وهذه هي المرجعية الإسلامية عندهم في العالم كله!!.
لهؤلاء الطيبين من طلاب العلم، أقول:
تعالوا أستعرض وإياكم ما تعلمناه من علمائنا وأئمتنا، والذي لا خلاف فيه بين أهل السنة والجماعة المتمسكين بمنهج السلف الصالح:
1 - مما اتفق عليه المسلمون أن ترد الأمور التي يختلفون فيها إلى كتاب الله وسنة نبيه. قال تعالى: {فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا}.
وقال ابن القيم رحمه الله في تعليق له على هذه الآية: "ولو لم يكن في كتاب الله وسنة رسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه، ولم يكن كافياً، لم يأمر بالرد إليه، إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع، إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع"[1] .
2 - يقع الخلاف بين المسلمين في طريقة فهمهم للكتاب والسنة لذا فقد نصت الآثار الصحيحة على وجوب اتباع السلف، وقد ثبت في السنن الحديث الذي صححه الترمذي، عن العرباض بن سارية، قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظةً بليغةً، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع؟ فماذا تعهد إلينا؟ فقال: "أوصيكم بالسمع والطاعة، فإن من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة"[2] .
وقال الإمام أحمد رحمه الله: "أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتداء بهم"[3] .
3 - قال ابن مسعود رضي الله عنه: "من كان منكم مُسْتَـنًّـاً فليستنن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه

---

[1] - إعلام الموقعين: 1/49.
[2] - صحيح، كما قال الترمذي، انظر "الإرواء" (2521) و "السنة" لابن أبي عاصم رقم 31/54 [عن حاشية شرح العقيدة الطحاوية 431].
[3] - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي رقم (317).

الفتنة، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، كانوا أفضل هذه الأمة، وأبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم"[1] .

4 - كان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب، وكان يستدل على ذلك بحديث نبوي، وكان بعض الصحابة يردون عليه بأقوال لأبي بكر وعمر، فقال لهم: "أقول لكم قال الله وقال الرسول، وتقولون: قال أبو بكر وقال عمر: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء"[2] .

5 - وقال الإمام الشافعي رحمه الله:

"أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد"[3] .

6 - قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

"من نصب شخصاً كائناً من كان فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل، فهو من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً" [4] .

فليتدبر إخواننا طلاب العلم هذه الأقوال، وليتقوا الله في دينهم، وليحذروا أن يكونوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، ولا فرق عندي بين موافقة الشيخ في كل ما يقوله ويفعله، وبين موافقة طلاب الشيخ لأنهم في مجموعهم يتبعون الشيخ، وقد تعجب الإمام أحمد رحمه الله من قوم عرفوا الإسناد وصحته ثم يذهبون إلى رأي سفيان، مع أن سفيان لا يقارن بأي عالم من العلماء المعاصرين الذين تتمسكون بآرائهم ثم لا تهتمون بعد ذلك بالأدلة التي تعرض أمامكم. قال الإمام أحمد رحمه الله: " عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، ويذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول:[فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب

---

[1] - جامع البيان، لابن عبد البر: 1/97، وشرح العقيدة الطحاوية [432].

[2] - قول ابن عباس في وجوب التمتع بالعمرة إلى الحج أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من المحدثين وكذلك قول الشافعي، انظر الحكم بغير ما أنزل الله 1/52.

[3] - المصدر السابق.

[4] - الفتاوى الكبرى: 2/239.

أليم] أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك. لعله إذا ردَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك"[1].
7- قال الطحاوي رحمه الله: " ونتبع السنة والجماعة ونتجنب الشذوذ والخلاف والفرقة "، وقال شارح الطحاوية: " والجماعة: جماعة المسلمين، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين. فاتباعهم هدى، وخلافهم ضلال "[2] . وقال سليمان التيمي: " لو أخذت برخصة كل عالم وزلة كل عالم اجتمع فيك الشر كله ".
يا إخواننا من طلاب العلم الذين ما زلنا نحسن الظن بهم:
لا أعتقد أن في هذا القول المختصر الذي عرضناه جديداً عليكم، ولا أعتقد أن هناك واحداً بينكم لم يسرد هذه الشواهد والأدلة في معرض رده على المقلدين المتعصبين الذين لا يرون حلالاً ولا حراماً إلا من خلال ما يقرره شيوخهم، فما بالكم غفر الله لنا ولكم وقعتم فيما وقعوا به؟!، ألأنكم وثقتم من منهج شيوخكم، وهذا أيضاً ما تأخذونه به على غيركم، فللشيخ مهما كان فاضلاً زلات، وأهواء، وسقطات ولا يجوز اتباعه فيها.
يا قوم: مما تحاججون به المقلدين المتعصبين أنه لا يجوز تقديم قول أبي بكر وعمر على قول الله ورسوله، وتحتجون أيضاً بقول ابن عباس الذي رواه عنه الإمام أحمد: " ليس منا أحد إلا يؤخذ من وقوله ويدع، غير النبي صلى الله عليه وسلم ".
أي ليس من الصحابة والتابعين ومن تبعهم من الأئمة الأعلام إلا يؤخذ من قوله ويدع، وهذا الذي ندع قوله يبقى عالماً فاضلاً مشهوداً له بالصلاح والصدق، ولكن لا نتبعه في زلته أو في اجتهاد قد أخطأ فيه.. فما الذي أصابكم حتى وضعتم شيوخكم في مرتبة دونها مرتبة أبي بكر وعمر وغيرهما من رجال الرعيل الأول[1] ؟!.
يا قوم: أعيدوا النظر بمواقفكم، ولا تزنوا الأقوال بقيمة قائليها في نفوسكم، وإنما بمقدار قربها من الصواب، وراجعوا ما نعرضه عليكم من أقوال في هذه المسألة التي اختلفنا فيها مع شيوخكم، وستعلمون

---

[1] - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، للشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، مكتبة دار البيان، ص:459
[2] شرح العقيدة الطحاوية، المكتب الإسلامي، ص: 430
[1] - كان ذلك عن تسرع منهم يخالف ما هم عليه من تمسك بمنهج أهل الحق.

حينئذ أن عندنا على ذلك أدلة من كتاب الله ومن سنة نبيه، ومن أقوال الصحابة، بل ومن إجماعهم في بعض الحالات، وعندنا شواهد من أقوال أئمة الإسلام وقد عرضنا نماذج منها فيما مضى من هذا البحث، كما أن عندنا شواهد من أقوال ومواقف شيوخ شيوخكم، ومن أقوال شيوخكم قبل أن يغيروا مواقفهم، واعلموا بعد ذلك كله أن هذا الذي نتبناه وندعو إليه ليس حالة شاذة لم نسبق إليها.
وأنتم يا دعاة حزب الولاة: لن تستطيعوا حجب الشمس الساطعة بغربالكم المهترئ، ولن تفلحوا في فرض أباطيلكم على الناس لأن للحق جنوداً لا يخشون تهديد سادتكم ولا وعيدهم، وقد عقدوا العزم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهما غلت التضحيات... وقد تنجحون بعض الوقت في إثارة الفتنة، ولكن الناس سيعرفون نفاقكم وينفضون عنكم.
تتحدثون أيها الانتهازيون المرتزقة عن مرجعية أهل السنة، ونجيبكم: نعم نحن نريد هذه المرجعية التي تضم كبار العلماء العاملين المجاهدين المستقلين الذين يمتثلون عقيدة أهل السنة والجماعة في كل موقف من المواقف، ولا يقبلون من طاغوت من الطواغيت أن يفرض أوامره وتعليماته عليهم... إننا نريد هذه المرجعية لتنقذنا من نفاقكم ومن هذه البلبلة التي تثيرونها، مرجعية تذكرنا بمواقف: أبي حنيفة، وابن حنبل، والنووي، وابن تيمية، وغيرهم من هذه الكوكبة الطاهرة الخيرة، وسوف أعود إلى الحديث عن هذه المرجعية في موضع آخر من هذا البحث إن شاء الله.
أما أنتم يا دعاة الحق ويا أمل هذه الأمة بعد الله سبحانه وتعالى، فللحديث معكم مذاق عذب، ونكهة خاصة لا يعرفها ولا يتذوقها الذين مردوا على النفاق، وتعلقوا بحطام هذه الدنيا الفانية.
يا إخواننا: إن قيل لكم أين علماؤكم؟!.
- فقولوا لهم: علماؤنا قابعون كالأسود في سجون الطغاة المبدلين لشريعة الرحمن ولسان حالهم يقول: إن السجن خلوة، ولن تستيطعوا أيها المستبدون التأثير على عقيدتنا وقلوبنا الطافحة بالأمل القريب إن شاء الله.

- وعلماؤنا الذين سلموا من السجن أو النفي مرابطون في مواقعهم، ويؤدون دورهم المطلوب بهمة عالية لا تعرف الكلل ولا الملل.
- وعلماؤنا أيضاً هم بعض العلماء الذين صدرت منهم فتاوى شاذة مستغربة إلا أننا لا نقلدهم ولا نتبعهم في زلاتهم، وفي غير هذه الزلات نحترمهم ونقدرهم ونعترف بفضلهم، وقد تعلمنا من سلفنا الصالح أن لا نحكم على علماء الأمة من خلال خطأ وقعوا به ثم نتجاهل فضلهم وعلمهم، ولهؤلاء العلماء الكبار زملاء صامتون لا يصرحون بمواقفهم إلا إذا اطمأنوا لجلسائهم، ومنهم من توفاهم الله وهم على هذه المواقف الطيبة التي قد سمعها منهم عشرات الأشخاص، ولولا الإحراج لذكرنا الأسماء.
- علماؤنا - أيها المرجفون - قد رزقهم الله سبحانه وتعالى القدرة على فهم مشكلات الأمة الإسلامية، كما رزقهم الاستقامة والبعد عن مواطن الشبهات، ولهم جهود مشكورة في بيان الدواء الشافي لعلل أمتنا، ومهما فعل الظالمون لن يستطيعوا حجب الشمس عن الشروق.
يا دعاة الحق: لا تيأسوا من نصر الله تعالى، واعلموا بأن الطغاة إذا أغلقوا باباً واحداً في وجوهنا فتح الله لنا أبواباً، وكلما ازداد عدونا شراسة وحقداً واستبداداً يجب أن تتضاعف وسائلنا وتتعدد، وسيبقى كيد الشيطان وحزبه ضعيفاً وهزيلاً أمام كيد الله جل وعلا ثم أمام حسن تخطيط وتنظيم جند الله.

نصيحة

وأختم هذا البحث بالنصيحة التالية:
إن هذه الحياة الدنيا لا تساوي عند الله سبحانه وتعالى جناح بعوضة، لأنها متاع زائل لا محالة مهما طال أجل المرء، وعلا شأنه، وكثر ماله، وعندما تبلغ الروح الحلقوم تتراءى الأعمال أمام ناظري المتوفى فيتمنى أن يخرج من هذه الدنيا لا له ولا عليه. قال الله جلَّ وعلا على لسان مؤمن آل فرعون الذي كان يعظ قومه ويحذرهم من سوء العاقبة:

{يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع، وإن الآخرة هي دار القرار، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب} [غافر: 39 - 40].
إن هؤلاء العلماء المتأخرين الذين نعنيهم في هذا البحث: يشرحون هذه الآية ومثيلاتها في دروسهم ومواعظهم وخطبهم شرحاً وافياً، ويستخرجون منها العبر والعظات، ويستدلون بأمثلة من أحوال الأمم الغابرة، فكيف بالله لا يتعظون بما يقولون:
{يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون}.
إن الصغير فيهم قد أصبح على مشارف الستين، ومن بلغ هذا السن فقد صار مثل الزرع في أوان حصاده، قال ابن المبارك:

يا طـــالب العلم بادر الورعا وهاجر النوم واهجر الشبعا
يا أيهـا النـاس أنتم عشـــب يحصـــده الموت كلما طلعا
لا يحصد المـــــــرء عند فاقته إلا الذي في حياته زرعـــــا[1]

ومن لم يتعظ وهو في الستين أو السبعين من عمره لا تنفعه المواعظ... فهلا سألوا أنفسهم ماذا تنفعهم هذه المناصب الرفيعة والألقاب الفضفاضة يوم الحشر والندامة؟!.
وهلا فكروا بأمر هذه الملايين التي جمعوها... هل جاءت عن طريق مشروع؟!، وهل سينفقها ورثتهم من بعدهم بطرق مشروعة لا سيما وأن الله سبحانه وتعالى قد ابتلى كثيراً من العلماء بأبنائهم؟!.
وهلا حاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا على فتاويهم التي أفتوا بها، والتي كانت تتعارض مع أقوال لهم قد سبقتها... وهل تتحمل أعناقهم إثم الخلائق التي قد ضلت بسبب اقتدائها بهم وتقليدها لهم؟!.
قال أحد الصالحين:
"وإنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك به! ولرأيت بيتاً تجول فيه

---

[1] - جامع بيان العلم وفضله، لابن عبر البر: 1/193.

الهوام، ويجري فيه الصديد، وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلى الأكفان".
تحدث ابن كثير رحمه الله عن علماء عصره حديث العالم الرباني العارف، فقال عن أهل الصلاح والورع والتقوى منهم:
- أحداثُ سنةِ ثمان عشرة وسبعمائة: وممن توفي فيها من الأعيان بقية السلف وقدوة الخلف أبو عبد الله محمد بن عمر البالسي... ولم يكن للشيخ محمد مرتب على الدولة ولا غيرهم، ولا لزاويته مرتب ولا وقف، وقد عرض عليه ذلك غير مرة فلم يقبل.
- أحداث سنة تسع عشرة وسبعمائة: وممن توفي فيها من الأعيان الشيخ الإمام تاج الدين عبد الرحمن التبريزي الشافعي المعروف بالأفضلي، وكان ينكر على رشيد الدولة ويحط عليه...، وكان رشيد الدولة يريد أن يترضاه، فلم يقبل، وكان لا يقبل من أحد شيئاً.
بل كان ابن كثير يعتبر قبول الولايات في أنظمة ظالمة من الدنس الذي ينبغي أن يحذره العلماء الصالحون منه ويناون بأنفسهم وأموالهم عنه، قال رحمه الله:
- أحداث سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة: وممن توفي فيها من الأعيان شمس الدين أبو نصر الشيرازي، وكان شيخاً حسناً خيراً مباركاً متواضعاً، ولم يتدنس بشيء من الولايات، ولا تدنس بشيء من وظائف المدارس ولا الشهادات، إلى أن توفي في يوم عرفة ببستانه من المزة، وصلي عليه بجامعها ودفن بتربتها رحمه الله.
- أحداث سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة: وممن توفي فيها من الأعيان قاضي القضاة نجم الدين بن صصرى، ومع القضاء أضيفت إليه مشيخة الشيوخ مع تدريس العادلية والغزالية والأتابكية، وكلها مناصب دنيوية انسلخ منها وانسلخت منه، ومضى عنها وتركها لغيره، وأكبر أمنيته بعد وفاته أنه لم يكن تولاها، وهي متاع قليل من حبيب مفارق، وقد كان رئيساً محتشماً وقوراً كريماً جميل الأخلاق[1] .
ومن عدل وإنصاف ابن كثير أنه ذكر الصفات الحسنة التي كان يمتاز قاضي القضاة نجم الدين بن صصرى مع الإشارة إلى الوظائف الرفيعة التي انسلخ منها

[1] - فليراجع من شاء البداية والنهاية، الجزء الرابع عشر، ومما يقتضي التنبيه في هذا المقام أن عصر ابن كثير غير عصرنا، ولا يستوي في التشبيه سلطان ظالم ولكنه يحكم شرع الله، وآخر اتخذ من نفسه نداً لله.

وانسلخت منه. ومع أنه كان ينقد الذين تولوا هذه الوظائف بشكل عام فقد كان يتجنب التصريح ويكتفي بالتلميح، اللهم إلا إذا كان المتوفى الذي يؤرخ له مبتدعاً نشيطاً في الدعوة لبدعته، مؤمناً بوجوب نشرها والذود عنها، أو منافقاً زنديقاً.

إن هذا الذي قاله ابن كثير ومن سبقه أو تلاه من علماء السلف مؤيد بقوله تعالت أسماؤه وصفاته: {تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين}.

ومؤيد بقوله صلى الله عليه وسلم: "ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه"[1] .

ويقول وهب بن منبه في شرح هذا الحديث: "إن جمع المال وغشيان السلطان لا يبقيان من حسنات المرء إلا كما يبقي ذئبان جائعان ضاريان سقطا في حظار فيه غنم فباتا يجوسان حتى أصبحا"[2]

---

[1] - أخرجه أحمد والنسائي والترمذي وابن حبان في صحيحه.

[2] - جامع بيان العلم وفضله: 1/167.

نحو كيان جديد (الحلقة 32)
الحوار بين أهل السنة

السلفية بين الولاة والغلاة

محمد سرور زين العابدين

قيل لي: كُنتَ مسترسلاً في نقدك لمنهج حزب الغلاة، ولطريقة تعاملهم مع مخالفيهم، ثم وجدناك تنتقل فجأة - ومن غير مقدمات - إلى موضوع آخر يختلف عما كنت في صدده، بل رحت وربما كان ذلك عن غير قصد تقدم أدلة سوف يكون الغلاة أول من يستفيد منها في الدفاع عن أنفسهم، وفي تبرير وجود حزبهم، وفي الرد بها عليك، ألا تظن أن هذا الاستطراد أقحم إقحاماً في بحثك؟!.
قلت: هذا الذي سميته أنت استطراداً لم يقحم إقحاماً في بحثي، وكنت قد كتبته قبل حوالي سبعة عشر عاماً، ثم أطـْلَعتُ عليه غير واحد من أهل العلم والفضل واستفدت من ملحوظاتهم، وعندما جاء دور نشره رأيت أن ذلك غير ممكن إلا إذا كان المؤلف اسماً وهمياً، ومثل هذه الموضوعات المهمة لن تُعطي حقها من العناية والاهتمام إلا إذا ذُيلت بأسماء معروفة في أوساط الدعاة، ولا بد أن يكون الكاتب مستعداً لكل ما يترتب على ما يكتبه من تبعات وأعباء، ولما كان ذلك غير متيسر حينئذٍ، فقد وضعت هذا البحث في خزانة المحفوظات بمكتبتي، التي أحافظ عليها كما أحافظ على سلامة ابن من أبنائي، ولا أهتم بغيرها من أثاث المنزل عندما ننتقل من بيت إلى بيت آخر أو من بلد إلى بلد آخر.
وبينما كنت مستغرقاً - كما قال السائل - بنقد منهج حزب الغلاة رأيت أن علماء السلف قد أشبعوا موضوع الخروج على أئمة الجور بحثاً في حين يتهيب معظم الفضلاء من علماء عصرنا من بيان الحكم الشرعي في الحكام المبدلين لشريعة الله، أما غير الفضلاء من المنسوبين إلى العلم وأهله فلم يعد نفاقهم وتزلفهم للطواغيت يحتمل، وهنا فقد رأيت أن الواجب الشرعي يحتم عليَّ أن أساهم في سد هذه الثغرة، ولهذا فقد

أخرجت هذا البحث من خزانة المحفوظات، ثم نفضت الغبار عنه، وقرأته غير مرة، ثم قمت باختصاره لأنني كنت أرى من قبل إخراجه في كتاب مستقل، ومع الاختصار كان لابد من تهذيب عباراته لأن للسن دوراً في اختيار الكلمات الهادفة المفيدة، واستبعاد كل ما لا فائدة أكيدة فيه، وجملة القول: لم يكن هذا البحث وليد الارتجال، وقد جاء والحمد لله في موضعه المناسب.
أما قول القائل: إنك قدمت أدلة سوف يكون الغلاة أول من يستفيد منها...الخ، فمعاذ الله أن أحجب ما أعتقد أنه حق فيما أكتب كي لا تستفيد منه الجهة التي أخالفها، ولا أقبل إن شاء الله أن يكون هدفي مما أكتب إفحام الخصم والإجهاز عليه بشتى الوسائل والطرق المشروعة منها وغير المشروعة.
وإن الحق الذي أدين الله به أن انحراف كثير من أدعياء العلم وتقديمهم الفتاوى الباطلة للظالمين مقابل حصولهم على عرض من أعراض الدنيا الفانية هو سبب من أسباب انحراف دعاة الغلو، وعندما يجد هؤلاء المرجعية الصادقة المستقلة من العلماء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر فلسوف يتراجعون [أو يتراجع معظمهم] عن تنطعهم وغلوهم، وهذا ما نرجوه ونأمله ونعمل من أجله.
أعود بعد ذلك إلى الفقرة التي سبقت هذا الاستطراد فأقول:
"إن رايات الكفر البواح في عالمنا الإسلامي الكبير ترفرف خفاقة عالية فوق مباني البنوك الربوية التي يكاد لا يخلو منها حي أو قرية، وفوق مباني المؤسسات التشريعية والقضائية التي لا يسمح فيها لمن يشاء من القضاة أن يساوي بين شريعة الله والشريعة التي سنّها زعيم الدولة فضلاً عن تفضيله لشريعة الله، وترفرف رايات الكفر البواح أيضاً فوق مباني التلفاز ودور السينما وأوكار الرذيلة، وفوق مصانع ومحلات بيع الخمور، وليست المشكلة هنا فيمن يشرب الخمر أو يرتاد دور السينما ويشاهد مناظر العرايا من النساء والرجال، ولكن المشكلة فيمن سنّ القوانين التي تبيح هذه المنكرات، وأعيد للأذهان قول رشيد رضا الذي استشهدت به قبل قليل وخلاصته:

من المسائل المجمع عليها قولاً واعتقاداً: إن إباحة المجمع على تحريمه: كالزنا والسكر، واستباحة إبطال الحدود وشرع ما لم يأذن به الله كفر وردة"[1] .
لا نستطيع أن نقف صماً بكماً أمام هذه المسألة الخطيرة لأن الله سبحانه وتعالى قد أوجب علينا إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها، وحرّم علينا السكوت، فقال جل من قائل: {وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه}.
والحاجة هنا ملحة لبيان متى تجب طاعة الحاكم ومناصرته، ومتى يجب خلعه والخروج عليه؟! وليس الأمر متروكاً لنا لنجتهد فنصيب أو نخطئ فيه لأنه لا اجتهاد في موضع النص، فعندما تحدث علماؤنا عن الإمام في كتب السياسات الشرعية وغيرها اشترطوا أن تتوفر فيه الصفات التالية:
1 - أن يكون ذكراً، وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماماً.
2 - أن يكون بالغاً عاقلاً، ولا خلاف في ذلك، ولا تنعقد إمامة ذاهب العقل بجنون أو غيره، كما أنه لا تنعقد إمامة الصبي.
3 - الحرية: فلا إمامة لرقيق لأن أموره تصدر عن رأي غيره.
4 - أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضياً من قضاة المسلمين مجتهداً لا يحتاج إلى غيره في الاستفتاء في الحوادث؛ وهذا متفق عليه.
5 - الإسلام: فلا تنعقد إمامة الكافر على أي أنواع الكفر أصلياً كان أو مرتداً، لأن المقصود من الإمام مراعاة أمور المسلمين والقيام بنصرة الدين، ومن لا يكون مسلماً لا يراعي مصلحة الإسلام والمسلمين[1] .
وإذا توفرت هذه الشروط الآنفة الذكر في ا لحاكم، أصبح ملزماً بما يلي:
1 - حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة.
2 - حماية بيضة الإسلام والذب عن الحوزة ليتصرف الناس في المعاش وينتشروا في الأسفار آمنين.
3 - إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك.

---

[1] - سبق لي تقرير هذه الفقرة فيما سبق من هذا البحث، وجدير بالذكر أن كثيراً من العلماء قالوا بمثل ما قاله رشيد رضا.
[1] - اكتفيت بذكر أهم هذه الشروط.

4 - تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، حتى تظهر النصفة، فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم.
5 - تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة.
6 - جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة.
7 - جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصاً واجتهاداً من غير عسف.
8 - تقدير العطاء وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقصير فيه.
9 - اختيار الأمناء والأكفاء وتقليد الولايات للثقات النصحاء لتنضبط الأعمال وتحفظ الأموال.
10 - مشارفة الأمور العامة بنفسه، غير معتمد على ولاته وعماله.
إن صلاحية الحاكم للمنصب الذي أسند إليه مرتبطة بتنفيذه للشروط والالتزامات التي تضمنها عقد البيعة، ونصه كما يلي:
"بايعناك على بيعة رضى، على إقامة العدل والإنصاف، والقيام بفروض الإمامة".
فإذا أخلّ بفروض الإمامة عن عمد وإصرار منه أو أصبح غير قادر وجب على المسلمين خلعه، والخلع أنواع نذكر منها ما يلي:
1 - أن يخلع الإمام نفسه من الخلافة لعجز من القيام بأمور الناس، من هرم أو مرض ونحوهما.
2 - زوال العقل، فينعزل بالجنون المطبق، وهو الدائم الذي لا ينفك.
3 - ذهاب الحواس المؤثرة في الرأي أو العمل، كالعمى، والخرس، والصمم.
4 - بطلان تصرف الإمام للاستيلاء عليه وحجره، ويدخل تحت ذلك صور:
منها أن يأسر الكفار الإمام ويقع اليأس بذلك من خلاصه من أيديهم.
ومنها أن يأسره أهل البغي، أو تكون الإمامة قد ثبتت له بالقهر والاستيلاء فيجيء آخر ويقهره ويستولي على الأمر، فينعزل الأول ويصير الإمام هو الثاني.
5 - لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداء، فإن أحدث جوراً بعد أن كان عدلاً اختلف علماؤنا في مسالة ا لخروج عليه.

6 - "انعقد إجماع الأمة على أنه لا تصح ولاية الكافر على المسلمين، وإذا طرأ عليه كفر أو تغيير للشرع سقطت ولايته، ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه"[2] .
إنني أعلم أنني عندما نقلت من كتب التراث هذه الفقرات عن فرائض الإمامة وغيرها لم أقدم لطلاب العلم جديداً، ولكنني أردت تذكيرهم جميعاً بأن الذين يطرحون هذه المسألة الخطيرة للبحث ليسوا هواة سياسة، ولا يتطلعون من وراء ذلك إلى أطماع ومصالح دنيوية كما يقول عنهم خصومهم، وإنما يتعبدون ربهم في أمر ديني قبل أن يكون دنيوياً، وكل شرط أو فرض من فروض الإمامة عليه أدلة من كتاب الله جل وعلا، ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم من أقوال أئمة الإسلام، بل ومن إجماعهم في كثير من ذلك.
وكثيراً ما نسمع أن أولي النهي والسلطان يكرهون طرح هذه الموضوعات على بساط البحث والدراسة، وقد تجاوزوا التلويح بالتهديد إلى التصريح به، وقام شيوخهم بالدور المطلوب منهم جنباً إلى جنب مع رجال الأمن في تشويه سمعة الدعاة الذين يخالفون هذه التعليمات وتهيئة الأجواء الإعلامية المناسبة لقبول الناس مبدأ فرض العقوبة الزاجرة عليهم كالسجن وغيره.
ليفعلوا كل ما يقدرون عليه من ظلم وتعسف، مما لا يجهله أحد فلن نقبل أن يحدد لنا حاكم من الحكام: كيف نعبد الله وحده لاشريك له، وما هو المسموح في ذلك والممنوع؟!، فكما أننا نتعبد الله تعالت أسماؤه وصفاته بالصلاة والصيام والزكاة والحج، فإننا نتعبده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، والعمل من أجل أن يكون الدين كله لله. ومن هذا المنطلق جاء طرحنا لفرائض الإمامة، ليعلم المسلمون جميعاً أن طريقة اختيار الحكام اليوم تختلف جملة وتفصيلاً عن الطريقة الشرعية، فليس هناك شيء اسمه أهل الحل والعقد، وبالتالي ليس هناك أية حاجة لبحث الشروط التي يجب أن تتوفر في أهل الحل والعقد، وليس هناك شيء أيضاً اسمه البيعة.

---

[2] - مآثر الإنافة في معالم الخلافة، للقلقشندي، والأحكام السلطانية للماوردي، والأحكام السلطانية لأبي يعلى محمد بن الحسين الفراء، والقرطبي في تفسيره لقوله تعالى: إني جاعلك في الأرض خليفة ....

أما الحاكم فلا يلزمه أحد بحفظ الدين، وحماية بيضة الإسلام، وإقامة الحدود، وتنفيذ الأحكام، وتحصين الثغور، وجهاد من عاند الإسلام، وجباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع، أجل لا يلزمه أحد بذلك ولا بغيره، ولم يلزم نفسه، والمسألة كلها غير مطروحة وغير قابلة للبحث.

وفي غياب أهل الحل والعقد، ومشاركتهم الفعالة في شؤون الحكم، وفي اختيار الحاكم وخلعه إذا أخلّ بفروض الإمامة، يبرز استبداد الحاكم وبطشه وطغيانه، ويصبح الحديث عن خلعه لنفسه نوعاً من افتراض المستحيل.

ولنفترض أنه أصيب بالجنون المطبق، فمن يقنعه بذلك؟، إن معظم المجانين يرمون الناس جميعاً بهذا المرض في حين يعتقدون بأنهم أسوياء أصحاء، والحاشية سوف تزعم أن عبقرية الزعيم تفتقت عن إشراقات جديدة لم يستطع الشعب استيعابها من فرط جهله وغبائه وتخلفه، بل ومن المؤسف أن الجنون قد أصبح عند بعضهم وكأنه لازم من لوازم الحكم.

أما إذا أصبح الحاكم غير قادر على القيام بأعباء الحكم بسبب مرض مزمن أو غيره، فتراه يكلف بعض أقربائه - أو أعوانه من غير أقربائه -، ويعبث هؤلاء بشؤون الحكم كما يشاءون، ثم تصدر جميع هذه الإجراءات باسم الزعيم الذي لا حول له ولا قوة، ومثله بين أيديهم كسجين مرفه، ومن وسائل الترفيه - عفواً التضليل - عرض صورته عن بعد وهو يرأس اجتماعاً من الاجتماعات الرسمية المعهودة حتى يعلم الناس أنه لا يزال حياً يرزق.

إن الطريقة الوحيدة لعزل الحاكم اليوم هي "الانقلاب" سواء قام به الجيش أو بعض أفراد الأسرة الحاكمة كإخوان الزعيم أو أبنائه، وفي الحالين لابد أن يتزعم الانقلاب ناس من بطانة الحاكم الذين كانوا قبل قيامهم بهذه الحركة موضع ثقته وأمناء سره، وجدير بالذكر أن هذه الانقلابات أصبحت نادرة في العقود القليلة الماضية بسبب زيادة أنشطة أجهزة المخابرات، وأخذ الناس بالشك وغير ذلك من أسباب لا أحسبها خافية على الذين يرصدون هذه الظاهرة.

خلاصة القول: إن الأنظمة المعاصرة في ديار المسلمين علمانية في دساتيرها وقوانينها ومراسيمها الإدارية وسائر شؤون الحكم فيها، وسدنتها لا ينكرون ذلك في تصريحاتهم ومواقفهم التي لا تنقطع: كقولهم: لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة، ومنعهم منح ترخيص للأحزاب على أساس ديني وغير ذلك.
فإذا قيل: هذه المساجد المزدحمة بالمصلين تشهد على بطلان قولكم.
قلنا: بل قولكم هذا فيه جهل عظيم لأن العلمانية تعني أن لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين، والشطر الثاني من هذه المقولة يعني أنه لا يحق لأهل السياسة أن يتدخلوا بشؤون المؤسسات الدينية، وللقائمين على هذه المؤسسات حق اختيار الخطباء والوعاظ فيها، ووضع البرامج التعليمية، وإنشاء دور جديدة للعبادة عند الحاجة إليها، وجمع التبرعات، ورعاية الأوقاف التي تحقق لهذه المؤسسات كل تقدم وازدهار.
لو التزم الحكام في بلادنا بالنظام العلماني التزاماً صحيحاً لسلمت لنا أوقافنا التي تعد مفخرة من مفاخر تاريخنا الإسلامي... ومن ريع هذه الأوقاف كانت: تبنى البيوت للفقراء الذين لا يجدون ما يشترون أو يستأجرون بيتاً، وتحفر الآبار، وتبنى المدارس والمستشفيات والمكتبات، وتنسخ الكتب، وغير ذلك من الأعمال الخيرية التي يستفيد الناس منها.
هذه الأوقاف التي لا تكاد تخلو منها مدينة ولا حي أو قرية، اغتصبها - ظلماً وعدواناً - الحكام العلمانيون في بلادنا خلال العقود الخمسة الماضية، وحرموا المستفيدين منها، ثم زعموا أنهم فعلوا هذا وغيره إنصافاً للفقراء والمحتاجين، ولا أدري كيف ينصفون هذا الفقير وهم الذين يمنعون عنه الطعام الذي كان يقدم له، والمأوى الذي كان يأوي إليه، والمدرسة التي كان يتعلم فيها؟!.
ولو التزم الحكام في بلادنا بالنظام العلماني التزاماً صحيحاً لكنا أحراراً في مساجدنا ندعو فيها إلى الله على بصيرة، ولا نسمح لظالم جاهل أن يفرض علينا برامج ما أنزل الله بها من سلطان، وخطباء لا يتقنون إلا فنون النفاق والمداهنة والتجسس.

لكن الحكام في بلادنا طبقوا العلمانية تطبيقاً مشوهاً ومخالفاً لما هو عليه الحال في الدول الأوربية وبشكل خاص في الشطر الثاني من المقولة الآنفة الذكر: "لا سياسة في الدين" فأدخلوا سياستهم الخبيثة إلى مساجدنا ومعاهدنا الشرعية، واستأثروا بكل شيء، ومنعونا من ممارسة أبسط الحقوق التي يتمتع بها المواطن في الدول الملتزمة بالنظام العلماني.
وإذا قيل: أنتم تبدأون بمثل هذه المقدمات لتنتهوا إلى القول بتكفير الحكام.
قلنا: المسألة ذات شقين: الشق الأول: ما هو الموقف من هذه الأنظمة: كدساتير، وقوانين، وأحكام، هل هي إسلامية أو علمانية؟!. والشق الثاني: ما هو الموقف من الحكام الذين يضعون هذه الدساتير والقوانين؟!.
والقفز على الشق الأول من هذه المسالة ظلم وهروب من أصل النزاع، كما أن الذين يتسرعون ويدخلون في نقاش حول إسقاط حكم الردة على الحكام لا ينتبهون إلى الاستدراج الذي أوقعهم المخالفون فيه!!.
ليس للدعاة الذين يطرحون هذه المسألة موقف شخصي من الحكام، وليست المسألة صراعاً سياسياً حول كرسي الحكم والاستئثار به كما يصورها أصحاب الأهواء، أو كما يدعيه الحكام وأجهزة إعلامهم وأمنهم.
وإذا أراد المخالفون امتحان الدعاة فليطلبوا من سادتهم الحكام التوبة إلى الله، والعودة بالناس إلى تحكيم شريعة الله الواحد القهار، ونبذ الشرائع الجاهلية التي ابتدعوها، ولو استجاب الحكام إلى هذا الطلب لوجدوا الدعاة إلى الله خير بطانة لهم، وأشجع من يدافع عنهم ويفديهم بأرواحهم.
إذن المسألة التي يجب أن يدور حولها النقاش: ما هو الموقف من هذه الأنظمة: كدساتير، وقوانين، وأحكام، هل هي إسلامية أو علمانية؟!.
وليأذن لنا المخالفون في طرح الأسئلة التالية عليهم:
- يقول الحق جل وعلا: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً}، فهل يُحكّمُ شرع الله بيننا في محاكمنا وسائر أمور حياتنا؟!.
ويقول صلى الله عليه وسلم: "اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام

فيكم كتاب الله"، فهل أقام الحكام - اليوم - فينا كتاب الله؟!.
- أمرنا صلى الله عليه وسلم [كما جاء في حديث عبادة بن الصامت][1] أن لا ننازع الأمر أهله إلا أن نرى كفراً بواحاً. أولسنا نرى اليوم كفراً بواحاً عندنا من الله فيه برهان؟!.
رغم وضوح هذه الأسئلة سوف نجد بعض المخالفين يراوغون، ويفرون من الإجابة عليها ذات اليمن وذات الشمال، ويتمسكون بأقوال أوهى من بيت العنكبوت؛ كقولهم: كيف تكفرون من يقول لا إله إلا الله... وكيف تعمدون إلى تهييج الناس ضد ولاة الأمر، وتعيدون سيرة الخوارج وصنيعهم؟!.
وهؤلاء لا ينبغي إضاعة الوقت في مناقشتهم لأنهم لا يريدون اتخاذ موقف يغضب سادتهم، ويفوّت عليهم بعض المصالح التي يلهثون وراءها.
أما البعض الآخر فلسوف يوافقوننا على كثير مما نقوله إذا كان يتعلق بالشق الأول من السؤال، وسيلمس كل من يتحدث إليهم في هذه المسألة حسن إصغائهم وصدق لهجتهم.. وهؤلاء هم الذين يجدي معهم الحوار، ولابد أن نلخص إطار الحوار بما يلي:
إن الفرقة عذاب والخلاف شر لا يستفيد منه إلا عدونا الذي استباح بيضتنا، وعطّل حكم الله تعالى فينا، وجعلنا شيعاً وأحزاباً، ولهذا فهو يعمل دائماً على إذكاء نار البغضاء والشحناء بيننا... فقولوا لنا بالله عليكم كيف نوحد صفنا، ونتخذ مواقف جادة من أهم قضايا عصرنا التي تمس عقيدة الأمة وكيانها... قولوا لنا كيف نتجنب الغلو والتنطع في مواقفنا كما نتجنب الميوعة والتسيب وأرباع الحلول بل وأقل من ذلك، كيف يسكت بعضنا عمن بدّل شريعة الله ووالى أعداءه، ويريشون سهام غضبهم إلى الذين ينكرون هذا المنكر ويعملون طاقتهم على تغييره؟!.
أليس من الواجب علينا التعاون فيما بيننا من أجل وضع حد لهذه الفوضى العارمة التي اجتاحتنا وجعلتنا أضحوكة بين الأمم؟!

---

[1] - سبق تخريج وشرح حديث عبادة بن الصامت والحديث الذي قبله.

نحو كيان جديد (الحلقة 33)
الحوار بين أهل السنة

السلفية بين الولاة والغلاة

محمد سرور زين العابدين

الاستطاعة
1 - 4
مما يعتقده الغلاة أن جهاد الحكام المرتدين وأعوانـهم فرض عين على كل مسلم من غير ذوي الأعذار الشرعية، وأن اشتغال المسلمين بأي أمر سوى الجهاد في سبيل الله، في هذا الزمان - كما تفعله كثير من الجماعات الإسلامية - هو خيانة لله ولرسوله، وخيانة لهذا الدين وتضييع له، وأن المعطلين لجهاد الطواغيت الحكام تحت أي دعوى جاهلون، يقولون على الله مالا يعلمون.
ويعتقدون أيضاً أن قتال العدو القريب أولى من قتال العدو البعيد، لأن أساس وجود الاستعمار في بلاد الإسلام هم هؤلاء الحكام، فالبدء بالقضاء على الاستعمار هو عمل غير مجدٍ وغير مفيد وما هو إلا مضيعة للوقت، فعلينا أن نركز على قضيتنا الإسلامية وهي إقامة شرع الله أولاً في بلادنا وجعل كلمة الله هي العليا، فلاشك أن ميدان الجهاد الأول هو اقتلاع تلك

القيادات الكافرة واستبدالها بالنظام الإسلامي الكامل، ومن هنا تكون الانطلاقة.
ويردون على مخالفيهم الذين يشترطون الاستطاعة في الخروج فيقولون:
إن الذين سيقيمون الدولة الإسلامية هم القلة المؤمنة، وإن الذين يستقيمون على أمر الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم هم دائماً قلةً، بدليل قوله تعالى: وقليل من عبادي الشكور، وقوله: وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله [الأنعام: 116]، وتلك سنة الله في أرضه، فمن أين سنأتي بالكثرة المأمولة؟ والله يقول: وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين.
والإسلام لا ينتصر بالكثرة فالله سبحانه وتعالى يقول: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله [البقرة: 249].. ثم كيف تنجح الدعوة هذا النجاح العريض وكل الوسائل الإعلامية الآن تحت سيطرة الكفرة والفسقة وسائر المحاربين لدين الله؟.. فالسعي المفيد حقاً هو من أجل تحرير هذه الأجهزة من أيدي هؤلاء.
بعضهم يذكر في عرض حديثه الاستطاعة كشرط للخروج، ولكنه يضيف: إن أهل الاختصاص في ميدان الجهاد هم الذين يقدرون العدة والعدد اللازمين للخروج، ولما كانوا هم أصحاب الاختصاص فلا ينبغي لغيرهم الخوض فيما لا يعلم[1]. وبالتالي يصبح ذكرهم للاستطاعة وسيلة لإسكات المخالف. لأنه عندما يحاججهم بـها سيقولون له: أنت لا تعرف الحد الأدنى للاستطاعة، ونحن – أهل الاختصاص والمعرفة – قد أعددنا لهذا الأمر عدته، وواقع حالهم لا يدل على ذلك.
ومن جهة أخرى يعودون إلى القول: إن قتال الواحد والعشرة والأربعين جهاد شرعي ليس فيه أدنى شبهة!!، وقد يكون الأمر كذلك في بعض الحالات. ولكن قولهم هذا شيء، والاستطاعة شيء آخر، ولا علاقة لهذا بذاك.
نعود إلى قولهم: "إن جهاد الحكام المرتدين وأعوانـهم فرض عين على كل مسلم". وإذا كان تحديد الحكام واضحاً عندهم، إلا أنـهم يختلفون في تحديد من هم أعوان الحكام وحاشيتهم، فبعضهم يرى أن الوزراء

---

[1] - ليتهم يطبقون هذه القاعدة على أنفسهم، وهم الذين يرون من حقهم الخوض في أدق مسائل الفقه والاعتقاد والإفتاء بـها مع أنـهم ليسوا من أهل العلم والاختصاص في هذا الميدان.

ووكلاء الوزارات وضباط الجيش، وعموم رجال الأمن والمخابرات مرتدون، وشأنـهم كشأن حاكمهم المرتد، وبعضهم يبدأون كإخوانـهم بداية متواضعة، ثم تتطور الأمور في ظل ظروف نفسية شاقة تحيط بـهم، أو في ظل اختراق خارجي للقيادة - وما أكثر مثل هذه الاختراقات - فيسري حد الردة عندهم على جميع الناس، لا يستثنون من ذلك إلا جماعتهم، ويسقط هذا الاستثناء مع مرور الزمن. وكثرة الشكوك، فيكثر القتل بينهم، وينتشر الرعب، ويصبح كل فرد منهم خائفاً يترقب القتل من جماعته أو من النظام الحاكم، وأقرب مثال على ذلك الجماعة المسلحة في الجزائر.
وفي ردهم على مخالفيهم من العلماء والدعاة يطلقون ألفاظاً وأوصافاً لا يليق بالمجاهدين التلفظ بـها. ومن ذلك قولهم:
- يقول صاحب العمدة: "كما أننا نرى أن شغل المسلمين بأي أمر سوى الجهاد في سبيل الله - في هذا الزمان - كما تفعله كثير من الجماعات الإسلامية، هو خيانة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وخيانة لهذا الدين وتضييع له، قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون[الأنفال: 27].
ويقول أيضاً: "إن أي جهد يبذل في غير سبيل الجهاد هو جهد ضائع، وإن أي مال ينفق في غير هذا السبيل هو مال ضائع، ويجب حشد الجهود والأموال لدفع عجلة الجهاد الذي تعيّن كطريق شرعي للخلاص في هذا الزمان" [2] .
ويقول محمد عبد السلام فرج رحمه الله في صدد رده على الذين ينادون بتكوين قاعدة عريضة:
"والذي يتشدق بـهذا الكلام فهو إنما يتهم الإسلام بالنقص والعجز دون أن يشعر".
وفي رده على الذين يعملون في ميدان الدعوة والتربية والاجتهاد في العبادة:
"والحق أقول: من يتكلم بـهذه الفلسفات إما إنه لا يفهم الإسلام، أو هو جبان لا يريد أن يقف بصلابة مع حكم الله".

---

[2] - العمدة في إعداد العدة للجهاد في سبيل الله تعالى، تأليف عبد القادر بن عبد العزيز، الطبعة الثانية، ص:449.

ويقول أيضاً:
"ولسنا مطالبين بالنتائج، والذي يتشدق بـهذا القول الذي لا فائدة من ورائه إلا تثبيط المسلمين عن تأدية واجبهم الشرعي بإقامة شرع الله" [3] .

تحرير الخلاف: الخروج على الحاكم إذا طرأ عليه كفر أو تغيير للشرع، هو أحد الطرق الشرعية للتغيير، وقد قال به علماء الأمة في القديم والحديث[1] ، فليس في ذلك خلاف بيننا وبينهم.
ولكن الخروج عند أهل السنة والجماعة مشروط بالاستطاعة، وهذا هو موضع الخلاف، لأن تجاهل الاستطاعة أو التقليل من شأنـها يقود إلى فتن عمياء تدع الحليم حيران، وما منا إلا وقد رأى أمثلة كثيرة على ذلك.
وفي هذا الباب سنناقش وإياهم مسألة الاستطاعة من خلال الأدلة الشرعية، وأقوال أئمة السلف الذين بينوا مقاصد هذه المدلولات، ثم نجتهد في إسقاط الأدلة والأقوال على واقعنا المعاصر، ومن الله سبحانه وتعالى نستمد العون والتوفيق.

القـيـادة

إن وجود قيادة حكيمة مؤهلة هي الخطوة الأولى والأساسية في طريق التغيير، ولابد أن تتوفر في هذه القيادة شروط وصفات أهل الحل والعقد، يقول تعالى:
لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسوله بالغيب. إن الله قوي عزيز [الحديد: 25].
فالرسل ومن جاء بعدهم من الأئمة المصلحين كانوا يتولون قيادة أممهم بالبينات المنـزلة، وينصرون ذلك بالقوة، وفي هذا الشأن يقول ابن المبارك رحمه الله:
كم يدفع الله بالسلطان مظلمة في ديننا رحمــة منه ودنيانا

---

[3] - الجهاد، الفريضة الغائبة، محمد عبد السلام فرج.
[1] - من هؤلاء العلماء المعاصرين الشيخ عبد العزيز بن باز، وسوف أنقل قوله بتمامه في الموضع المناسب من هذا الباب.

لولا الخليفة لم تأمن لنا سـبل وكان أضعفنا نـهباً لأقوانا[2]

وقال صلى الله عليه وسلم:

"إنما الإمام جُنَّةُ يقاتلُ من ورائه، ويتقى به، فإن أمر بتقوى الله عز وجل وعدل كان له بذلك أجر، وإن يأمر بغيره كان عليه منه" [3] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:

"يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين. بل لا قيام للدين إلا بـها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع، لحاجة بعضهم إلى بعض، ولابد لهم عند الاجتماع من رأس. حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: [إذا خرج ثلاثة نفر في سفر فليؤمروا أحدهم] - رواه أبو داود من حديث أبي سعيد وحديث أبي هريرة -، فأوجب صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع" [4] .

وأحب أن أطمئن الإخوة الذين يخالفونني الرأي بأنني لا أبحث عن شروط تعجيزية لهذا الأمير، فلا أفترض أن يكون مثل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولا أشترط وجود دولة إسلامية ممكنة قبل وجود الأمير وقبل الجهاد، أما الشرط الأول فمن مستلزماته أن يكون جند هذا الأمير مثل عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من السابقين الأولين رضي الله عنهم وأرضاهم، وأما الشرط الثاني فسيدخلنا في الدوامة المعروفة، وهذا وذاك من المستحيلات. ولقد كان لعلمائنا الذين يُعتد باجتهادهم ردود على الذين يقولون: لا جهاد إلا مع أمير ممكن، ننقل فيما يلي بعضها:

1 - مما أجمع عليه أهل السنة أنه لا تصح ولاية الكافر على المسلمين، وإذا طرأ عليه كفر أو تغيير للشرع سقطت ولايته، ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه.. ويقولون أيضاً: فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيام بخلعه[5] .

ولن تتمكن هذه الطائفة، كما أن المسلمين جميعاً لن يتمكنوا من خلع الحاكم الكافر إلا إذا نظموا صفوفهم.

---

[2] - الإمامة العظمى، مصدر سابق [عن الحلية لأبي نعيم 8/164].

[3] - رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الإمارة.

[4] - كتاب السياسة الشرعية، لابن تيمية، ص 161.

[5] - نقلنا هذا الإجماع فيما مضى من هذا البحث، وفي أكثر من موضع.

وكتموا أمر تحركهم، واختاروا قيادة حكيمة تزن الأمور بموازينها الصحيحة، وتعرف من تختار لهذه المهمة، ومن الذي يجب استبعاده من صفوف هذه الطائفة.
2 - كتب الشيخ عبد الرحمن[6] بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب رسالة يرد بـها على أحد المبتدعة في عصره:
".. فمن ذلك فيما بلغنا عنه: أنه لا جهاد إلا مع إمام، فإذا لم يوجد إمام فلا جهاد، فيلزم على هذا أن ما يلزم بترك الجهاد، من مخالفة دين الله وطاعته جائز، بجواز ترك الجهاد، فتكون الموالاة للمشركين والموافقة والطاعة جائزة، واللازم باطل. فبطل الملزوم، فعكس الحكم الذي دل عليه القرآن العزيز، من أنـها لا تصلح إمامة إلا بالجهاد".
ويقول في موضع آخر من الرسالة:
"وأما من هو مثل هذا الذي يدعي: أنه يدري، ولا يدري أنه لا يدري، فلابد من بيان ما فيه، لئلا يغتر به جاهل، فإذا تبين ما فيه من الغلط والتناقض، دفع الشبهة عن ضعيف البصيرة، إن شاء الله تعالى"[7].
3 - في عام 1979 م خرجت الجماعات الإسلامية الأفغانية على الحكومة الشيوعية الأفغانية التي أحكمت السيطرة على هذا البلد المسلم، وعندما أحس الشيوعيون بالوهن أمام ضربات المجاهدين القوية، استنجدوا بالسادة السوفييت، فسارع هؤلاء إلى تلبية النداء، وخلال أيام قليلة كان الغزاة "الحمر" يسيطرون على زمام الأمور في أفغانستان.
الأمريكان وحلفاؤهم الغربيون من جهتهم أعلنوا تأييدهم ودعمهم للمجاهدين الأفغان، وتبعاً لأمريكا وقفت حكومات الشعوب الإسلامية التي تسير في الفلك الأمريكي مع المجاهدين الأفغان أيضاً، وصارت تمدهم بمختلف أنواع المساعدات، وانتهزت الشعوب الإسلامية هذه الظروف الدولية المناسبة فوقفت موقفاً مشرفاً مع الأفغان.
ومما دفع الناس إلى التجاوب مع نداء الأفغان إلى الجهاد، الفتاوى التي أصدرها العلماء في كل مكان، والتي تنص على أن جهاد الأفغان جهاد شرعي ليس فيه

---

[6] - حفيد الإمام المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومؤلف كتاب فتح المجيد، المتوفى عام 1285 هـ.
[7] - الدرر السنية في الأجوبة النجدية: 8/167.

أية شبهة، ولا أعرف عالماً عاملاً إلا وقد أفتى بذلك مع أن الأفغان ليسوا جماعة واحدة، وليس لهم أمير ممكن، بل لقد كانوا جماعات متنافسة تتقاتل فيما بينها، ولكل جماعة أمير.
بعضهم أفتى بأن جهاد الأفغان فرض عين على كل مسلم، وعندما سئل عن جهاد أهل البوسنة فيما بعد أجاب بأنه ليس جهاداً شرعياً مع أن المناط واحد، والاعتداء على البوسنة أدهى وأمر من الاعتداء على أفغانستان، وغير هذا وذاك فقد كان للبوسنويين قائد واحد وجماعة واحدة يتبعها جميعهم إلا ما شذ وندر وهذا لا حكم له.
المشكلة عند كثير من العلماء أنـهم يتأثرون بالظروف المحيطة بـهم، كما أن فتواهم تكون قاصرة على صيغة السؤال الذي يوجه إليهم. ومن جهة أخرى فإن الفتوى تأتي موجزة وإيجازها مخل، ولديهم متسع من الوقت لدراسة السؤال والرد عليه من كافة الوجوه لو أرادوا، وفي عملهم هذا مخالفة واضحة لهدي السلف رحمهم الله، ولكن يبدو أننا جميعاً متأثرون بطبيعة عصرنا الذي يسمى بعصر السرعة. فكما أن الشباب يتسرعون في مواقفهم فكذلك الشيوخ يتسرعون في فتاويهم.

* * *
أظن أن قصدنا قد اتضح، فنحن لا نطالب أهل الغلو بأمير ممكن قبل إعلان الجهاد. بل ونرى أن من يقول هذا القول قد جانبه الصواب، وإنما نطالبهم بقيادة في مستوى قيادة طائفة انتدبت نفسها لمهمة الخروج على من كفر وغيّر شرع الله.. فهل هم قادرون على ذلك؟!، وهل كانت تجاربـهم وخبراتـهم مشجعة وتدعو إلى الاطمئنان إليهم والحرص على التعاون معهم؟!.
قبل الحديث عن تجاربـهم ومحاولاتـهم سنشير بإيجاز إلى موقفهم من مخالفيهم وماذا يريدون منهم؟!.
لقد جرّحوا العلماء والدعاة، ووزعوا عليهم من الاتـهامات التي تكفي لتجريدهم من كل فضل بل من كل نفع وفائدة، ثم كرَّوا على الجماعات والهيئات الإسلامية فأشبعوهم من قارص كلماتـهم [وذكرنا فيما مضى أمثلة كافية على ذلك].. ثم أضافوا قائلين في تنظيراتـهم التي لا تنتهي:

إن الاشتغال بغير الجهاد خيانة، ولا يجوز تعدد جماعات الجهاد في بلد واحد، ومن لم يستجب فلسوف يلقى مصيره الذي لا يحسد عليه!! إنـها وغيرها أقوال تدعو إلى الشفقة عليهم، والخوف منهم، والتعجب من حالهم!!.

ترى ماذا يحدث لهذه الأمة: لو توقف الناس عن السعي على عيالهم؟، وانقطع الطلبة عن معاهدهم وجامعاتـهم؟، وهجر العلماء والدعاة حلقات العلم والتربية؟ وتخلت الجماعات الإسلامية عن دورها الإصلاحي البناء؟.. ماذا يحدث لهؤلاء جميعاً لو تركوا كل شيء نافع ثم راحوا ينتظرون الأوامر الصادرة إليهم من قيادة أغرار مجهولين يحاربون الحكومات كلها والأحزاب والمؤسسات الإعلامية بأسرها، والجماعات والهيئات الإسلامية بعمومها.. يحاربون هؤلاء كلهم في وقت واحد، ويستعدونـهم جميعاً، ويرون بعد ذلك كله أن زمام المبادرة بأيديهم، ثم يتحدثون عن انتصارات مزعومة، والناس كل الناس يرون عكس ما يقولون ويقررون؟.

لندع بياناتـهم ورسائلهم جانباً، لأننا قد تعرضنا لها بالنقد والدراسة فيما مضى، ولنستعرض أهم تجاربـهم، فقد يكون القوم في عملهم خيراً منهم في أقوالهم:

<u>1 - أفغانستان:</u> كان الجهاد في أفغانستان أملاً من آمال أمتنا، وحلماً جميلاً يداعب أجفان المتشوقين لعودة الخلافة.. وهذه الآمال والأماني هي التي دفعت أصحاب الأموال للتبرع بأعز ما يملكون، ومن لا يملك المال فقد جاد بنفسه "والجود بالنفس أقصى غاية الجود".

كان الواجب الشرعي يُحتم على الأفغان العمل على توحيد صفوفهم تحت راية قيادة واحدة وأمير واحد، ولا شيء يمنع من ذلك لأن دينهم واحد، ومذهبهم واحد، وجماعتهم الدعوية كانت واحدة، وهدفهم واحد، لكن ذلك لم يحدث، فالجماعة الواحدة أصبحت أربع جماعات، ثم زاد العدد، ورغم الجهود الهائلة التي بذلها أنصار الجهاد الأفغاني من العلماء والدعاة في العالم الإسلامي فإن وحدة المجاهدين لم تتحقق بشكل صحيح في أية مرحلة من مراحل هذا الجهاد.

كانوا أحياناً يضطرون[1] إلى الإعلان عن قيام اتحاد بينهم واختيار أحدهم ليكون مسؤولاً عنه، وكان المسلمون يتناقلون أخبار هذا الإعلان بكل فرح وسعادة.. ولكن الذي كان يجري داخل جبهات القتال خلاف ذلك: كان كل طرف ينصب الكمائن للطرف الآخر، ويُوقع به أعداداً كبيرة من القتلى والجرحى.. وكانت هذه الجماعة تنتهك حرمات مساجد الجماعة الأخرى، وتقتل الركع السجد من عباد الله، بل وكانت هذه المنكرات الفظيعة ترتكب خلال صلاة الجمعة أو العيد. وكانت وكالات الأنباء العالمية تنقل أخبار اقتتال المجاهدين فيما بينهم، وقد تضفي عليها شيئاً من المبالغة، في حين كان إخواننا وخاصة العرب ينكرون ذلك ويشنعون على كل من يتحدث عن هذا الاقتتال، ويرمونه بمختلف الاتـهامات، لأنـهم - على حد قولهم - لا يريدون أن يشوه الجهاد الأفغاني، وفضلاً عن ذلك فقد توزع كثير من العرب وغيرهم بين القادة الأفغان، كل مجموعة منهم تبايع زعيماً من أبرز زعماء هذه الجماعات، بل وإن أحدهم كان يأخذ البيعة كخليفة للمسلمين بعد تحرير أفغانستان.

ومن المؤلم أن الصراع الدموي اشتد بينهم بعد خروج السوفييت من أفغانستان، وأصبح محور الصراع: أيهم سينفرد بدخول كابول ويتولى الحكم فيها؟، وبعد دخول كابول لم تتوقف المجازر البشعة بل تضاعفت، وكان مما قلته في هذه المرحلة:

"وأقولها صريحة: لا أجد في القريب العاجل ما يبعث على التفاؤل، فهؤلاء الذين لم توحدهم مخاطر ومصائب استمرت أربعة عشر عاماً لا أتوقع أن يتوحدوا بعد أن جاء دور توزيع الغنائم" [2] .

وأقولها الآن وبعد مرور بضع سنين على ما كنت قد قلته آنفاً:

لا أجد ما يبعث على الاعتقاد بأنـهم سيوقفون هذه الحرب المدمرة، فبعضهم استعان بالأمريكان وباكستان، وبعضهم الآخر استعان بالهند وإيران وروسيا، وأصبح الصراع على أفغانستان بين دول إقليمية وعالمية، وقادة الجماعات الإسلامية ينفذون

---

[1] - لأن الممولين يضغطون عليهم، ويهددونـهم بحجب المساعدات عنهم إذا لم يتحدوا.

[2] - قل هو من عند أنفسكم، للمؤلف، ص: 161.

مخططات الدول الأجنبية التي لا تريد للإسلام والمسلمين غير إشغالهم بأنفسهم.
أما الشعب الأفغاني الحزين المنكوب، فلم يعد مهتماً بمن سيحكمه، وكل الذي يهمه الأمن والسلم، والبحث عما يقيم أوده، ولعله الآن يترحم على أيام الملك أو أيام الشيوعيين:
رب يوم بكيت منه فلما صرت في غيره بكيت عليه
أما أعداؤنا وأجهزة إعلامهم فقد وجدوا في مثل هذه الأخطاء البشعة فرصتهم الثمينة لتشويه صورة كل من يطالب بتحكيم الشريعة الإسلامية، ولهذا فهم مهتمون أشد الاهتمام بنقل حروب الأفغان فيما بينهم وإلصاق كل شنائعها بالإسلام والجماعات الإسلامية، والنظام الإسلامي المرتقب الذي نبشر به كمنقذ للبشرية مما تعانيه من ظلم وجهل وقهر واستعباد.

*** * ***

أيها الإخوة: مَنْ مِنْ هؤلاء الأفغان يستحق أن يكون أميراً فنبايعه؟. كنتم إلى حين تكابرون، ولكنني رأيتكم قبل حوالي سنتين قد تحولتم عن أصحابكم القدامى واندفعتم بعاطفتكم المتأججة نحو جماعة جديدة تحارب من كانوا عندكم بالأمس ملء السمع والبصر، وفي موقفكم الجديد جانب إيجابي وآخر سلبي، أما الإيجابي فيتمثل في سكوتكم - على الأقل - عن ا لدفاع عمن كانوا ولا زالوا يعيشون على القتل والسلب. والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، أما الجانب السلبي فيتمثل في انتقالكم السريع من النقيض إلى ضده، والهجوم المسف على من لا ينتقل معكم بمثل هذه السرعة.
أيها الإخوة: هل مازلتم مطمئنون للجماعة الأفغانية الجديدة التي وجدتم فيها ضالتكم المنشودة؟ أم أن هناك موقفاً جديداً لا تساعدكم الظروف على إعلانه؟.. أكاد ألمس الموقف الجديد من خلال صمتكم أو من خلال برود عاطفتكم نحو هذه الجماعة وأخبارها.
أيها الإخوة: طالما ظلمتم البريء، واتـهمتم الناس من غير بينة، واستعديتم العلماء والدعاة.. فلماذا سكتم عن جرائم قادتكم بالأمس وأنتم من أعلم الناس بـهذه الجرائم التي كانوا يرتكبونـها؟، ولماذا سكتم أيضاً عن

منكرات كثيرة لا يجوز لكم السكوت عنها، ومنها تجارة المخدرات في المناطق التي كان يسيطر عليها قادة الجماعات؟ وهل جربتم ولو لمرة واحدة أن تقولوا لقد أخطأنا؟. قولوا ما تشاؤون، أما سنن الله في التغيير فتقول: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم [الرعد: 11] ومن كانت هذه هي أخلاقهم، وهذه هي أفعالهم فليسوا أهلاً لقيادة الأمة، وليسوا أهلاً للنصر[1].

2 - جماعة الجهاد المصرية: الذين يعرفون جماعة الجهاد المصرية كانوا يعدون المدعو عبد القادر بن عبد العزيز أحد كبار قادتـها ومسؤول الفتوى والمناهج فيها، ويكاد الناس لا يرون أمير هذه الجماعة إلا وعبد القادر إلى جانبه، وإذا جاؤوا على ذكر اسمه نعتوه بألقاب تذكرنا بألقاب كبار علماء السلف، ومن الأمثلة على ذلك أن مجلتهم "المجاهدون" نشرت في أحد أعدادها الإعلان الآتي:

"إلى الباحثين والدارسين وطلبة العلوم الشرعية: ترقبوا صدور الموسوعة السلفية [كتاب العلم] للعالم المرابط والمفتي المجاهد الشيخ عبد القادر بن عبد العزيز" [2] .

ويبدو أن هذه الجماعة أصدرت كتاباً من كتب العالم المرابط والمفتي المجاهد على غير ما يريد، فغضب وأصدر بياناً تحت عنوان: "بيان وتحذير بشأن جماعة الجهاد المصرية"، وكان مما جاء فيه:

"فقد فوجئت بـهذه الجماعة الضالة جماعة الجهاد المصرية تعبث بكتابي وتحرفه تحريفاً لم يفعله أحد من الزنادقة بكتب العلوم الشرعية على مر تاريخ المسلمين فيما علمته".

وقال أيضاً:

---

[1] - اعتاد الأخوة أن يقدموا أنفسهم كمحامين عن الجهاد الأفغاني، وكأنه ملك لهم وحدهم، وأن يقولوا لكل من يقول مثل قولي: هذا منكم تشويه لصورة الجهاد الأفغاني، والصحابة رضي الله عنهم اقتتلوا فيما بينهم.

وردي عليهم من وجهين: الأول: لقد شارك جميع الإسلاميين في الجهاد الأفغاني، كل بما يقدر عليه، والجميع كان يأمل أن يحقق المجاهدون أهدافهم. الثاني: سمعت بعض قادة الإخوة هؤلاء يقولون: نحن لا نثق بالأفغان ولا بجهادهم وما جئنا لهذه الديار [بشاور] إلا لخدمة قضية بلدنا، لكنهم في العلن يقولون عكس هذا القول.

[2] - ليس هذا هو الاسم الحقيقي له، ومن جهة أخرى فهو طبيب مختص بجراحة التجميل، ومن الظلم للعلم وأهله أن يطلق عليه وصف: "العالم المرابط والمفتي المجاهد".

"فإذا كانت هذه الجماعة الضالة تعبث بكتب العلوم الشرعية هذا العبث مع استضعافها فكيف تصنع إذا تمكنت؟ بل كيف يرجو هؤلاء الكاذبون الضالون تمكيناً من الله؟".

وأضاف قائلاً:

"تمادت هذه الجماعة الضالة في التزوير والخداع، فأرادوا أن ينسبوا لأنفسهم علماً ليس فيهم، وفضلاً ليس لهم، فوضعوا على غلاف الكتاب بعد اسمي عبارة: (أقرته بعد المراجعة اللجنة الشرعية بجماعة الجهاد) ليوهموا الناس أن لديهم أهلية مراجعة مثل هذا الكتاب أو إقرار ما ورد به.. وأنا لم أطلب من أحد إقرار ما ورد بكتابي أو مراجعته، فكيف وقد ثبت عندي أن القائمين على أمر هذه الجماعة هم بالمعيار الشرعي من العوام الجهال ليست لديهم أهلية مراجعة مثل كتابي هذا، بل قد حملهم جهلهم على ما صنعوا من الكذب والتزوير والخداع والخيانة، وليعلم كل مسلم أنه لا يحل اتباع الجهال - كهؤلاء أو غيرهم - في أمر من أمور الدين أو أمور العمل الإسلامي، فإن اتباع الجهال وتقليدهم زمام قيادة المسلمين هو الضلال بعينه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: [اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا]" [3] .

نحن هنا لا نريد أن نتدخل في صميم هذه المشكلة بين جماعة الجهاد والدكتور عبد القادر، ونحاول الحكم لطرف على الآخر، ولكن واقع الحال يؤكد أن مؤلف كتاب "العلم" يعرف الجماعة جيداً، ومن جهة أخرى فإن الجماعة تزكيه، وقد قالت في نعته: "العالم المرابط، والمفتي المجاهد" ومن كانت هذه هي صفته عندهم، فها هو يشهد عليهم: بالكذب، والضلال، والتزوير، والخداع، والخيانة. ويقول أيضاً: إن الزنادقة لم يفعلوا ما فعلته هذه الجماعة في كتب العلوم الشرعية.

ولابد أن تكون قد تجمعت عند العالم المرابط والمفتي المجاهد - على حد قولهم - ملحوظات كثيرة كان آخرها إصدارهم لكتابه على غير الوجهة التي يريدها، ويصعب

---

[3] - الجامع في طلب العلم الشريف، لمؤلفه عبد القادر بن عبد العزيز، الطبعة الثانية: 1/7 . والجدير ذكره أن هذا الطبيب خاض في أمور ليس مؤهلاً لاقتحام غمارها، ونصّب نفسه أستاذاً وجعل أئمة الإسلام في القديم والحديث وكأنـهم طلبة يدرسهم، فتراه يستعرض أقوالهم ثم يحكم عليها بالشكل الذي يخدم بدعته.

التصديق بأنه لم يكن بينه وبينهم إلا هذه المسألة لأنه قد بقي معهم بضع سنين.
فهل تشجع هذه الشهادة وشهادات[4] أخرى غيرها على إعطاء البيعة لقيادة هذه الجماعة؟، وبشكل أخص من قبل العلماء والدعاة الذين لا يعرفونـها ولم يسبق لهم أن تعاملوا معها؟.
فإن قالوا: لقد ظلمنا، وأفحش القول بنا، والأمر لا يستحق مثل هذه الاتـهامات، وكل الذي فعلناه أننا حذفنا أقواله المغالية في العلماء والجماعات الإسلامية.
قلنا: ردنا عليكم من وجهين: الوجه الأول: إنكم لا تحسنون اختيار الرجال الذين تضمونـهم إلى جماعتكم، وخاصة من هم في مرتبة أهل الحل والعقد، فكيف نسلم بقدراتكم فيما هو أهم من هذا؟.
والوجه الثاني إذا كنتم تشكون من شدة المؤلف عليكم وظلمه لكم، فطالما وقعتم في أعراض العلماء[5] والجماعات، ومن ذلك وصفكم لبعضهم بأنـهم ليسوا أكثر من أحذية في أقدام الطغاة، وبمثل ما تدين تدان.
<u>3 – الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر:</u> غالى قوم بحب هذه الجماعة المجهولة، وجعلوا منها أملاً من آمال الجزائر بخاصة والأمة الإسلامية بعامة. وأسرفوا في الحديث عن انتصارات مزعومة تحققت على يد هذه الجماعة، وكان مما قاله هؤلاء عنها:
"إنـها سلفية المنهج والفهم والحركة والسلوك، ولا تتعامل إلا بضوابط وفهم السلف الصالح"، وبلغ التعصب الذميم ذروته عند أنصار هذه الجماعة عندما صاروا يصومون ويفطرون على صوم وإفطار الجماعة المسلحة.
أحد هؤلاء الغلاة ساءه موقفي من جماعته التي منحها ولاءه، كيف لا أمنحها ولائي وأندفع وراءها بمثل حماسته، ويبدو أنه كان لا يزال يحسن الظن بي، فطلب أن يزورني ليعلِّمني من الشأن الجزائري ما أجهله، وما كنت أبخل عليه بمثل هذا اللقاء لو كان من أهل العلم حتى بـهذه المسألة، ولكنني كنت قد التقيت به من قبل، ورأيت من سفاهته وقذارة لسانه مالا يحتمل، وقررت بعد هذا اللقاء أن لا أوافق على الاجتماع به مرة

---

[4] - هناك شهادات أخرى لأشخاص انفصلوا عن هذه الجماعة، وقالوا مثل قول عبد القادر أو أشد، وليس من منهجنا فيما نكتب عنهم وعن غيرهم الخوض في مثل هذه الأمور.
[5] - ذكرنا فيما مضى نماذج مؤسفة من أقوالهم.

أخرى.. وعندما يئس من قبولي الالتقاء به استخدم مفردات قاموسه اللغوي الهابط في شتمي.
ولست أول ولا آخر من يشتمه الغلاة ويشنعون عليه. إنـهم لم يتركوا جماعة ولا عالماً ولا داعية إلا وسلقوه بألسنتهم التي لا يحسدون عليها.. ولم يبق عندهم في الدنيا إلا الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر، فلماذا لا يبايعها الجميع وينقادون لها؟، لماذا لا يفكر المسلمون كل المسلمين بعقولهم هم؟. هذا وحده سبب مهم من أسباب خصوماتـهم ومعاركهم مع الناس. وما بين عشية وضحاها فاجأ الغلاة الناس بـهجوم عنيف ضد جماعتهم المحبوبة: "لأنـها ليست على هدي السنة النبوية ومنهج السلف الصالح، ولأنـها سفكت الدم الحرام بلا تأويل صحيح ودون مراعاة لضوابط الشرع التي يجب على المسلم الوقوف عندها، وأن هذه الطائفة قد أحكمت أمرها على اسم هذه الجماعة، وليعلم أن هذه الدماء تسفك من منطلق منهج بدعي ونفسية خبيثة حاقدة على أهل السنة السلفيين المشهورين بالجهاد والفضل والسبق".
والله لا أدري من أي شيء أعجب: أمن هذا البيان المفاجئ والذي لم تسبقه مقدمات تستحق الذكر؟ أو من حيثيات هذا البيان التي تنقض ما كان القوم يقولونه بالأمس؟ فكيف تقدمون أنفسكم كأساتذة تُعلّمون الناس الشأن الجزائري بعامة وشأن الجماعة المسلحة بخاصة؟.
ومن منطلق معرفتكم القطعية الأكيدة كأساتذة قلتم: إن هذه الجماعة سلفية في منهجها، وفهمها، وسلوكها، وحركتها، وسكونـها، وصومها، وإفطارها، وحتى في ذبحها للناس فهي تذبح حسب أحكام الشريعة الإسلامية، وعلى طريقة السلف ومنهجهم.
نعم!! لقد قلتم هذا كله، ودافعتم عن قتلهم للدعاة منذ بداية سيرهم في هذا الطريق، وبررتم قتلهم للنساء والذراري، وقتل الشباب الذين يضطرون للخدمة الإجبارية في الجيش، وكذلك الشباب الذين يسافرون من منطقة إلى منطقة أخرى[1].. حتى زيتوني الذي

---

[1] - كانوا قد أصدروا رسالة أسموها: "إيضاح السبيل لمنع الشباب من السفر الطويل"، وأصدروا بياناً آخر يدعون فيه عمال المطافئ إلى التوقف عن العمل، وبياناً ثالثاً يطالبون فيه عمال شركة النفط بترك مناصبهم، وهذه البيانات لا تختلف عمن كان يطلب من الناس أن يناموا في النهار ويعملوا في الليل.

تعتبرونه اليوم أصل البلاء كنتم بالأمس تدافعون عن جميع فظائعه، وكتاباتكم تشهد على ذلك.. شيء واحد لا أشهد بأنكم قد أفتيتم به أو أن جماعتكم قد أمرت به: أن ينام الناس بالنهار ويعملون بالليل.. فكيف أصبحت هذه الجماعة عندكم: خبيثة بدعية حاقدة على أهل السنة السلفيين؟!.
كيف استدرتم هذه الاستدارة التي باغتم الناس بـها دون أن تبينوا الأسباب الداعية لاتخاذ هذا الموقف؟، والأنكى من ذلك أن بعضكم لا يزال مصراً على ما كان يسميه فتاوى، وهاهو يجرّم الجماعة المسلحة بسببها، إنه لأمر يدعو إلى الحيرة والاستغراب بل والإشفاق!!.
والشاهد في هذا الأمر أنكم وبعد سقوطكم في مستنقع الجماعة المسلحة الآسن النتن عدتم تكررون القول الذي كنا نقوله عنها وشتمتمونا من أجله، وجماعة هذا شأنـها ليست مؤهلة لقيادة الجزائر ولا العالم الإسلامي ولا حتى بضعة أفراد من المسلمين.
ومراهقون أغرار مثلكم يضعون أنفسهم في مرتبة العلماء المفتين، ويتبعون كل ناعق، وينقلبون من النقيض إلى ضده أنصحهم بتهذيب أنفسهم من الغرور والهوى، ومن الولوغ في أعراض المسلمين، وأدعوهم إلى التوبة النصوح قبل أن يأتيهم زمن لا ينفع فيه الندم.

الخلاصة:
إن وجود قيادة حكيمة مؤهلة هي الخطوة الأولى والأساسية في طريق التغيير.
ليس صحيحاً أنه لا جهاد إلا تحت راية أمير ممكَّن.
أي جماعة تزعم أنـها قادرة على استيعاب جميع الجماعات والطاقات الإسلامية فقد أبعدت النُجعة وقالت قولاً زوراً.
ليس في الساحة الإسلامية جماعة تستحق أن تلغي دور غيرها لأن التغيير يحتاج إلى علماء في: الشريعة، والسياسة، والتربية، والاقتصاد، وشؤون العسكرية والجهاد، وغير ذلك، وكل ميسر لما خلق له.
لا يجوز لأحد الدعاة القول: إن الاهتمام بغير الجهاد خيانة.

فهل نتعلم جميعاً أن الحوار الجاد هو السبيل إلى توحيد الطاقات، وسد الثغرات؟ وهل نحن جميعاً قادرون على تنحية وسائل الاستفزاز والاستعداء والهدم؟

نحو كيان جديد (الحلقة 34)
الحوار بين أهل السنة

السلفية بين الولاة والغلاة

الاسـتطاعة
2 - 4
الناسخ والمنسوخ في آيات الجهاد [14]

هل صحيح أن سورة التوبة نسخت كل آية سبقتها وورد فيها ذكر الجهاد بغير صورته النهائية التي وردت في هذه السورة؛ أو ذكر الإعراض والصبر على أذى المشركين، ومن الجدير بالذكر أن عدد هذه الآيات المنسوخة يبلغ مائة وأربع عشرة آية؟!.
وهل صحيح أن النسخ المقصود في آيات الجهاد يعني إزالة الحكم بحيث لا يجوز امتثاله أبداً، كما يعني أنه لا يجوز بعد نزول سورة التوبة الاعتذار عن الجهاد بضعف المسلمين وقلة عددهم؟!.

<u>مراحل الجهاد</u>

سورة التوبة هي آخر مرحلة من مراحل الجهاد، ولابد لبيان الناسخ من المنسوخ من استعراض المراحل كلها لأن كل مرحلة تتصل بالأخرى، ومن جهة أخرى فهي في مجموعها تمثلنمو الجماعة المسلمة ومسيرتـها المباركة منذ أيامها الأولى وإلى أن كتب الله لها النصر والتمكين.
المرحلة الأولى: مرحلة الكف عن أذى المشركين والإعراض عنهم والصبر على أذاهم، يقول ابن القيم: "وأرسله بيا أيها المدثر ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب،

[14] - بعد جمع مادة هذا البحث وكتابة مسودته الأولى، اطلعت على رسالة جامعية تقدم بـها مؤلفها لنيل درجة التخصص الأخيرة "الدكتوراه" من جامعة أم القرى بمكة المكرمة - فرع العقيدة - .. وبعد المناقشة قررت اللجنة المسؤولة منح الباحث درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز مع التوصية بطبع الرسالة.. ثم صدر هذا البحث النفيس فيما بعد عن إحدى دور النشر في كتاب بعنوان: "أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيها" لمؤلفه: د. علي بن نفيع العلياني.
بعد الانتهاء من قراءة الكتاب قراءة متأنية حمدت الله أن النتائج التي انتهيت إليها مماثلة للنتائج التي انتهى إليها المؤلف، ومن ثم فقد وجدت أنه عاد إلى مصادر لم أتمكن من الحصول عليها، لهذا وغيره فقد اعتبرته من أهم مراجع بحثي هذا. وأحلت إليه كثيراً.

ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح"[15].
والنهي عن القتال في هذه المرحلة أشارت إليه الآية القرآنية: ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وقالوا ربَّنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً [النساء: 77].
قال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله [الجاثية: 14]: أي يصفحوا عنهم ويحملوا الأذى منهم، وهذا كان في ابتداء الإسلام أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ليكون ذلك لتأليف قلوبـهم، ثم لما صبروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجِلادَ والجهاد هكذا رُوي عن ابن عباس وقتادة"[16].
وللمفسرين أقوال في حكمة الكف عن القتال في هذه المرحلة. قال ابن كثير: "ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة، منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونـهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء لائقاً"[17].
وقال سيد قطب: "ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد في بيئة معينة لقوم معينين وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة بالذات تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم يقع على شخصه أو على من يلوذون به، ليخلص من شخصه، ويتجرد من ذاته، ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به محور الحياة في نظره، ودافع الحركة في حياته، وتربيته كذلك على ضبط أعصابه فلا يندفع لأول مؤثر كما هي طبيعته، ولا يهتاج لأول مهيج، ليتم الاعتدال في طبيعته وحركته وتربيته على أن يتبع مجتمعاً منظماً له قيادة يرجع إليها في كل أمر من أمور حياته، ولا يتصرف إلا وفق ما

[15] - زاد المعاد، تحقيق الأرناؤوط: شعيب وعبد القادر 3/158.
[16] - تفسير ابن كثير، دار الشعب - القاهرة: 7/251.
[17] - تفسير ابن كثير، دار الشعب - القاهرة: 2/315.

تأمره مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعادته، وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي لإنشاء المجتمع المسلم الخاضع لقيادة موجهة"[18].
المرحلة الثانية: إباحة القتال من غير فرض. ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور، أذن للذين يقاتلون بأنـهم ظلموا وإنَّ الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز [الحج: 38 - 40].
قال ابن العربي في تعليق له على هذه الآية: "قال علماؤنا: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحل له الدماء؛ إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل مدة عشرة أعوام؛ لإقامة حجة الله تعالى عليهم، ووفاء بوعده الذي امتن به بفضله في قوله: وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً. فاستمر الناس في الطغيان وما استدلوا بواضح البرهان، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم عن بلادهم؛ فمنهم من فرّ إلى أرض الحبشة: ومنهم من خرج إلى المدينة، ومنهم من صبر على الأذى. فلما عتت قريش على الله تعالى، وردوا أمره وكذبوا نبيه عليه السلام، وعذبوا من آمن به ووحده وعبده، وصدّق نبيه عليه السلام واعتصم بدينه، أذن الله لرسوله في القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم، وأنزل: أذن للذين يقاتلون بأنـهم ظلموا - إلى قوله - الأمور"[19].
المرحلة الثالثة: فرض القتال على المسلمين لمن يقاتلهم فقط. قال تعالى:.. فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً. ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها، فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم

---

[18] - هذا ما اجتزأناه من كلام لسيد قطب رحمه الله تحدث فيه عن حكمة الكف عن القتال في هذه المرحلة. في ظلال القرآن: 2/713 - 715.
[19] - تفسير القرطبي: 12/69.

واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً [النساء: 90 - 91].
يقول ابن تيمية عن هذه المرحلة: ".. ولم يؤمروا بقتال من طلب مسالمتهم، بل قال: فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم، ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً، إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، أو جآؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم، فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً [النساء:89 -90]. وكذلك من هادنهم لم يكونوا مأمورين بقتاله، وإن كانت الهدنة عقداً جائزاً غير لازم"[20].
ويقول ابن القيم: "ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله"[21].
المرحلة الرابعة: قتال جميع المشركين حتى يكون الدين كله لله، يقول ابن القيم: "ولما نزلت (سورة براءة).. أمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان.
وأمره بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عهودهم إليهم"[22].
وهذه المرحلة بدأت بعد انقضاء أربعة أشهر من بعد حج العام التاسع من الهجرة ومن بعد انقضاء العهود المؤقتة، وتوفي الرسول صلى الله عليه وسلم والعمل على هذه المرحلة الأخيرة، وعليها استقر حكم الجهاد[23]
ومن أدلتها قوله تعالى: فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم [التوبة: 5]، وقوله تعالى: قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون [التوبة: 29].

---

[20] - أهمية الجهاد، مصدر سابق، ص: 143، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية: 1/73.
[21] - زاد المعاد: 3/159.
[22] - زاد المعاد: 3/159، وأهمية الجهاد، ص: 144.
[23] - زاد المعاد: 3/159، وأهمية الجهاد، ص: 144.

وهكذا فقد صار أهل الأرض ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن، ومسالم آمن، وخائف محارب[24].
وهذه المراحل قد ذكرها علماء الإسلام في مؤلفاتـهم من كل مذهب. يقول السرخسي: "وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مأموراً في الابتداء بالصفح والإعراض عن المشركين. قال الله تعالى: فاصفح الصفح الجميل، وقال تعالى: وأعرض عن المشركين، ثم أمر بالدعاء إلى الدين بالوعظ والمجادلة بالأحسن فقال تعالى: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن. ثم أمر بالقتال إذا كانت البداية منهم فقال تعالى: أذن للذين يقاتلون بأنـهم ظلموا ؛ أي أذن لهم في الدفع، وقال تعالى: فإن قاتلوكم فاقتلوهم، وقال تعالى: وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ثم أمر بالبداية بالقتال فقال تعالى: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، وقال تعالى: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم.
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابـهم على الله، فاستقر الأمر على فرضية الجهاد مع المشركين وهو فرض قائم إلى قيام الساعة"[25].

<u>فوائد:</u>

<u>الفائدة الأولى:</u> هذه المراحل التي سلكتها الجماعة الإسلامية في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن خاضعة لاجتهاد هذا أو ذاك، بل ولم تكن خاضعة حتى لاجتهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رسول الله!، ولهذا فقد قال لمن قال له من أصحابه كنا في عز ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة، "إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا.." الحديث[26]، وعندما استأذنه أهل يثرب ليلة العقبة أن يميلوا على أهل منى فيقتلوهم: أجابـهم صلى الله عليه وسلم: "إني لم أؤمر بـهذا"[27].

---

[24] - زاد المعاد: 3/159، وأهمية الجهاد، ص: 144.
[25] - أهمية الجهاد، مصدر سابق، ص: 144 و 145 عن المبسوط: 10/2، والسرخسي من كبار علماء الحنفية، توفي 483 هـ، وذكر صاحب أهمية الجهاد أقوال علماء بقية المذاهب.
[26] - رواه النسائي: 6/3 انظر تخريجه في كتاب أهمية الجهاد، ص: 136.
[27] - أخرجه أحمد 3/460 - 462، والطيالسي 2/93 وسنده صحيح [عن زاد المعاد 3/48].

إن الأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى، وهو الذي أنزل قرآناً يتلى في كل مرحلة من هذه المراحل.
فالجماعة المسلمة بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تعمل وسعها لا تدخر منه شيئاً، وعندما كانت تنهض بكافة الأعباء والواجبات المطلوبة منها في المرحلة التي تحياها، يأتيها الأمر الرباني بانتقالها إلى مرحلة جديدة لها متطلبات جديدة، لكنها من جهة أخرى تتصل بالمرحلة التي قبلها اتصالاً لا تنفصم عراه.
لقد سارت الجماعة الأولى في رحلتها الدعوية المباركة سيراً بشرياً طبيعياً موفقاً: أمرها الله جل وعلا بالصبر على الأذى فصبرت صبراً جميلاً، وأمرها بالهجرة فهاجرت، وأمرها بالجهاد فجاهدت، وعندما علم الله صدق أصحاب محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وحسن نواياهم كتب لهم النصر والتمكين والعز والسؤدد، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.
إن الله جل وعلا لم يكلف هذه الجماعة بالجهاد وهي لا تزال في مرحلة البناء والتكوين، كما أنه لم يكلفهم بالانتقال من المرحلة الأولى إلى الرابعة دفعة واحدة، أو بالعودة من المرحلة الثالثة إلى الثانية لأن ذلك كله غير ممكن، ولأن كل يوم بل وكل دقيقة محسوب حسابـها في مسيرة هذه الجماعة، وحاشا لله أن يكلفهم بما لا يستطيعون أو أن يدعهم يسيرون في متاهات من الضياع والتشرد.
<u>الفائدة الثانية:</u> السابقون الأولون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانوا يعلمون أن لهذه الدعوة تبعاتـها الجسام ومسؤولياتـها العظام، ولم تفاجئهم الابتلاءات والمحن عندما بدأت في وقت مبكر من حياتـهم الدعوية. أجل لقد ابتلاهم الله جل وعلا بأنفسهم وأموالهم وأهليهم وأوطانـهم وأصدقائهم فصبروا، واحتسبوا ذلك عند الله تعالى.
أما المشركون فقد كانوا يدركون جيداً أن هذه الدعوة الجديدة تـهدد كياناتـهم وتقاليدهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم.. وأنـهم وإن تنازلوا عن أشياء كثيرة فلن يتنازلوا عن نظامهم الطبقي، ولن يقبلوا أن تكون مكانتهم مثل مكانة عبيدهم أو أن يكون العبيد أفضل من السادة.

كان الطرفان يرون أنه لابد من القتال وبذل المهج والأرواح، قال الأوس والخزرج لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم العقبة: يا رسول الله علام نبايعك؟ قال: "تبايعوني على السمع والطاعة، في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة". فقمنا نبايعه[28]، فأخذ بيده أسعد بن زرارة، وهو أصغر السبعين، فقال: رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد المطيِّ إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتلُ خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإمّا أنتم تصبرون على ذلك، فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذرُ لكم عند الله، فقالوا: يا أسعد أمِطْ عنا يدك، فوالله لا نذرُ هذه البيعة، ولا نستقيلها، فقمنا إليه رجلاً رجلاً، فأخذ علينا وشرط، يعطينا بذلك الجنة[29].

إننا نعلم اليوم وغداً أنه لابد أن نبتلى بمختلف أنواع الابتلاءات عندما نصدع بالحق، فنأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر.. ونعلم أيضاً أن الأهداف العظيمة لابد وأن تقابلها تضحيات جسيمة، ومما لا يخفى على الذين يتابعون واقع ومشكلات الدعوة أن الطغاة المعاصرين يملكون وسائل شريرة لم تكن مهيأة لطغاة العصور السالفة.

وإذا كان الواجب الشرعي يحتم علينا التأسي بالجماعة الأولى منذ نزول قوله تعالى: اقرأ وحتى نزول سورة التوبة ثم التحاق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، فإن مما نستخلصه من هذا التأسي أنه لابد من الجهاد في سبيل الله، وأنه لا يجوز أن ندع لعدونا الوقت المناسب لاجتثاث شأفتنا، وهلاك بيضتنا. ومما لا ينقضي منه العجب أن نجد صفاً من الناس يتذرعون بفقدان الاستطاعة هروباً من الجهاد والابتلاءات، في الوقت الذي يركبون فيه كل مركب

---

[28] - القائل هو جابر بن عبد الله.

[29] - أخرجه أحمد في المسند 3/322 - 321، والبيهقي في السنن: 9/90، وصححه الحاكم: 2/624 – 625، ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد على شرط مسلم، وحسن إسناده الحافظ في الفتح 17/177 [عن زاد المعاد: 3/46].

معلوم عند المنصفين أنه لا يوصل إلى الهدف المنشود عند الدعاة والجماعات، وأقرب مثال على ذلك وضع بيضهم كله في سلة الديمقراطية.
وفي المقابل نجد صنفاً آخر من الناس عمد إلى لي أعناق نصوص الجهاد لتخدم بدعته التي جعلها أهم شيء في حياته.. هؤلاء مغامرون، والجهاد عندهم مغامرة يقوم بـها بضعة أفراد منهم، والأشد عجباً أن هذا الصنف من الناس لا يتعظون من تجاربـهم الفاشلة، ولا يلقون بالاً للنصائح التي تسدى إليهم.
إن الدعاة والجماعات الإسلامية على مختلف أصنافها مطالبة بالتزام الهدي النبوي في مراحل الجهاد، وتجنب الأهواء والحيل والشهوات.

أقوال العلماء

بعد الحديث عن مراحل الجهاد نعود إلى السؤال: هل نسخت سورة التوبة آيات الكف والصبر على أذى المشركين؟!.
اختلف العلماء وتشعبت أقوالهم في باب النسخ، وسوف نكتفي هنا ببيان مواقفهم من آية السيف ونسخها لما سبقها من آيات حتى لا نستطرد في إثارة قضايا لا علاقة لها بموضوع بحثنا.

العلماء المتأخرون:
1 - الزركشي: قسم النسخ إلى ثلاثة أضرب، وقال في قسمه الثالث: "ما أمر به لسبب ثم يزول السبب؛ فالذين يرجون[30] لقاء الله ونحوه من عدم إيجاب الأمر بالمعروف والنهي والجهاد ونحوها، ثم نسخه إيجاب ذلك. وهذا ليس بنسخ في الحقيقة وإنما هو نَسْءٌ؛ كما قال تعالى: أو ننسئها فالمنسأ هو الأمر بالقتال، إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى.
وبـهذا التحقيق تبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف أنـها منسوخة بآية السيف وليست كذلك بل هي من المنسأ، بمعنى أن

---

[30] - إشارة إلى قوله تعالى: قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون [الجاثية: 14].

كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلة توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ، إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبداً"[31].

2 - السيوطي: قال السيوطي في أقسام النسخ من الإتقان ما نصه: "ما أمر به لسبب ثم يزول السبب كالأمر حين الضعف والقلة والصبر والصفح ثم نسخ بإيجاب القتال، وهذا في الحقيقة ليس نسخاً بل هو من قسم المنسأ كما قال تعالى أو ننسأها فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى، ثم استمر السيوطي في ترديد كلام الزركشي نفسه دون أن ينسبه إليه"[32].
وفي تعقيب للشيخ رشيد رضا على آية السيف قال: "ويكثر في كلام الذين كثروا الآيات المنسوخة أن آية كذا وآية كذا من آيات العفو والصفح والإعراض عن المشركين والجاهلين والمسالمة وحسن المعاملة منسوخة بآية السيف. والصواب أن ما ذكروه من هذا القبيل ليس من النسخ الأصولي في شيء"[33]. ثم استدل على صحة ما ذهب إليه بقول السيوطي آنف الذكر وغيره من العلماء.

3 - الزرقاني: قسم العلماء في موقفهم من الناسخ والمنسوخ إلى ثلاثة أصناف: مقصر ومقتصد وغال، وقال عن الصنف الثالث: هم الذين تزيدوا، فأدخلوا في النسخ ما ليس منه، بناء على شبه ساقطة، وعدّ منهم: أبو جعفر النحاس في كتابه [الناسخ والمنسوخ]، وهبة الله بن سلامة، وأبو عبد الله بن محمد بن حزم، وقال في رده عليهم: ونستطيع أن نرد أسباب هذا الغلط إلى أمور خمسة:
"أولها: ظنهم أن ما شرع لسبب ثم زال سببه، من المنسوخ، وعلى هذا عدوا الآيات التي وردت في الحث على الصبر وتحمل أذى الكفار أيام ضعف المسلمين وقلتهم منسوخة بآيات القتال، مع أنـها ليست منسوخة،

---

[31] - البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (745 - 794 هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه: 2/42.
[32] - الاتقان للسيوطي: 3/66 (849 - 911).
[33] - تفسير المنار، رشيد رضا: 10/166.

بل هي من الآيات التي دارت أحكامها على أسباب، فالله أمر المسلمين بالصبر وعدم القتال في أيام ضعفهم وقلة عددهم، لعلة الضعف والقلة ثم أمرهم بالجهاد في أيام قوتـهم وكثرتـهم، لعلة القوة والكثرة. وأنت خبير بأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً، وأن انتفاء الحكم لانتفاء علته لا يعد نسخاً، بدليل أن وجوب التحمل عند الضعف والقلة لا يزال قائماً إلى اليوم، وأن وجوب الجهاد والدفاع عند القوة والكثرة لا يزال قائماً كذلك إلى اليوم"[34].

4 - سيد قطب: ساق الأستاذ سيد قول ابن القيم في مراحل الجهاد ثم قال معقباً:
"إن تلك الأحكام المرحلية ليست منسوخة بحيث لا يجوز العمل بـها في أي ظرف من ظروف الأمة المسلمة بعد نزول الأحكام الأخيرة في سورة التوبة. ذلك أن الحركة والواقع الذي تواجهه في شتى الظروف والأمكنة والأزمنة هي التي تحدد - عن طريق الاجتهاد المطلق - أي الأحكام هو أنسب للأخذ به في ظرف من الظروف، في زمان من الأزمنة. في مكان من الأمكنة! مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة التي يجب أن يصار إليها، متى أصبحت الأمة المسلمة في الحال التي يمكنها من تنفيذ هذه الأحكام؛ كما كان حالها عند نزول سورة التوبة، وما بعد ذلك أيام الفتوحات الإسلامية التي قامت على أساس من هذه الأحكام الأخيرة النهائية. سواء في معاملة المشركين أو أهل الكتاب"[35].
وقال في موضع آخر:
"إن هذه النصوص التي يلتجئون إليها نصوص مرحلية تواجه واقعاً معيناً. وهذا الواقع المعين قد يتكرر وقوعه في حياة الأمة المسلمة. وفي هذه الحالة تطبق هذه النصوص المرحلية لأن واقعها يقرر أنـها في مثل تلك المرحلة التي واجهتها تلك النصوص بتلك الأحكام. ولكن هنا ليس معناه أن هذه هي غاية المنى؛ وأن هذه هي نـهاية خطوات هذا الدين.. إنما معناه أن على الأمة المسلمة أن تمضي قدماً في تحسين ظرفها؛ وفي إزالة العوائق من طريقها؛ حتى تتمكن في النهاية من تطبيق

---

[34] - مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الكتاب العربي: 2/197.
[35] - في ظلال القرآن، ص: 1580.

الأحكام النهائية الواردة في سورة التوبة، والتي كانت تواجه واقعاً غير الواقع الذي واجهته النصوص المرحلية.
ويمضي سيد قطب في هجومه على الذين يحاولون أن يجدوا في النصوص المرحلية مهرباً من الجهاد في معناه الشامل:
"فإذا كان المسلمون اليوم لا يملكون بواقعهم تحقيق هذه الأحكام؛ فهم - اللحظة ومؤقتاً - غير مكلفين بتحقيقها - ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها - ولهم في الأحكام المرحلية سعة يتدرجون معها حتى ينتهوا إلى تنفيذ هذه الأحكام الأخيرة عندما يكونون في الحال التي يستطيعون معها تنفيذها.. ولكن عليهم ألا يلووا أعناق النصوص النهائية لتوافق أحكام النصوص المرحلية.
وعليهم ألا يحملوا ضعفهم الحاضر على دين الله القوي المتين. وعليهم أن يتقوا الله في مسخ هذا الدين وإصابته بالهزال بحجة أنه دين السلم والسلام! إنه دين السلم والسلام فعلاً، ولكن على أساس إنقاذ البشرية كلها من عبادة غير الله، وإدخال البشرية، كافة في السلم كافة"[36].
تعليق: انتبه سيد قطب إلى معالجة مشكلة لم تكن معروفة في العصور السابقة كما هي معروفة في هذا العصر، وذلك أن المتأثرين بالمستشرقين اجتزأوا مرحلة من مراحل الجهاد ففصلوها عما قبلها وبعدها، ثم زعموا أنـها هي الموقف الإسلامي الشرعي من الجهاد، ومن الأدلة الشرعية التي يبررون بـها صحة موقفهم قوله تعالى: قاتلوا الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، وقوله تعالى: فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً [النساء: 90]. ويخرجون من وراء الاستدلال بـهاتين الآيتين وغيرهما على أن الجهاد في الإسلام دفاعي وليس هجومياً - أي جهاد الطلب -.. ثم يسودون صفحات لا حصر لها ليثبتوا بأن الإسلام دين السلام، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله، ثم يتقدمون خطوة أخرى عندما يستدلون بقوله تعالى: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم

---

[36] - في ظلال القرآن، ص: 1582، وفقه الدعوة اختيار أحمد حسن: ص 217 - 222، وأهمية الجهاد.

أن تبروهم وتقسطوا إليهم على إقامة علاقات ود وصداقة ومحبة مع اليهود والنصارى والعلمانيين.. وأخيراً يسفرون عن مقاصدهم الخبيثة وذلك عندما يقولون: اليهود والنصارى من أهل الإيمان ولا يصح إطلاق القول بكفرهم، كما أنه لا يصح وخاصة في هذا العصر فرض الجزية عليهم لأنـهم مواطنون مثلنا.
ويشير سيد رحمه الله في هامش الظلال إلى مدرسة الشيخ محمد عبده التي تدعو إلى تضخيم العقل على حساب النقل، وهذه المدرسة كانت تمثل بداية الانحراف في هذا العصر.
غير أن سيد وهو يتصدى للذين يحاولون تشويه مفهوم الجهاد لا يفوته التأكيد على أن المسلمين اليوم ضعاف ولهم في أحكام الجهاد المرحلية سعة يتدرجون فيها حسب نمو قوتـهم وإمكاناتـهم.

علماء السلف:
قال د. علي بن نفيع العلياني: "ولكون سورة براءة المقررة لحكم المرحلة الأخيرة من مراحل الجهاد هي آخر السور نزولاً اعتبر علماء السلف أن المرحلة الأخيرة للجهاد ناسخة لبقية المراحل، قال ابن العربي: [قوله تعالى فإذا انسلخ الأشهر الحرم.. الآية ناسخة لمائة وأربع عشرة آية]. والقول بالنسخ مروي عن الضحاك بن مزاحم، والربيع بن أنس، ومجاهد، وأبو العالية، والحسين بن الفضل، وابن زيد، وموسى بن عقبة، وابن عباس، والحسن، وعكرمة، وقتادة، وابن الجوزي، وعطاء.
وكذلك قال بالنسخ: ابن تيمية، والشوكاني، والقرطبي، وجمع من العلماء في شتى العصور الإسلامية، يقول صديق حسن خان [وما ورد في موادعتهم أو في تركهم إذا تركوا المقاتلة فذلك منسوخ باتفاق المسلمين]"[37].
وهاهنا يبرز أمامنا سؤال مهم لا ينبغي لنا إهماله: هل هناك تعارض بين ما قاله الزركشي ومن نحا نحوه من المتأخرين، وبين قول علماء السلف بالنسخ؟!.
يجيبنا على هذا السؤال مؤلف كتاب أهمية الجهاد فيقول:

---

[37] - أهمية الجهاد، مصدر سابق، ص: 148 - 149، ومن المراجع التي اعتمد عليها: أحكام القرآن لابن العربي، وابن كثير، والبغوي، وفتح القدير للشوكاني، والقرطبي، والجصاص، وزاد المسير، والاحتجاج بالقدر لابن تيمية، والروضة الندية.

"والحقيقة أن الزركشي رحمه الله صادق في قوله: إن مراحل يعمل بـها في الظروف المشابـهة للظروف التي شرعت فيها مخطيء في تضعيفه لأقوال السلف القائلين بالنسخ لأن السلف لا يقصدون بالنسخ المعنى الذي هو يقصده [وهو الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبداً]، وإنما يقصدون معنى أعم وأشمل من ذلك، فإن النسخ عندهم يشمل التقييد والبيان والتخصيص ونحو ذلك، فليس للزركشي أن يحاكم السلف إلى اصطلاح المتأخرين وهذه غفلة منه رحمه الله عن قصد السلف بالنسخ، يقول ابن تيمية عن مفهوم النسخ عند السلف: [.. ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرها وتنسخها أو بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم تفسرها، فإن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تبين القرآن وتدل عليه وتعبر عنه وكانوا يسمون ما عارض الآية ناسخاً لها، فالنسخ عندهم: اسم عام لكل ما يرفع دلالة الآية على معنى باطل وإن كان ذلك المعنى لم يرد بـها، وإن كان لا يدل عليه ظاهر الآية بل قد لا يفهم منها، وقد فهمه منها قوم فيسمون ما رفع ذلك الإيهام والإفهام نسخاً، وهذه التسمية لا تؤخذ عن كل واحد منهم.

وأصل ذلك من إلقاء الشيطان ثم يحكم الله آياته فما ألقاه الشيطان في الأذهان من ظن دلالة الآية على معنى لم يدل عليه سمى هؤلاء ما يرفع ذلك الظن نسخاً كما سموا قوله تعالى: فاتقوا الله ما استطعتم . ناسخاً لقوله: وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء . وأمثال ذلك مما ليس هذا موضع بسطه][38].

.. والحقيقة أن الخلاف بين الزركشي وعلماء السلف هو في مسمى النسخ لا في العمل بمراحل الجهاد، وإلا فالسلف لا يكلفون المستضعف من المسلمين الذي حاله مشابـهة لحال الرسول في مكة بالقتال، وإنما الواجب عليه أن يجتهد لكي يصل إلى حال قوة يجاهد فيها الكفار لأن الحال التي توفي عليها الرسول صلى الله عليه وسلم هي تمام الدين التي يجب على

---

[38] - مجموع الفتاوى: 13/29.

المسلمين بذل قصارى الجهاد لتحقيقها في الواقع البشري"اهـ[39].
إذن: لقد اتفق علماء السلف والعلماء المتأخرون على أن سورة التوبة لم تلغ أحكام الآيات التي سبقتها بحيث لا يجوز العمل بـها في أي حالة من الحالات التي تمر بـها الأمة الإسلامية.. ومتفقون أيضاً أن الخائف الضعيف غير مطلوب منه الجهاد، لكنه يجب أن يعمل من أجل استرداد قوته وعزته.
هذا وفي الحلقة القادمة سوف نعرض - إن شاء الله - أقوال المخالفين، ثم نناقشها ونبين عوارها ومخالفتها للأدلة الشرعية ولأقوال كبار أئمة الإسلام .

نحو كيان جديد (الحلقة 35)
الحوار بين أهل السنة

السلفية بين الولاة والغلاة

الاسـتطاعة
3 – 4

محمد سرور زين العابدين

<u>قول المخالفين في الخروج</u>

تأكيد نسخ سورة التوبة لمراحل الجهاد التي سبقت نزولها باب لابد أن يلج المخالفون منه إلى تقريرهم

---

[39] - أهمية الجهاد، ص: 151.

وجوب الخروج على الحكام المبدلين لشريعة الله، ولهذا فقد وقع اختياري على قول لصاحب كتاب "الفريضة الغائبة"، وذلك لأن أقوالهم الأخرى لا تختلف عما وقع عليه اختياري، ولأن محمد عبد السلام فرج يمثل الموقف الوسط بين جماعات الجهاد:
استدل محمد عبد السلام فرج رحمه الله بأقوال المفسرين الذين قالوا: إن آية السيف نسخت كل عهد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أحد من المشركين، وكل عقد وكل مدة، ثم قال معقباً على ما عرضه من أقوال: "ولا أعلم أحداً خالف القول بالمنسوخ سوى السيوطي قال في كتاب الإتقان: [الأمر حين الضعف والقلة بالصبر والصفح، ثم نسخ بإيجاب القتال، وهذا في الحقيقة ليس نسخاً، بل هو من قسم المنسأ كما قال تعالى: أو ننسأها. فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى، وبـهذا يضعف ما لهج به كثيرون من أن الآية في ذلك منسوخة بآية السيف، وليس كذلك بل هي من المنسأ، وقال مكي:
ذكر جماعة أن ما ورد من الخطاب مشعراً بالتوقيت والغاية مثل قوله تعالى: فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره. محكم غير منسوخ لأنه مؤجل بأجل.] انتهى كلام السيوطي.
وأضاف (عبد السلام فرج) قائلاً:
"وبالرغم من مخالفة السيوطي لكل الأقوال السابقة مما لا يدع مجالاً للشك بأن الصواب هو الأخذ بالقول الأول، فبالإضافة إلى ذلك فإنه قد أخطأ من فهم أن القول بعدم نسخ آيات العفو والصفح يعني فريضتي الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإسقاط فرض الجهاد، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (الجهاد ماض إلى يوم القيامة)، ويقول الأستاذ عبد الوهاب خلاف في كتابه علم أصول الفقه: فإن كونه ماضياً إلى يوم القيامة يدل على أنه باق ما بقيت الدنيا، وتعطيل الجهاد بحجة النسأ ليس إيقافاً للغزو فقط ولكنه إيقاف لنية الغزو أيضاً، وخطورة ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: (من لم يغز أو تحدثه نفسه

بالغزو مات ميتة جاهلية) [40] . رواه مسلم عن أبي هريرة. والأمر المتفق عليه أن المسلمين كي يجاهدوا لابد لهم من قوة ولكن كيف تتحقق هذه القوة وأنت معطل لفرض الجهاد، والله سبحانه وتعالى يقول: ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم.. [التوبة: 46]. فكونك لا تريد الخروج يتلوه ترك للعدة، فالمسلم الذي أوقف فرض الجهاد كيف له أن يأخذ بأسباب القوة؟.

وتحت عنوان: مواقف المسلمين في القتال يقول: "جيوش المسلمين على مر العصور قليلي[41] العدد والعدة، وكانوا يواجهون جيوشاً أضعافهم، ويحتج البعض بأن تلك خصوصية للرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام. والرد على ذلك هو أن وعد الله بالنصر دائم مادامت السماوات والأرض، ومن الممكن أن تطلع على ما حدث مع ظهير الدين بابر الذي واجه الملك الهندوكي - دانا سنجي - وجيشه عشرون ألفاً فقط وجيش الملك الهندوكي مائتا ألف، وانتصر القائد المسلم بعد توبته عن شرب الخمر.. وغيره كثيرون.

وهناك من يدعي أننا نعيش في مجتمع مكي مجتهداً في ذلك كي يحصل على رخصة بترك الجهاد في سبيل الله، فإن من يضع نفسه في مجتمع مكي لكي يترك فريضة الجهاد فعليه أن يترك الصوم والصلاة، وأن يأكل الربا لأن الربا لم يحرم إلا في المدينة.. والصواب هو أن مكة هي فترة نشأة الدعوة، ويقول الله سبحانه وتعالى: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً [المائدة: 3]، وهذه الآيات قد نسخت كل هذه الأفكار النمطية بحجة أننا مكيون، فنحن لا نبدأ كما بدأ النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن نأخذ بما انتهى إليه الشرع".

ثم ينتهي رحمه الله إلى إقرار القاعدة التالية: ".. وبالنسبة للأقطار الإسلامية فإن العدو يقيم في ديارهم.. بل أصبح العدو يمتلك زمام الأمور وذلك العدو هم الحكام الذين انتزعوا قيادة المسلمين ومن هنا فجهادهم فرض عين"، ومن أجل إقرار هذه القاعدة ألف كتابه (الفريضة الغائبة)، وقد نقلنا عنه من قبل

---

[40] - الذي في صحيح مسلم: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من مات ولم يغزُ، ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق. [شرح صحيح مسلم، للنووي:14/56].

[41] - كذا وردت، والصحيح: قليلة العدد.

قوله: إن البدء بالقضاء على الاستعمار في بلادنا عمل غير مجدٍ وغير مفيد وما هو إلا مضيعة للوقت، ويرى أن ميدان الجهاد الأول هو اقتلاع تلك القيادات الكافرة واستبدالها بالنظام الإسلامي الكامل ومن هنا تكون الانطلاقة" [42] .

<u>رد على بعض أخطائه:</u>

1 - ليس صحيحاً قوله: "ولا أعلم أحداً خالف القول بالمنسوخ سوى السيوطي، وقد رأينا فيما مضى أن الزركشي الذي عاش قبل السيوطي بحوالي مائة عام قال بـهذا القول، كما رأينا أن من العلماء الذين قالوا به بعد السيوطي: الزرقاني، ورشيد رضا، وسيد قطب. ومن جهة أخرى فإن خلاف الزركشي وأضرابه مع علماء السلف هو في مسمى النسخ لا في العمل بمراحل الجهاد[43] .

2 - خلط الكاتب قوله بقول الأستاذ عبد الوهاب خلاف، فالأخير لم يتعرض لمعنى النسخ ولا لمراحل الجهاد وأقوال العلماء في ذلك، وإنما ساق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الجهاد ماض إلى يوم القيامة"، ثم عقب عليه بقوله: [فإن كونه ماضياً إلى يوم القيامة يدل على أنه باق ما بقيت الدنيا] مع تأكيده على أن هذا النص النبوي لا يقبل النسخ[44]، وهذا لا خلاف عليه بين ا لعلماء الذين عرضنا أقوالهم فيما مضى من هذا البحث، وليس بينهم من يرى إسقاط فريضتي الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما ادعى مؤلف كتاب (الجهاد الفريضة الغائبة) غفر الله له، وكان من الأولى فصل كلامه عن كلام عبد الوهاب خلاف.

3 - استشهد المؤلف بقصة ظهير الدين بابر الذين قاتل الملك الهندوكي (دانا سنجي) وانتصر عليه مع أن جيش بابر كان عدد أفراده عشرين ألفاً وعدد جيش الملك الهندوكي كان مائتي ألفاً.. وليت المؤلف ذكر لنا المصدر الذي اعتمد عليه لنعود إليه، ونناقشه في صحة إسقاط هذا الحدث على الواقع.

---

[42] - الجهاد الفريضة الغائبة، محمد عبد السلام فرج، من إصدارات الحركة الإسلامية في مصر.

[43] - سبق الكلام على هذه المسألة، وسوف نعود إليها من خلال عرض أقوال علماء الأمة، وبيان الأدلة التي يستدلون بـها.

[44] - علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، دار القلم، الكويت: ص: 227.

هذا وقد تيسر لي بعد البحث الاطلاع على بحث قيم في كتاب حاضر العالم الإسلامي كتبه الأمير شكيب أرسلان وأسماه " تاريخ الممالك الإسلامية الهندية"، وسأنقل فيما يلي خلاصة ما ورد فيه عن هذه الحرب:

"اختلف السلطان إبراهيم الثاني صاحب دلهي مع عمه فاستعان الأخير بأمير كابل - بابر -، وبـهذا تسنى له - أي لبابر - أن يشن الغارة على البنجاب (1525) بجيش لا يتجاوز 13 ألف مقاتل لكنهم جميعاً من المنجذين في الحروب ذوي البصائر في القتال. وقد جرّ بابر معه المدافع التي لم تكن معروفة يومئذٍ في الهند، فنهد إليه السلطان إبراهيم بمائة ألف مقاتل وألف فيل، ودارت رحى الحرب في سهل بانيبات في 21 نيسان عام 1526 أو نـهار الجمعة 8 رجب سنة 932 فأقام بابر في وجه الفيلة حواجز من العجلات المسلسلة بينها المدافع، بحيث أبطل عمل الأفيال، ومن الجهة الأخرى كان عنده رماة بالمدافع يتقنون الرمي على نمط العثمانيين في القرن السادس عشر. فألقت قذائفهم الرعب في قلوب الهنود فهلك إبراهيم في الواقعة وهلك معه 25 ألفاً من جنوده وتشتت الباقي. ودخل بابر دلهي ظافراً ونودي به ملك ملوك الهند في جامع دلهي الأعظم، وسار ولده همايون فاحتل آغرا العاصمة الثانية وغيرها من الحواضر.

فقامت قيامة الهند لهذه الواقعة وأخذ راجوات الهندوس يتأهبون للقتال بدعوة سانغا ملك تشيتور.. وحشد معه زعماء المناطق، وانضم إليهم محمود اللوردي أخو السلطان المقتول فبلغت جيوش الحلفاء مائة ألف مقاتل من أفرس خيالة الشرق، والتقى الجمعان في سهل كانفاها على مقربة من آغرا، فانتهت المعركة بدبرة الهنود، وكانت الكلمة للمدفع كما في المعركة السابقة.. وهكذا بقي بابر خمسة أعوام يجالد ويجاهد حتى دوخ الهند وأسس فيها السلطنة المغولية التي استمرت قرنين في الهند وكان لها تاريخ طويل عريض". اهـ[45]

ومن خلال عرض واقعة قتال ظهير الدين بابر مع الملك الهندوسي (دانا سنجي) نعلم اختلاف الحالين: حال بابر

---

[45] - حاضر العالم الإسلامي، المجلد الثاني، الجزء الرابع، ص: 296 – 297، هذا والذي ذكرته موجز ما كتبه المؤلف.

وحال الجماعات الإسلامية سواء التي كان يعنيها محمد عبد السلام فرج أو غيرها من الجماعات التي لا تزال تعمل في الساحة العربية بعد إعدام الأخ رحمه الله، وذلك للأسباب الآتية:

أ - بابر أحد أحفاد تيمورلنك الشهير، كما أنه من جهة الأم ينتسب إلى سلالة جغتاي الجنكيزية، وينتسب أيضاً إلى جنكيز فاتح الدنيا من جهة الأب، وكل منسوب في المغول أو الترك إلى جنكيز أو تيمور يرى لنفسه حقاً شرعياً في الملك، فكان بابر من ورثة ذلك الحق الشرعي والمجد الأثيل.

ب - كان بابر أميراً على كابل وقندهار، وقد تجمع حوله "فئام من الأفغان الذين أحلى شيء عندهم القتال والنـزال"، وعندما استنجد به عم السلطان إبراهيم - صاحب دلهي - استطاع بابر أن يجيش جيشاً مقداره 13 ألف مقاتل من أمهر المقاتلين.

ج - عندما قاتله (دانا سنجي) ملك الهندوس كان بابر قد أصبح ملك ملوك الهند، ومن جهة أخرى فقد كان يملك أسلحة متطورة وغير معروفة في الهند، ولهذا فقد قال راوي الواقعة: "وكانت الكلمة للمدفع كما في المعركة السابقة".

د - ومع ذكر هذه الأسباب التي كانت من أهم عوامل تحقيق هذا الانتصار لابد من التأكيد على حسن قيادة بابر، ودماثة أخلاقه، وشدة بأسه، وشغفه بالعلم والأدب[46] .

وقصارى القول: نعم لقد كان المسلمون في حروبـهم ينازلون أضعاف عددهم من المشركين، ولعل واقعة ظهير الدين بابر أحد الأمثلة على ذلك.. وكانوا رغم تفاوت العدد يحققون انتصارات كاسحة على عدوهم، ولكن هذه المسألة محكومة بضوابط شرعية سنتحدث عنها في الصفحات القليلة القادمة.

4 - من الاستعجال الذي لا مبرر له أن يستشهد المؤلف في رده على مخالفيه بقوله تعالى: ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين [التوبة:]، لأن هذه الآية نزلت في المنافقين أمثال: عبد الله بن أبي بن سلول، والجدُّ بن قيس، وغيرهما، ونفاق هؤلاء اعتقادي وليس عملياً،

---

[46] - حاضر العالم الإسلامي، المجلد الثاني، الجزء الرابع، ص: 296 – 297.

ولهذا فقد كره الله خروجهم مع جيش الصحابة لأنـهم لو خرجوا لمشوا بالنميمة بين المجاهدين، وسيكون خروجهم ضرراً وهدماً وتخريباً، ولن يكتب الله لهم ولأمثالهم أجر المجاهدين.
من منطلق حسن ظني بالأخ رحمه الله أقول: لا أظن أنه كان يرمي علماء الأمة ودعاتـها وجماعاتـها بالنفاق، وبشكل أخص: لا أعتقد أنه كان يتـهم: الزركشي، والسيوطي، والزرقاني، ورشيد رضا، وسيد قطب بالنفاق، وذلك لأنني أحسن الظن به - كما أسلفت - ، ولأن القوم يحبون سيد قطب رحمه الله، بل لا أعتقد أن المؤلف قد توسع في دراسة هذه المسألة، لأنه قد قال بكل وضوح بأن السيوطي وحده قد انفرد بـهذا القول، وليس الأمر كما قال، ولكنه الاستعجال!!.
5 - الذين قالوا: إن النسخ في هذا الموضع لا يعني إلغاء مراحل الجهاد، عندهم أسباب مهمة، وأدلة ليس فيها أدنى ريب أو غموض، ولم يقل أحد منهم: "إننا نعيش في مجتمع مكي مجتهداً في ذلك كي يحصل على رخصة بترك الجهاد في سبيل الله" كما ادعى المؤلف غفر الله له، وجُّل الذي قالوه: تمر بالمسلمين حالات من الضعف والهوان تشبه الحالة التي كان عليها المسلمون في المرحلة الأولى من مراحل الدعوة، والله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وهذا مما سيأتي تفصيله إن شاء الله.
فكيف يلزمهم المؤلف بما لم يلزموا به أنفسهم، وذلك في قوله: "فإن من يضع نفسه في مجتمع مكي لكي يترك فريضة الجهاد فعليه أن يترك الصوم والصلاة، وأن يأكل الربا لأن الربا لم يحرم إلا في المدينة"؟!.
مما لا شك فيه أن الله سبحانه وتعالى قد أتم دينه، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تركنا على المحجة التي لا يزيغ عنها إلا هالك، وليست هذه الأمور خاضعة لافتراضات تمليها الأهواء أو العواطف.
أما إذا كان المؤلف رحمه الله يقصد من حديثه عن المرحلتين: المكية والمدنية طائفة أخرى، فقوله مبهم وإيجازه مخل.

المخالفون منذ النشأة وحتى المحنة

ما هي إمكانات وقدرات هذه الجماعات التي يتحدث باسمها محمد عبد السلام فرج - رحمه الله - وغيره من كتّاب وقادة التيار الجهادي.. وهل يعتبر خروجهم شرعياً؟! [47] .

لابد لي للجواب على هذا السؤال من تلخيص ما كنت قد كتبته عنهم، مع إضافة ما يقتضيه الحال ومراعاة الإيجاز قدر الاستطاعة:

يضع اللبنات الأولى لتأسيس هذه الجماعة مجموعة من شباب الجامعات من أصحاب العواطف المتقدة، ولكنهم يفتقدون الحد الأدنى: من العلوم الشرعية ومن الخبرة والمراس. هؤلاء الشباب من خلال أنشطتهم الدعوية يصدمهم دعم إدارة الجامعة لدعاة الفساد والزندقة، وحربـها لدعاة الخير والإصلاح، وقد يرفعون مظلمتهم للوزارة والوزير فيزيدهم ذلك قناعة بفساد الرأس وشدة عداوته للدين والمتدينين.

يبدأ مؤسسو هذه الجماعة بنشر أفكارهم على مراحل، فالمرحلة الأولى عادية لاشيء فيها سوى الدراسات الإسلامية والتطبيقات السلوكية، وتشجيع التردد على المساجد، والتحذير من رفقاء السوء، ومن يطمئنون إليه ويعتقدون أنه سوف يستجيب إليهم يفاتحونه بوجوب العمل على تغيير هذا الواقع، ولا طريق إلى هذا التغيير سوى طريق الجهاد.

وفي هذه المرحلة يسأل الأنصار والأتباع عن موقف العلماء والجماعات من التغيير عن طريق القوة؟!، وهذا السؤال يقود إلى أسئلة لابد للإجابة عليها من الصراحة، كما أنه لابد من إقناع الأتباع بالأدلة والبراهين لاسيما وأن معظم هؤلاء الشباب لا تنقصهم القوة في عرض أفكارهم وفي الدفاع عنها.. وكل هذا يقود إلى النتائج التالية:

العلماء: علماء سلطة لا يخالفون أولياء أمورهم في كل ما يأمرونـهم به.

الجماعات الإسلامية ضلت الطريق، وميعت العمل الإسلامي، وجعلت من الوسائل غايات.

---

[47] لا يفوتنا هنا تأكيد الحقيقة التالية التي طالما تعرضنا لها: إن تطرف الطغاة في بلادنا، وممارسة أشد أنواع الإرهاب ضد صفوة شباب الأمة الصالحين المصلحين، هو الذي يلجئ هؤلاء الشباب إلى ركوب هذا المركب.. وأقرب مثال على ذلك قيادة الجيش التركي الذين يطبقون علمانيتهم تطبيقاً يناقض مفاهيم العلمانية، ومن ذلك: إلغاء معظم المدارس الشرعية، ومنع الحجاب الشرعي في المدارس والجامعات وسائر مؤسسات الدولة، والهيمنة المطلقة على شؤون المساجد، وغير ذلك كثير.

أما النظام فهناك استعداد نفسي كبير عند الاتباع لقبول ما يقال عنه لأنـهم يرون بأعينهم دعم إدارة الجامعة للفساد والزندقة، كما أنـهم يرون ويسمعون أمثلة كثيرة على ذلك خارج نطاق الجامعة.. وإذن لا فائدة مرجوة من العلماء والجماعات، ولا طريق إلى التغيير إلا طريق الجهاد، لاسيما وأن قتال الطواغيت فرض عين على كل مسلم، وغيرهم مستهتر وغير مبال بـهذه الفريضة.

معظم العلماء والجماعات يقابلون شدة هؤلاء الشباب بشدة مماثلة، ومن هؤلاء من يتخذ من الهجوم على هؤلاء الشباب وسيلة لاسترضاء السلطة الحاكمة، ولإقناعها بأنـهم ليسوا دعاة إرهاب وتطرف.. ويؤدي تبادل الاتـهامات بين الطرفين إلى انقطاع أواصر الحوار.. وهو (الحوار) الوسيلة الراقية لرأب الصدع، ووضع الحلول الشرعية المناسبة للقضايا المعاصرة التي تعددت فيها الاجتهادات، وكان من المفترض أن يحترم الصغير علم وتجربة من هو أكبر منه، كما أنه من المفترض أن يتسع صدر الكبير لأخطاء وانفعالات من هو في سن أبنائه.. ومما يزيد الطين بلة أن دعاة التيار العلماني يزجون بأنفسهم داخل هذه المعركة انتصاراً لطرف ضد طرف أو لتيئيس الناس من الإسلام وحملته من كافة الاتجاهات.

دعاة الطرف الأول من الشباب الذين قطعوا أواصر الحوار مع العلماء والجماعات يعكفون على قراءة الآيات والأحاديث، ويفسرونـها تفسيراً يستوحونه من شدة ظلم الطغاة لهم، ونفاق بعض المنسوبين إلى العلم لأعداء الإسلام.. ويخرجون من هذه القراءات، ومن الأجواء النفسية الخانقة التي يختلط فيها عندهم هذا بذاك بنتيجة خلاصتها أنه لابد من البدء بالجهاد بالمتيسر من الأفراد والعتاد، ويرافق ذلك كله اهتمامهم بثقافة حرب العصابات داخل المدن وخارجها، وقد ينجحون في أول خطوة يخطونـها في هذا الطريق في اغتيال أحد رؤوس الفساد في النظام الحاكم، وقد ينجحون أيضاً في اغتيال ثانٍ وثالث ورابع، وقد يصعب معرفة من يقف وراء هذه الاغتيالات في البداية، لأن عدد أفراد الجماعة قليل، ويسهل على مثل هذا العدد المحافظة على السرية.

يبهر هذا النجاح الذي تحققه الجماعة كثيراً من الشباب الذين تعجبهم القوة، ويظنون أن يوم الطغاة قد اقترب، فيقبلون على الانضمام إلى هذه الجماعة، لكن هؤلاء الذين ينضمون إليها لا يتجاوزون فئة معينة يسهل عليها الخروج كما سهل عليهم الدخول، وقد يتمكن العدو من اختراق هذه الجماعة من خلال هؤلاء الذين انتسبوا إليها في ظروف استثنائية لم يقدروا عواقبها.

غير أن فئة أخرى من الشباب لا ترى التسرع في أمر يحتاج إلى تثبت، وعندما يسألون الذين يدعونـهم عن مدى قوة هذه الجماعة وعدد أفرادها تأتيهم أجوبة متناقضة، لعل منها: هذه أمور سرية لا نستطيع الخوض فيها!!، فيكون رد هؤلاء المتعقلين: أنتم تدعوننا إلى أمر قد يكون من عواقبه: السجن، والتعذيب، والقتل، وتشريد عوائل كثيرة، فكيف تريدون منا الاستجابة لكم في أمور مجهولة عندنا، وقد تكون مجهولة عندكم أيضاً، وهذا يعني أننا قد نكون ضحية لكم، وأنتم ضحية لغيركم، وهكذا يتبين في يوم من الأيام - لا ينفع فيه الندم أو التراجع - أن الجميع ضحية لرجل مغامر.

إن جميع المحاولات السابقة فشلت فشلاً ذريعاً، وعندما تكشفت الحقائق في قاعات المحكمة، تبين للأفراد الفرق الشاسع بين ما يسمعونه على ألسنة قادتـهم في هذه القاعات، وبين ما كان يقال لهم عند انتمائهم إلى هذه الجماعة، بل وفي جميع مراحل مسيرتـهم التنظيمية، ولو عرفوا الحقيقة كما هي لما ساروا في هذا الطريق الذي انتهى بـهم إلى نـهاية مأساوية.

لم يكن عدد الذين يحملون السلاح في جميع المحاولات السابقة يبلغ المئات، وقد يكون هناك ضعف أو أضعاف هذا العدد من غير القادرين على حمل السلاح، وقد يعتقل النظام عشرات أضعاف هذا العدد لأنه - النظام - عدو شرس لا يحارب جماعة بعينها، ولا يفرق بين الذين يحملون السلاح، وبين الذين لا يحملونه، فكلهم عنده كيان واحد، وإن اختلفت أسماؤهم وتباينت أعمالهم.

<u>أحداث سورية:</u> وكمثال على هذه المحاولات الفاشلة نختار أحداث سورية في نـهاية السبعينيات وأوائل الثمانينيات، وذلك للأسباب التالية:

للدعوة الإسلامية ممثلة بالجماعات والعلماء مكانة جيدة - عند المواطنين المسلمين في هذه البلاد، وقد كانت من الناحية التاريخية تأتي (من حيث القوة والانتشار) في المرتبة الثانية بعد مصر.
لا يختلف أحد من العلماء والهيئات الإسلامية[48] على خبث النظام النصيري الحاكم ومروقه من الدين، ولهذا لم تسلم أية جماعة من بطش أجهزة الأمن، لا فرق في ذلك بين صوفي وسلفي أو بين المستقلين والمنتمين.
كان النظام الحاكم يعاني عزلة عربية بسبب وقوفه مع إيران ضد العراق، وبطشه بالفلسطينيين وعموم أهل السنة في لبنان، وعداوته لمصر متذرعاً بخيانة النظام وعقده اتفاقية (كامب ديفيد) مع العدو الصهيوني، وهذا حق أراد به باطلاً لأنه يلهث وراء مثل هذه الاتفاقية منذ عام 1967.. ولهذا فقد وجد بعض الإسلاميين دعماً قوياً ومكشوفاً من دولتين عربيتين مجاورتين لسورية، ودعماً أقل من أكبر دولة خليجية، ورغم هذه الأسباب المهمة، والتي يتعذر وجود مثيل لها في حقبة التسعينيات، فإن الإسلاميين لم يحققوا من هذا الخروج غير الخسائر والنكبات.
ومما يثير الاستغراب أن الذين ركبوا هذه الموجة كانوا يعرفون جيداً تشتت الصف الإسلامي، كما أنـهم كانوا يعرفون بأننا جميعاً غير قادرين على تغيير هذا النظام، والأشد استغراباً أنـهم في تصريحاتـهم العلنية يقولون خلاف ذلك.
كنت أتساءل مع الذين تيسر لي اللقاء بـهم من مختلف الفئات: كم عددنا جميعاً؟، فيأتي الجواب: يكاد لا يبلغ الألفين، فأقول: كيف تريدون إسقاط نظام يبلغ عدد قوات جيشه وأمنه حوالي نصف مليون، ناهيكم عن وقوف الطائفة النصيرية وطوائف أخرى مع هذا النظام ضد كل شيء عنوانه الإسلام؟!، فأسمع من الذين أوجه إليهم هذا السؤال أجوبة غريبة: منها: أنسيت المدد الرباني؟، ومنها: سوف يستجيب الشعب لنداءاتنا، ويخرج إلى الشوارع العامة متظاهراً ومنادياً بسقوط النظام.. وسوف ينقسم الجيش على نفسه، وصبرنا حتى ضج الصبر من صبرنا: فلا الجيش انقسم على

---

[48] - هذا في تلك المرحلة، أما اليوم فهو مسلم ووطني وبطل عند بعض هؤلاء، مع أنه لا يزال كما كان في خبثه ولؤمه وعداوته للإسلام والمسلمين!!.

نفسه، ولا الشعب خرج متظاهراً، ولم يبلغ الخارجون مستوىً من الإيمان والصدق مع الله يستحقون أن يكافؤوا عليه بالمدد الرباني، وهكذا فقد انتهت الأمور إلى نـهاية أليمة ما زلنا نتجرع ويلاتـها. ومن جهة أخرى فإن هذا الخروج الارتجالي كان سبباً في تبديد جهود كبيرة لو سلمت من أذى هؤلاء الخارجين لكانت كفيلة بإسقاط النظام.
هذا ولما كانت المحاولات الأخرى في البلاد العربية لا تختلف عن المحاولة السورية، إن لم تكن أقل منها.. فإننا نخرج من هذا العرض بالنتيجة التالية:
لسنا أمام مجاهد يقاتل اثنين، أو ثلاثة، أو عشرة، أو مائة، أو مائتين، أو أكثر من ذلك، ولا نملك جيشاً في عدد الجيش الذي كان يقوده ظهير الدين بابر، ولا أسلحة حديثة متطورة في مستوى الأسلحة التي كان يملكها.. ومن ثم فإننا لا نملك أرضاً نقف عليها، ولا مالاً نمول به جيشنا وأسر مجاهدينا.. وفضلاً عن هذا وذاك فإن الأنظمة المحلية والعالمية كلها تقف في الصف المعادي لنا، وفي المقابل فليس لنا محاولات جادة لجمع شتاتنا، وتوحيد صفوفنا.
فهل يكون الخروج فرض عينٍ علينا ونحن في هذه الحال؟!.
وهل حالنا اليوم كحال جماعة المسلمين عندما أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم سورة التوبة؟!.

<u>بطلان قولهم</u>
الجهاد في الشريعة الإسلامية ليس مقصوداً بذاته، ولكنه وسيلة تفضي إلى غاية، قال تعالى: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فإن انتهوا فإن الله بما تعملون بصير [الأنفال: 39].
فالغاية من الجهاد كما يقول بعض المفسرين في شرح معنى هذه الآية: أن يكون دين الله هو الظاهر على سائر الأديان، فإذا غلب على ظن أهل الحل والعقد أن المسلمين غير قادرين على تحقيق هذا الهدف، لا يجوز لهم أن يقدموا على أمر يترتب عليه فساد كبير، وشر عظيم.
يقول العز بن عبد السلام:

"التولي يوم الزحف مفسدة كبيرة، لكنه واجب إذا عَلِمَ أنه يُقْتلُ من غير نكاية في الكفار، لأن التغرير في النفوس إنما جاز لما فيه من مصلحة إعزاز الدين بالنكاية في المشركين، فإذا لم تحصل النكاية وجب الانـهزام لما في الثبوت من فوات النفوس مع شفاء صدور الكفار، وإرغام أهل الإسلام، وقد صار الثبوت هاهنا مفسدة محضة ليس في طيها مصلحة" [49] .

وإن من مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ الضروريات الخمس: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال. ومن أهم هذه الضروريات الدين، وحفظه يكون بوجوب الجهاد، وبذل النفس والمال، فإذا غلب على الظن أن حفظ الدين كله غير متحقق وجب تقديم مصلحة حفظ النفس عملاً بقاعدة ارتكاب أخف الضررين.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد تأكيده على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية:

"وإذا كان كذلك؛ فمعلوم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإتمامه بالجهاد هو من أعظم المعروف الذي أمرنا به؛ ولهذا قيل: ليكن أمرك بالمعروف ونـهيك عن ا لمنكر غير منكر. وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبات لابد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة؛ إذ بـهذا بعثت الرسل ونزلت الكتب، والله لا يحب الفساد؛ بل كل ما أمر الله به فهو صلاح.. فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم تكن مما أمر الله به" [50] .

وفي موضع آخر يقرر شيخ الإسلام أن من أصول أهل السنة والجماعة لزوم الجماعة وترك قتال الأئمة، وترك القتال في الفتنة، ثم يضيف قائلاً:

"وقد تكلمت على قتال الأئمة في غير هذا الموضع، وجماع ذلك داخل في (القاعدة العامة): فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاحمت؛ فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد، وتعارضت المصالح والمفاسد. فإن الأمر والنهي وإن كان متضمناً لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة فينظر في المعارض له؛ فإن كان الذي يفوت

---

[49] - قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام، ص: 95.

[50] - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 28/126.

من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأموراً به؛ بل يكون محرماً إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته؛ لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيراً بـها وبدلالتها على الأحكام" [51] .

ويقول شارح العقيدة الطحاوية:

"لا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير، ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظمهما، فإن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، بحسب الإمكان" [52] .

كان الدعاة في الجزائر يمارسون هامشاً من الحرية لا بأس به، وهذه نعمة من الله تعالى منَّ بـها عليهم بعد ضيق شديد، واضطهاد مرير استمر طوال عهد الطاغية (هواري بومدين).. وخلال هذا الانفراج سيطر الدعاة على المساجد كخطباء ووعاظ ومدرسين، وخفّت رقابة وزارة الشؤون الدينية قياساً بمثيلاتـها في البلدان العربية، ومن كان يزور الجزائر في شهر رمضان يخيل إليه أن الناس جميعاً - رجالاً ونساء - قد انتقلوا إلى المساجد أثناء صلاة التراويح، وفضلاً عن ذلك فقد انحسر المد الشيوعي بخاصة والعلماني بعامة.

جاءت مرحلة الأحزاب، وتلتها الانتخابات الولائية والتشريعية وفاز الإسلاميون بالأغلبية الساحقة، وتحرك الجيش تنفذ قيادته ما تريده فرنسا في الجزائر، وكان مما فعلته هذه القيادة إلغاء الانتخابات التشريعية. وظنَّ الإسلاميون أنـهم قادرون على تحقيق أهدافهم عن طريق القوة بعد أن أغلق الخيار السياسي بوجههم، فأعلنوا الجهاد، ومنذ عام 1992 م والجزائر تعيش في فوضى لا مثيل لها: فالسجون لم تعد تتسع، والمساجد أقفرت إلا من المسنين، وهيمنت عليها وزارة الشؤون الإسلامية، وتعددت جماعات الجهاد، وكثر القتل والسلب والنهب، ولم يعد أحد آمناً لا حاكماً ولا محكوماً، وتحدث العالم أجمع عن المذابح الجماعية التي شملت الشيوخ والأطفال والنساء، والمدن والقرى والطرقات،

---

[51] - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 8/126 و 129.

[52] - شرح العقيدة الطحاوية، المكتب الإسلامي، ص: 423.

وشاهد الناس في كل مكان من الكرة الأرضية صوراً من التمثيل بجثث القتلى تقشعر من هولها الأبدان، وفي غياب الدعوة انتشر الفساد، بمختلف أشكاله وألوانه، وكثرت الأمراض النفسية.. وفضلاً عن هذا وذاك لم يتحقق النصر الذي وعدنا به الذين أعلنوا الجهاد لأن تقديراتـهم كانت خاطئة، حيث لم يكن هناك إعداد لهذا الجهاد، ولم تكن هناك استطاعة.
واليوم لا يعلم أحد متى وكيف ستتوقف المذابح في هذا البلد المنكوب لاسيما وأن قيادة الجيش ومعظم رجال السلطة لهم مصلحة من استمرار هذه الفوضى التي كانت ضحيتها حوالي مائة ألف قتيل.
لقد ثبت بعد طول هذه المحنة ما حذر منه علماؤنا، فالفساد القليل دُفِع بفساد كثير، والمنكر الأخف دُفِعَ بمنكر أعظم، والدعاة يقتلون من غير نكاية بأعدائهم، والمفسدة كانت راجحة على المصلحة، وكل مسلم يفكر بعقل سوي يتمنى أن تكون أمور الدعوة والدعاة في الجزائر بقيت كما كانت عليه قبل انتخابات 1991.
رحم الله الإمام أحمد بن حنبل الذي رفض الخروج على المأمون وهو الذي فرض على الناس بدعة القول بخلق القرآن، وقال لمن استفتاه: سبحان الله، الدماء الدماء، لا أرى ذلك ولا آمر به، الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة، تسفك فيها الدماء.. قال له السائل: والناس اليوم في فتنة يا أبا عبد الله، قال: وإن كان. فإنما هي فتنة خاصة، فإذا وقع السيف عمت الفتنة وانقطعت السبل، الصبر على هذا ويسلم لك دينك خير لك[53] . كأنه رحمه الله يتحدث عما يحدث في الجزائر التي عمت فيها الفتنة، وانقطعت السبل.
لقد حجّر الإخوة في الجزائر وغيرها من البلدان الأخرى واسعاً، لأنه قد "ثبت في الأصول أن شرط التكليف القدرة على المكلف به، فما لا قدرة للمكلف عليه لا يصح التكليف به شرعاً، والدليل على ذلك من أمور:
<u>أحدها:</u> النصوص الدالة على ذلك؛ كقوله تعالى: ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم . وقوله: ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا الآية، وفي الحديث: (قال الله تعالى قد فعلت)، وجاء: لا

---

[53] - تقدم سياق خبر الإمام أحمد، هذا ولابد من توفر الاستطاعة سواء كان الخروج على أئمة الجور أو بسبب ظهور الكفر البواح.

يكلف الله نفساً إلا وسعها. يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر . وما جعل عليكم في الدين من حرج . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً. ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم الآية. وفي الحديث: (بعثت بالحنيفية السمحة) (وما خير بين شيئين إلا إختار أيسرهما ما لم يكن إثماً) وإنما قال: (ما لم يكن إثماً) لأن ترك الإثم لا مشقة فيه، من حيث كان مجرد ترك. إلى أشباه ذلك مما في هذا المعنى، ولو كان قاصداً للمشقة لما كان مريداً لليسر ولا للتخفيف، ولكن مريداً للحرج والعسر، وذلك باطل.

<u>والثاني:</u> ما ثبت أيضاً من مشروعية الرخص، وهو أمر مقطوع به، ومما علم من دين الأمة ضرورة؛ كرخص القصر، والجمع، وتناول المحرمات في الاضطرار. فإن هذا نمط يدل قطعاً على مطلق رفع الحرج والمشقة، وكذلك ما جاء من النهي عن التعمق والتكلف والتسبب في الانقطاع عن دوام الأعمال. ولو كان الشارع قاصداً للمشقة في التكليف لما كان ثم ترخيص ولا تخفيف.

<u>والثالث:</u> الإجماع على عدم وقوعه وجوداً في التكليف، وهو يدل على عدم قصد الشارع إليه. ولو كان واقعاً لحصل في الشريعة التناقض والاختلاف. وذلك منفي عنها؛ فإنه إذا كان وضع الشريعة على قصد الإعنات والمشقة، وقد ثبت أنـها موضوعة على قصد الرفق والتيسير، كان الجمع بينهما تناقضاً واختلافاً. وهي منـزهة عن ذلك" اهـ[54] .

---

[54] - الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق الشاطبي، دار المعرفة، بيروت: 2/107 ، 121، 122. هذا وللشيخ الشنقيطي كلام نفيس في تفسير قوله تعالى: وما جعل عليكم في الدين من حرج، وانظر أيضاً كتاب جامع العلوم والحكم لابن رجب البغدادي، ص: 271 و 272.

نحو كيان جديد (الحلقة 36)
الحوار بين أهل السنة

السلفية بين الولاة والغلاة

الاسـتطاعة
4 - 4

محمد سرور زين العابدين

وقفت في الحلقة الماضية [الثالثة من حديثي عن الاستطاعة] عند عرض بعض القواعد الأصولية التي تبين بطلان قول الغلاة، وفي هذه الحلقة، وهي الحلقة الرابعة والأخيرة سوف أمضي في دحض قول المخالفين [الغلاة] من خلال عرض مذاهب الأئمة الأربعة وغيرهم من علماء الملة.

مذاهب الأئمة الأربعة

1 – الحنفية: قال أبو حنيفة : "لا ينبغي موادعة[55] أهل الشرك إذا كان بالمسلمين عليهم قوة، وإن لم يكن بالمسلمين قوة عليهم فلا بأس بالموادعة.. وكذلك لا بأس بموادعة أهل البغي لما بينا، والحاجة إلى الموادعة في هذا الفصل أظهر.. وإذا خاف المسلمون المشركين فطلبوا موادعتهم فأبى المشركون أن يوادعوهم حتى يعطيهم المسلمون على ذلك مالاً فلا بأس بذلك عند تحقق الضرورة.

وقال الشارح: "لأنـهم لو لم يفعلوا وليس بـهم قوة دفع المشركين ظهروا على النفوس والأموال جميعاً، فهم بـهذه الموادعة يجعلون أموالهم دون أنفسهم، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه: [اجعل مالك دون نفسك ونفسك دون دينك]. وحذيفة بن اليمان رضي الله عنه كان يداري رجلاً فقيل له: إنك منافق. فقال: لا، ولكني أشتري ديني بعضه ببعض مخافة أن يذهب كله. ففي هذا بيان أنه ليس بالمهانة" [56] .

2 – الشافعية: قال ابن حجر العسقلاني على مهادنة الكفار بمال يدفعه المسلمون لهم في حال الضرورة: "وأما أصل المسألة فاختلف فيه. فقال الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعي عن موادعة إمام المسلمين أهل الحرب على مال يؤدونه إليهم فقال: لا يصلح ذلك إلا عن ضرورة كشغل المسلمين عن حربـهم. قال: ولا بأس أن يصالحهم على غير شيء يؤدونه إليهم كما وقع في الحديبية" [57] .

وقال الشافعي: "إذا ضعف المسلمون عن قتال المشركين أو طائفة منهم لبعد دارهم أو كثرة عددهم أو خلة بالمسلمين أو بمن يليهم منهم جاز لهم الكف عنهم ومهادنتهم على غير شيء يأخذونه من المشركين وإن أعطاهم المشركون شيئاً قلَّ أو كثر كان لهم أخذه ولا يجوز أن يأخذوه منهم إلا مدة يرون أن المسلمين

---

[55] – الهدنة: هي أن يعقد لأهل الحرب عقداً على ترك القتال مدة، بعوض وبغير عوض. وتسمى مهادنة وموادعة ومعاهدة، وذلك جائز. [عن كتاب المغني لابن قدامة: 13/154].

[56] – شرح كتاب السير الكبير، لمحمد بن الحسن الشيباني، إملاء محمد بن أحمد السرخسي: 5/1689 – 1692.

[57] – أهمية الجهاد، العلياني، ص: 151، وفتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني: 6/339.

يقوون عليها إذا لم يكن فيه وفاء بالجزية، أو كان فيه وفاء ولم يعطوا أن يجري عليهم الحكم".
وأضاف الشافعي رحمه الله: "ولا خير في أن يعطيهم المسلمون شيئاً بحال على أن يكفوا عنهم لأن القتل للمسلمين شهادة، وأن الإسلام أعز من أن يعطى مشرك على أن يكف عن أهله، لأن أهله قاتلين ومقتولين ظاهرون على الحق إلا في حال واحدة وأخرى أكثر منها وذلك أن يلتحم قوم من المسلمين فيخافون أن يصطلموا[58] لكثرة العدو وقلتهم وخلة فيهم، فلا بأس أن يعطوا في تلك الحال شيئاً من أموالهم على أن يتخلصوا من المشركين لأنه من معاني الضرورات يجوز فيها مالا يجوز في غيرها، أو يؤسر مسلم فلا يخلى إلا بفدية فلا بأس أن يفدى، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فدى رجلاً من أصحابه أسره العدو برجلين" [59] .
3 - الحنابلة: يقول ابن قدامة المقدسي الحنبلي: "وتجوز مهادنتهم على غير مالٍ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم هادنـهم يوم الحديبية على غير مال. ويجوز ذلك على مال يأخذه منهم؛ فإنـها إذا جازت على غير مال، فعلى مالٍ أولى. وأما إن صالحهم على مال نبذله لهم، فقد أطلقَ أحمدُ القول بالمنع منه، وهو مذهب الشافعي؛ لأن فيه صَغار للمسلمين. وهذا محمول على غير حال الضرورة، فأما إن دعت إليه ضرورة، وهو أن يخاف على المسلمين الهلاك أو الأسر، فيجوز؛ لأنه يجوز للأسير فداء نفسه بالمال، فكذا هذا، ولأن بذل ا لمال إن كان فيه صغار، فإنه يجوز تحمُّله لدفع صغار أعظم منه، وهو القتل، والأسر، وسبيُ الذرية الذين يفضي سبيهم إلى كفرهم" [60] .
4 – المالكية: وقال ابن جزي الغرناطي المالكي: ".. لا يجوز الانصراف من صف القتال إن كان فيه انكسار المسلمين، وإن لم يكن فيجوز لمتحرف لقتال أو متحيز إلى فئة، والتحرف للقتال هو أن يظهر الفرار وهو يريد الرجوع مكيدة في الحرب، والتحيز إلى الجماعة الحاضرة جائز، واختلف في التحيز إلى جماعة غائبة من المسلمين أو مدينة، ولا يجوز الانـهزام إلا إذا زاد الكفار

[58] – اصطلم: استأصل.
[59] – الأم، للشافعي: 4/110.
[60] – المغني لابن قدامة، هجر للطباعة والنشر: 13/155.

على ضعف المسلمين، والمعتبر العدد في ذلك على المشهور، وقيل القوة، وقيل إذا بلغ عدد المسلمين اثني عشر ألفاً لم يحل الانـهزام، ولو زاد الكفار على الضعف. وإن علم المسلمون أنـهم مقتولون فالانصراف أولى وإن علموا مع ذلك أنـهم لا تأثير لهم في نكاية العدو وجب الفرار، وقال أبو المعالي لا خلاف في ذلك" [61] .

العــدد [62]

قال تعالى: يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال، إن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنـهم قوم لا يفقهون. الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله، والله مع الصابرين [الأنفال: 65 - 66].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لما نزلت إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . شقَّ ذلك على المسلمين حين فُرض عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، فجاء التخفيف فقال: الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين . قال: فلما خفف الله عنهم من العِدَّة نقص من الصبر بقدر ما خُفِّف عنهم" [63] .

وجاء في المجموع: "إذا التقى الزحفان ولم يزد عدد الكفار على مثلي عدد المسلمين، ولم يخافوا الهلاك تعين عليهم فرض الجهاد لقوله عز وجل: الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين . وهذا أمر بلفظ الخبر، لأنه لو كان خبراً لم يقع الخبر بخلاف المخبر فدل على أنه أمر المائة بمصابرة المائتين. وأمر الألف بمصابرة الألفين، ولا يجوز لمن تعين عليه أن يولي إلا متحرفاً لقتال، وهو أن ينتقل من مكان إلى مكان أمكن للقتال أو متحيزاً إلى فئة، وهو أن ينضم إلى قوم ليعود معهم إلى القتال.. ثم قال: "وإن

---

[61] – القوانين الفقهية لابن جزي، ص: 128 [عن أهمية الجهاد، ص: 153].

[62] – وهو من الإعداد الشرعي للجهاد لقوله تعالى: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم.

[63] – أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال، فتح الباري: 8/396.

زاد عدد الكفار على مثلي عدد المسلمين فلهم أن يولوا، لأنه لو أوجب الله عز وجل على المائة مصابرة المائتين دل على أنه لا يجب عليهم مصابرة ما زاد على المائتين" [64] .

وقال الشافعي: "إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة. وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لم أحب لهم أن يولوا ولا يستوجبون السخط عندي من الله لو ولوا عنهم على غير التحرف للقتال أو التحيز إلى فئة، لأن بيّنا أن الله عز وجل إنما يوجب سخطه على من ترك فرضه، وأن فرض الله عز وجل في الجهاد إنما هو على أن يجاهد المسلمون ضعفهم من العدو" [65] .

قلت: فرض الله على المسلمين أن لا يفر رجل من رجلين من الكفار، ولا قوم من مثلهم، أما إذا زاد عدد الكفار على ضعف عدد المسلمين فالثبات مندوب إن غلب على ظنهم إمكانية الظفر.

يقول ابن قدامة: "وإذا كان العدو أكثر من ضعف المسلمين، فغلب على ظن المسلمين الظفر، فالأولى لهم الثبات؛ لما في ذلك من المصلحة، وإن انصرفوا جاز؛ لأنـهم لا يأمنون العطب، والحكم علق على مظنته، وهو كونـهم أقل من نصف عدوهم، ولذلك لزمهم الثبات إذا كانوا أكثر من النصف، وإن غلب على ظنهم الهلاك فيه. ويحتمل أن يلزمهم الثبات إن غلب على ظنهم الظفر؛ لما فيه من المصلحة، وإن غلب على ظنهم الهلاك في الإقامة، والنجاة في الانصراف، فالأولى لهم الانصراف، وإن ثبتوا جاز؛ لأن لهم غرضاً في الشهادة، ويجوز أن يغْلِبُوا أيضاً. وإن غلب على ظنهم الهلاك في الإقامة والانصراف، فالأولى لهم الثبات؛ لينالوا درجة الشهداء المقبلين على القتال محتسبين، فيكونون أفضل من المولين، ولأنه يجوز أن يغلبوا أيضاً؛ فإن الله تعالى يقول: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن

---

[64] – المجموع، شرح المهذب، للنووي: 19/291. دار الفكر.
[65] – الأم: 4/92، والمجموع للنووي: 19/294.

الله والله مع الصابرين. ولذلك صبر عاصم [66] وأصحابه، فقاتلوا حتى أكرمهم الله بالشهادة" [67] .
ونقل الزرقاني عن بعض العلماء قولهم: ".. ولا تعارض بين الآيتين ولا نسخ؛ لأن الثانية لم ترفع الحكم الأول، بداهة أنه لم يقل فيها: لا يقاتل الواحد العشرة إذا قدر على ذلك. بل هي مخففة فحسب، على معنى أن المجاهد إن قدر على قتال العشرة فله الخيار رخصة من الله له بعد أن اعتز المسلمون. ولكنك ترى أنَّ النسخ على هذا الوجه لا مفر منه أيضاً، لأن الآية الأولى عينت على المجاهد أن يثبت لعشرة، والثانية خيرته بين الثبات لعشرة، وعدم الثبات لأكثر من اثنين. ولا ريب أن التخيير يعارض الإلزام على وجه التعيين" [68] .
تعقيب: أقوال علماء الملة التي عرضناها في شرحهم للآيتين: 65 – 66 من سورة الأنفال كانت بعيدة المرامي، وافية المقاصد، لا تدع شبهة لمستريب، فهم قد أكدوا أنه لا يجوز أن يفر الجيش الإسلامي إذا كان عدوه ضعف عدده، وذلك لأن المؤمن ينشد إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، وزيادة على ذلك فهو يعتقد أن الله معه إذا صبر وصابر، أما عدوه فهو يقاتل على غير رجاء وثواب، ولا يكره شيئاً كما يكره الموت، وشتان ما بين هذا وذاك.
ومن جهة أخرى فقد أشار علماؤنا إلى أن الثبات أولى إذا كان العدو أكثر من الضعف، وغلب على ظن المسلمين إمكانية النصر، وقد يتحقق هذا النصر ولو كان عدد المشركين عشرة أمثال عدد المسلمين، ففي وقعة اليرموك كان عدد جيش هرقل زهاء مائتي ألف، وكان عدد جيش الصحابة رضي الله عنهم أربعة وعشرين ألفاً، ومع ذلك فقد انتصر المسلمون وهُزم الروم شر هزيمة، وخلفوا وراءهم أكثر من سبعين ألفاً، ومثل هذا الانتصار تحقق في القادسية والقدس

---

[66] – بعث النبي صلى الله عليه وسلم عشرة عيناً، وأمر عليهم عاصم بن ثابت، فنفرت إليهم هذيل بقريب من مائة رجل رام، فلما أحس بـهم عاصم وأصحابه، لجأوا إلى فدفد [المكان الصلب الغليظ]، فقالوا لهم: انزلوا فأعطونا بأيديكم، ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحداً. فقال عاصم: أما أنا فلا أنزلُ في ذمة كافر، فرموهم بالنبل، فقتلوا عاصماً في سبعة معه، ونزل إليهم ثلاثة على العهد والميثاق، منهم خبيب، وزيد بن الدثنة، فلما استمكنوا منهم، أطلقوا أوتار قسيهم، فربطوهم بـها. متفق عليه، وقال ابن قدامة: فعاصم أخذ بالعزيمة، وخبيب وزيد أخذا بالرخصة، وكلهم محمود غير مذموم ولا ملوم.

[67] – المغني: 13/189.

[68] – مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني: 2/208.

وغيرهما من معارك الإسلام الخالدة، ولكن هذه الانتصارات التي كان عدد المشركين فيها حوالي عشرة أضعاف عدد المسلمين لا يجوز فصلها عن زمانـها ومكانـها وظروفها، وذلك لأن المسلمين كانوا جماعة واحدة يمشي بذمتها أدناها وهي يد على من سواها، والجند ما كانوا يقاتلون من أجل أطماع دنيوية، وكانت قلوب الأعداء تطير هلعاً من أخبار جيوش المسلمين، فليس مستغرباً أن يتحقق النصر بالرعب كما حدّث بـهذا المصطفى صلى الله عليه وسلم.
ومن هذا المنطلق نفهم سبب انتصار ظهير الدين بابر على الملك الهندوسي دانا سنجي لأن قيادة الأول أفضل من حيث الانضباط والتنظيم من قيادة الثاني، ويضاف إلى هذا تفوق السلاح الذي يملكه بابر، وتفوق الهدف الذي يقتتلان من أجله.
ومن المؤسف أن عدونا اليوم أكثر انضباطاً منا، ويتفوق علينا بنوعية الأسلحة التي يمتلكها، وحسن تدريب جنده، أما المعاصي فقد استوينا وإياه فيها، [69] وأصبحنا نقاتل من غير هدف واضح، أما عدونا فهدفه واضح بيّن.
ومن هذا المنطلق أيضاً نستطيع أن نفهم لماذا انتصر اليهود على الجيوش العربية في ثلاثة حروب رغم أن عددنا عشرات أضعاف عدد اليهود؟!.
أجل لا يجوز إغفال دور الأسلحة المتطورة في الحروب الحديثة، ولا التحالفات الدولية، وعندما نعود إلى الله عودة صادقة، ونوحد صفوفنا، وندرس واقع عصرنا دراسة واعية ليس فيها طيش ولا غرور أو استخفاف، ونأخذ بكافة أسباب النصر.. عندئذٍ ينصرنا الله تعالى كما نصر السلف الصالح، وما ذلك على الله بعزيز.

نتائج بحث الاستطاعة
1 - من خلال الأقوال التي عرضناها في هذا البحث تبين أن مقصود السلف [ومنهم الأئمة الأربعة] بالنسخ في مراحل الجهاد ليس هو إزالة حكم المراحل حتى لا يجوز العمل بـها مطلقاً، فإن هذا من التكليف بما لا يطاق في حال الاستضعاف، والله سبحانه وتعالى يقول: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

---

[69] – أقصد الجيوش العربية اليوم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف أو في وقت هو فيها مستضعف فليعمل بآية الصبر والصفح والعفو عمن يؤذي الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين، وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" [70] .
وقول شيخ الإسلام هذا – رغم إيجازه – خير تلخيص لأقوال علماء الملة الذين يعتد بقولهم في القديم والحديث.
2 – الاستطاعة شرط لابد من تحققه سواء كان الخروج على أئمة الجور عند الذين يرون ذلك، أو الخروج على أئمة الكفر لأن القاعدة في هذا وذاك: "لا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير، بل يجب دفعه بما يزيله".
يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن الأمر بقتال الطائفة الباغية مشروط بالقدرة والإمكان. إذ ليس قتالهم بأولى من قتال المشركين والكفار، ومعلوم أن ذلك مشروط بالقدرة والإمكان، فقد تكون المصلحة المشروعة أحياناً هي التألف بالمال، والمسالمة والمعاهدة، كما فعله النبي صلى الله عليه وسلم غير مرة، والإمام إذا اعتقد وجود القدرة ولم تكن حاصلة كان الترك في نفس الأمر أصلح. ومن رأى أن هذا القتال مفسدته أكثر من مصلحته: علم أنه قتال فتنة، فلا تجب طاعة الإمام فيه" [71] .

كلمة للشيخ عبد العزيز بن باز:
قال الشيخ سلمان بن فهد العودة: "وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فساد السلاطين في آخر الزمان وانحرافهم عن الحق والعدل، وبيّن الموقف السليم الذي يجب أن يتخذ حيال ذلك، والمتمثل في أمور:
أولها: السمع والطاعة لهم ما داموا مسلمين مصلين، وعدم قتالهم أو الخروج عليهم حتى يرى منهم الكفر البواح الذي عندنا من الله فيه برهان، مما سمّاه الله ورسوله كفراً، فإذا كفروا وجب خلعهم واستبدال غيرهم بـهم".

---

[70] – أهمية الجهاد، ص: 153، وكتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول، ص: 215، مكتبة دار الجيل، بيروت.
[71] – فتاوى ابن تيمية: 4/442.

وقال فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز معلقاً على كلام الشيخ سلمان:
"إذا كان كفرهم بواحاً لا شبهة فيه واستطاع المسلمون الخروج عليهم وإزالتهم، أما إذا لم يستطيعوا فلا يجوز الخروج والحال ما ذكر لما يترتب على ذلك من الفساد والفتن وقتل المسلمين، وقتل الدعاة إلى الله إلى غير ذلك، ولهذا لم يخرج النبي صلى الله عليه وسلم، ومن معه من الصحابة قبل الهجرة على كفار مكة لضعف المسلمين وعجزهم عن قتالهم ولما يترتب على ذلك من القضاء على الإسلام وأهله ولهذا صالحهم، عليه الصلاة والسلام، يوم الحديبية ولم يقاتلهم نظراً لما في ذلك من مصلحة للمسلمين وتسهيل دخولهم – أعني الكفار – في الإسلام وأمن الطرق حتى يهاجر من يريد الهجرة مع ما وقع في الصلح من الغضاضة على المسلمين فالتزم بـها، صلى الله عليه وسلم لتحقيق المصلحة العظمى للمسلمين التي أشرنا إليها آنفاً والله ولي التوفيق" [عبد العزيز بن عبد الله بن باز 20/3/1413 هـ] [72] .
وقال الشيخ ابن باز في موضع آخر: "إذا رأى المسلمون كفراً بواحاً عندهم من الله فيه برهان فلا بأس أن يخرجوا على هذا السلطان لإزالته إذا كان عندهم قدرة، أما إذا لم يكن عندهم قدرة فلا يخرجوا، أو كان الخروج يسبب شراً أكثر فليس لهم الخروج رعاية للمصالح العامة، والقاعدة الشرعية المجمع عليها [أنه لا يجوز إزالة الشر بما هو أشر منه بل يجب درء الشر بما يزيله أو يخففه]، وأما درء الشر بشر أكثر فلا يجوز بإجماع المسلمين، فإذا كانت هذه الطائفة التي تريد إزالة هذا السلطان الذي فعل كفراً بواحاً وعندها قدرة تزيله بـها وتضع إماماً صالحاً طيباً من دون أن يترتب على هذا فساد كبير على المسلمين وشر أعظم من شر هذا السلطان فلا بأس، أما إذا كان الخروج يترتب عليه فساد كبير واختلال الأمن وظلم الناس واغتيال من لا يستحق الاغتيال، إلى غير هذا من الفساد العظيم" [73] .

درس من أدب العلماء:

---

[72] – العزلة والخلطة، أحكام وأحوال، للشيخ سلمان بن فهد العودة، ص: 104.
[73] – من كتاب: وجوب طاعة السلطان في غير معصية الرحمن، إعداد محمد بن ناصر العريني [نقلاً من كتاب مراجعات في فقه الواقع السياسي والفكري على ضوء الكتاب والسنة].

ورد في كتاب "العزلة والخلطة" مثال طيب على طريقة تعامل العلماء فيما بينهم: فالشيخ سلمان العودة، وهو عالم متمكن رزقه الله تعالى ذكاءً حاداً، واطلاعاً واسعاً كما يظهر لنا من خلال أشرطته وكتبه، ومن خلال قبول الناس لإصداراته في كل مكان من العالم الإسلامي..
أقول: هذا الشيخ الفاضل قدّم كتابه بعد أن فرغ من تأليفه لشيخه وأستاذه فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز ليعلق عليه ويقدمه، ومما قاله هذا الشيخ الأستاذ في تقدمة الكتاب:
"اطلعت على الكتاب المرسوم بالعزلة والخلطة أحكام وأحوال. من مؤلفات أخينا في الله العلامة الشيخ سلمان بن فهد العودة، فألفيته كتاباً قيماً كثير الفائدة في موضعه"، ثم مضى الشيخ ابن باز في ذكر أهمية الكتاب ومزاياه مع نصحه لطلبة العلم بقراءته والاستفادة منه.
ومما قاله الشيخ التلميذ: "إن ما أعرضه لا يعدو أن يكون اجتهاداً قابلاً للخطأ والصواب، ولكنني أعرب عن سروري العظيم بأن يقوم إمام جليل القدر، عظيم الفضل، غزير العلم، تام القبول، ألا وهو الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز بقراءة هذا الكتاب حرفاً حرفاً على مدى ثلاثة أشهر أو تزيد، ثم يزينه بمجموعة طيبة من التعليقات المفيدة، والتصحيحات العلمية، فضلاً عن كتابة سماحته مقدمة لهذا الكتاب موجودة ضمن هذه الطبعة، والحمد لله تعالى.." [74] .
إنه درس بليغ للذين يصطادون في الماء العكر من حزبي: الولاة والغلاة.
3 – القتال من غير نكاية في الكفار مغامرة حمقاء مآلها الفشل والخذلان، والعدو هو المستفيد الأول من هذه المغامرة لأنـها تعطيه المبرر لسحق الدعاة وأخذ البريء بحجة المتهم دفاعاً عن نفسه وعن نظامه كما يدعي من خلال أجهزة إعلامه والأجهزة الظالمة[75] التي تحشر أنفها في كل معركة ضد الإسلام والمسلمين.
ولا يجوز للمسلم أن يذل نفسه ويوردها موارد الهلاك. عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، قالوا:

---

[74] – انظر مقدمة كتاب "العزلة والخلطة" للشيخين: ابن باز وسلمان العودة.
[75] – من محلية وعالمية.

وكيف يذل نفسه؟ قال: يتعرض من البلاء مالا يطيق" [76] ، وأي ذل أكبر وأعظم من الذل الذي يلقاه هؤلاء الإخوة [وغيرهم من الذين أخذوا بجريرتـهم دون أن يكون لهم أدنى مشاركة بالقتال أو بالإعداد له] في سجون الطغاة المتجبرين؟!، بل وأي ذل أبشع من الذي تتعرض له أسر وأقرباء هؤلاء الإخوة؟!، لا أظن أننا بحاجة إلى ضرب أمثلة، لأنه ليس بيننا من لا يحفظ عشرات الأمثلة على ذلك.

4 – يجوز لإمام المسلمين الممكن مهادنة العدو على مال يدفعه المسلمون للعدو الكافر إذا خافوا على أنفسهم من الهلاك، وهذا من الضرورات التي يجوز فيها مالا يجوز في غيرها.

ولا يجب على هذا الإمام الممكن الجهاد إذا كان عدد جيشه قليلاً، وعدد جيش العدو أكثر من الضعف أو عنده أسلحة حديثة يؤثر استخدامها تأثيراً فعالاً على نتائج المعركة، يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

"إذا كان أهل دار المسلمين قليلاً إن غزا بعضهم خيف العدو على الباقين منهم لم يغز منهم أحد، وكان هؤلاء في رباط الجهاد ونزلهم، وإن كانت ممتنعة غير مخوف عليها ممن يقاربـها فأكثر ما يجوز أن يغزي من كل رجلين رجلاً فيخلف المقيم الظاعن في أهله وماله، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تجهز إلى تبوك فأراد الروم وكثرت جموعهم، قال: ليخرج من كل رجلين رجل، ومن في المدينة ممتنع بأقل ممن تخلف فيها" [77] .

أيها الإخوة: هدانا الله وإياكم إلى الحق، وجنبنا وإياكم مواطن الزلل: قلنا غير مرة: إننا نعلم من خلال محاولاتكم، ومحاولات إخوان لكم ما يلي:

قلة عددكم فهو لا يبلغ بضع مئات أو بضعة آلاف [على حد قول بعضكم]، وليس الجميع قادرين على القتال لسبب أو لآخر.

بساطة الأسلحة التي تملكونـها، فهي على قلتها لا تتجاوز: البندقية، والمسدس، والقنابل ذات التصنيع البدائي.

---

[76] – رواه الترمذي في الفتن، وقال: حسن غريب، ورواه أحمد في المسند: 5/405.

[77] – الأم للشافعي: 4/91.

ضعف إمكاناتكم الاقتصادية، فليس لديكم شركات كبيرة أو صغيرة،وليس لديكم قدرة على تمويل أفراد أسر قتلاكم أو أسر المعتقلين، أو تمويل المقاتلين منكم.
ليس لديكم أرض تقفون عليها، أو حصون تلتجئون إليها عند الفزع.. إن المنـزل الذي تختبئون فيه ليس ملكاً لكم، ولو علم الذين يشاركونكم في السكن حقيقة أمركم لسارعوا إلى إخراجكم من المنـزل أو أخبار رجال الأمن عنكم.
كيف تحدثكم أنفسكم أنكم سوف تحققون انتصاراً على نظام تعداد جيشه وقوات أمنه ما بين نصف مليون أو مليون وزيادة في بعض هذه الدول، هذا من حيث العدد، أما من حيث العتاد فيملك أسلحة حديثة فتاكة لا قبل لكم بمثلها أو بأقل منها، ويملك المال والدعم الداخلي والخارجي، ويملك مختلف وسائل الضغط ومستعد لاستخدام كل هذه الوسائل ضدكم، بل هو حقاً لا يستخدمها إلا ضدكم وضد كل معارضة داخلية تـهدد كرسي الحكم الذي يجلس عليه.
أما حماية الحدود والتي من أجلها تأسست هذه الجيوش، فليس لها شأن كبير في حسابات القائمين على هذه الجيوش، وهم مدمنون على الهزائم إذا فرض العدو عليهم خوض معركة، وقد مقتهم مجلس الأمن الدولي لكثرة ما يلجأون إليه طالبين منه التدخل لوقف الاعتداء عليهم أو رد الأرض التي احتلها عدوهم:
أسد عليَّ وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر
أيها الإخوة: إذا كان الجهاد يسقط عن جيش الإمام الممكّن في الأرض بسبب ضعفه وفقدانه للقدرة والاستطاعة، فكيف توجبون على أنفسكم خلاف ذلك؟!.
وإذا كان الواجب الشرعي يفرض على الإمام الممكن دراسة وضع بلده في غياب الجيش، ويسقط[78] عنه الجهاد إذا كان الأهل والنساء في خطر.. فلماذا لا تفكرون – أيها الإخوة – بأطفالكم ونسائكم.. ألا ترون بعيونكم وتسمعون بآذانكم المصير المحزن الذي آلت إليه أسر إخوان لكم من قبل؟!.
أن لكم أيها الإخوة أن تعيدوا النظر في القناعات التي بنيتموها على أساس واه لا يثبت أمام هذه الهزائم

---

[78] – مع وجوب الإعداد للجهاد.

المتتالية.. فلا أنتم حققتم حلم الدولة الإسلامية بقواتكم القتالية المحدودة، ولا أنتم حميتم أسركم وأنفسكم وإخوانكم من الفتنة! فإلى متى هذا التخبط.. وإلى متى هذا العبث؟!.
آن لكم أيها الإخوة أن تعلموا بأن الله سبحانه وتعالى لم يكلفنا بما لا نقدر عليه، ولم يحمّلنا مالا طاقة لنا به، ومن القواعد الأصولية المجمع عليها أنه لا يجوز دفع الفساد القليل بفساد كثير.

بداية صحوة
ليس بين جماعات الجهاد من يجهل عبد القادر بن عبد العزيز ومؤلفاته التي تعد من أهم المراجع التي يعتمدون عليها وأوسعها انتشاراً بينهم[79] .
في الطبعة الثانية من كتاب عبد القادر بن عبد العزيز "الجامع في طلب العلم الشريف" الصادر عام 1415 هـ توصل إلى قناعات تتفق مع النتائج التي توصلنا إليها في هذا البحث:
ومن ذلك نقده لتعجل الصدام المسلح قبل الاستعداد الكافي لذلك.
ومنها قوله: فلا تعجب إذا رأيت بعض الجماعات الإسلامية تطلب الدليل الشرعي وهي في السجون على ما كانت تفعله من قبل.
ومنها قوله: إن هناك فرقاً بين العلم بالواجب والإيمان به، وبين إمكان القيام به.
ومنها قوله: ورأيت بعض الجماعات الإسلامية – وهم مستضعفون مشردون في الأرض – يتوعدون خصومهم من الجماعات الأخرى بالانتقام منهم إذا مكّن الله لهم.
لهذا فقد رأيت أن أختم هذا البحث بنقل فقرات من أقواله لأنـها جاءت بعد خبرة لا تقل عن عشرين عاماً مع هذه الجماعات، وكم أتمنى أن يعيد النظر بكتبه على ضوء قناعاته الجديدة.
ومما يجدر ذكره أنني أنقل هذه الفقرات من غير تعليق عليها، ومن ذلك قوله عن بعض الأفراد والجماعات: "فهم أولى بالجهاد من حكامهم"، وأظنه قد قالها وهو في حالة غضب، وأخشى أن يصبح مثل هذا القول فتوى

---

[79] – أشرنا إليه وإلى مؤلفاته فيما مضى.

يستغلها بعض الجهلة – وما أكثرهم في مثل هذه الأوساط – في قتل إخوان لهم.
قال عبد القادر بن عبد العزيز:
"6 – ومن صور التعجل: إمارة الصبيان والأحداث، وهي من أسباب الفتن والخلاف، ولهذا بوب لها البخاري في كتاب الفتن من صحيحه في باب [قول النبي صلى الله عليه وسلم هلاك أمتي على يدي أغيلمة سفهاء]. وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم الخوارج بأنـهم [حدثاء الأسنان] أي صغار السن".
"7 – ومن صور التعجل: السير في الدعوة بالمقلوب، فالنبي صلى الله عليه وسلم بدأ بالدعوة وتمييز الحق من الباطل وتمييز المؤمن من الكافر، حتى قال الكفار إنه صلى الله عليه وسلم فرق بين الأب وولده، وبين المرء وزوجه، كما بدأ صلى الله عليه وسلم بجدال الكفار ودحض شبهاتـهم وأباطيلهم، فاتبعه من اتبعه على بصيرة بما يدعو إليه، وعاداه من عاداه على بصيرة بما عاداه من أجله، ثم شرع في ترسيخ الإيمان في نفوس أتباعه، وأخذ يطلب النصرة والمنعة، ثم شرع في قتال أعداء الله. أما في هذا الزمان فالأمر يسير بالمقلوب: فيبدأ بالقتال قبل ترسيخ الإيمان وقبل نشر الدعوة وقبل معرفة الحق من الباطل. ولهذا فلا تعجب إذا رأيت بعض الجماعات الإسلامية تطلب الدليل الشرعي وهي في السجون على ما كانت تفعله من قبل، فتتعارض وجهات النظر، وتؤلف الأبحاث الشرعية المتناقضة، ثم يكفِّر الناس بعضهم بعضاً ويُبَدِّع بعضهم بعضاً وهذه كلها من آثار التعجل الذي هو علة الحرمان والندم".
"8 – ومن صور التعجل: تعجل الصدام المسلح مع الحكومات الكافرة قبل الاستعداد الكافي لذلك بما لهذا التعجل من آثار مدمرة أحياناً. وليس الواجب الشرعي هنا هو مجرد النكاية في الحكومات الكافرة حتى يقدم عليها بضع عشرات من المسلمين، وإن كانت هذه النكاية هي عمل صالح في ذاتـها لقوله تعالى: ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح [التوبة: 120]، ولكن الواجب هو تغيير هذه الحكومات وإزالتها وإقامة حكومة إسلامية لا مجرد النكاية، وذلك قوله

تعالى: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله [الأنفال: 39]" [80] .
"وقد رأيت جماعات إسلامية ترفض أن تحتكم في خلافاتـها إلى الشرع، مع أنـهم يدعون إلى تحكيم الشرع، وأن جماعاتـهم ما قامت إلا لمحاربة من يحكم بغير ما أنزل الله، فإذا ما دعوا إلى حكم الله أعرضوا، فهم أولى بالجهاد من حكامهم.. وقد شاء الله أن أكون حكماً في خصومات بعض أطرافها من الدعاة المشهورين، وحين وجب الحق عليه تملص وأبى أن يؤدي ما وجب عليه، فقلت: والله لا يَمُن الله علينا بحكم إسلامي حتى نرضى بحكم الله فيما بيننا، فقد قال تعالى: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم [الرعد: 11]".
".. ورأيت مسؤولي بعض الجماعات الإسلامية يقولون: إنه لو تغلب غيرهم من الجماعات الإسلامية الأخرى على بلدهم وأقاموا حكم الإسلام فيه، فلن يكون أمامهم إلا ترك بلدهم والعيش في غيره".
".. ورأيت بعض الجماعات الإسلامية – وهم مستضعفون مشردون في الأرض – يتوعدون خصومهم من الجماعات الأخرى بالانتقام منهم إذا مكّن الله لهم..."، ثم يختم كلماته هذه بقوله: "وهذا الذي ذكرته هنا أقوله عن خبرة، وهي وجهة نظر من محايد لا ينتمي لأي جماعة إسلامية أو حزب إسلامي، والجماعة حق وواجب في هذا الزمان، وقد ألفت كتابي [العمدة في إعداد العدة للجهاد في سبيل الله تعالى] في فقه العمل الإسلامي الجماعي، ولكن – كما ذكرت من قبل – فإن هناك فرقاً بين العلم بالواجب والإيمان به، وبين إمكان القيام به" اهـ[81]

---

[80] – ثم فرق الكاتب بين الإيمان بالواجب وبين القدرة عليه، وأضاف: إذا تحقق العجز سقط الوجوب، وذكر أدلة على ذلك منها قوله تعالى لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وغير ذلك من أدلة سبق لنا ذكرها.

[81] – الجامع في طلب العلم الشريف، تأليف عبد القادر بن عبد العزيز، الطبعة الثانية: 2/904 – 908.

نحو كيان جديد (الحلقة 37)
الحوار بين أهل السنة

السلفية بين الولاة والغلاة

محمد سرور زين العابدين

وفي الختام فإنني أتوجه بالرسالة التالية إلى أعضاء حزب الغلاة، وبرسالة أخرى إلى أعضاء حزب الولاة أبيّن فيهما مقاصدي من كتابة هذا البحث، وأؤكد بأنني ما أردت إحراج أحد أو التشنيع عليه، وأدعوهم جميعاً إلى التوبة إلى الله، ونحن وإياهم بحاجة إلى التوبة من كل ذنب ومعصية، كما أدعوهم إلى العمل من أجل توحيد جهود الدعاة والجماعات الإسلامية، وكيف لا نتوحد ونحن الذين يجمعنا وحدة الدين والهدف والمصير .. وبعد ذلك أجيب على شبهات وتساؤلات وصلتني منهم أو من غيرهم خلال نشر حلقات هذا البحث.

الرسالة الأولى
1-2
الإخوة منسوبي جماعات الجهاد.
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وأسأله تعالى أن يجنبنا وإياكم الهوى ومضلات الفتن، ويكفينا شرور أنفسنا، ويرزقنا الإخلاص والعدل والإنصاف في القول والعمل، كما أسأله بأسمائه الحسنى وصفاته التامة أن يفتح بيني وبينكم بالحق ويهدنا سواء السبيل:
ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين [الأعراف:89].
أما بعد: فها أنا قد قدمت لكم دراسة شرعية تجنبت فيها كل قول شاذ لا يسنده دليل قوي، وضربت على ذلك أمثلة ميدانية لا أظنها مجهولة عندكم، وعند كل من يتابع مسيرة الدعوة والجماعات الإسلامية.
أيها الإخوة الأحبة: منذ أكثر من عقدين وأنا أهم بالكتابة في هذا الموضوع، وكنت أتراجع في اللحظات الأخيرة التي تسبق بداية التنفيذ خشية أن يستفيد الظالمون المستبدون وأذنابـهم مما سأنشره، ومع هذا التراجع لم

أكن مطمئناً من صحة موقفي، ولا أدري ماذا أفعل، فإخواني الشباب من منسوبي الجهاد ينفذون عمليات غير مقبولة من النواحي الشرعية والإعلامية والعسكرية، وعندما كنت أنقد مواقفهم في جلسات مغلقة معهم أو مع بعض أنصارهم، كانت أقوالي تنقل بشكل مشوه يوافق مزاج الناقل، وما أسهل أن يقول قائلهم: لم يكتف هذا الرجل بإيثار العافية، وإنما أصبح عدواً للجهاد والمجاهدين.

وفي المقابل: كنت دائم التحذير[82] من هذا الإرهاب العام الذي يفرضه الطغاة، وفي ظل هذا الإرهاب الغاشم يُسْتَنفرْ بعض المنسوبين إلى العلم وأهله، ليقدموا لأسيادهم المبررات الشرعية في إعدام أو اضطهاد كل داعية يتهمونه ولو كان بريئاً من هذا الاتـهام... وفي ظل هذا الإرهاب الغاشم أيضاً يسارع آخرون من الدعاة إلى استنكار عمليات منسوبي الجهاد، ويعلنون براءتـهم منهم ومن إرهابـهم، وقليل مثلي يعتصمون بالصمت مع نصح إخوانـهم في جلسات مغلقة، وإخوانـهم لا يقبلون هذا النصح، أما الظالمون فيصنفوننا في خانة الغلاة الإرهابيين. بل إنـهم من شدة حقدهم على الإسلام والمسلمين لا يقبلون حتى استنكار وبراءة الصنف الثاني من الدعاة.

وبعد أن وصلت الأمور إلى الحد الذي لا يحتمل، وكثرت المجازفات، واختلط الحابل بالنابل - كما يقال – اقتنعت بالكتابة في هذا الشأن مع وجوب التأكيد على الحقيقتين الآتيتين:

الطغاة المستبدون هم أصل البلاء وموطن الداء، لأنـهم يعاملون مواطنيهم كما كان السيد المتعجرف يعامل عبيده في عصور العبودية، وغني عن البيان أن شدة إرهاب الطغاة وضراوتـهم هو الذي أدى إلى هذا الإرهاب المضاد.

الناس في بلادنا يحتكمون إلى الشرائع الجاهلية المستوردة، وقد يعتبر الظالمون مجرد المطالبة بتحكيم الشريعة الإسلامية جريمة تستحق العقاب الزاجر.

إخوتي: إنني ما أردت من هذه الدراسة إلا النصح لكم، وتوفير كل نقطة من دمائكم ليوم لا بد فيه من الجهاد ..

---

[82] – وهذا التحذير من إرهاب الطغاة يضاف إليه الدفاع عن إخواننا ضحايا هذا الإرهاب كنت أنشره في المقالات والأبحاث الموقعة باسمي.

ربما قسوت فيما كتبته عنكم، لكنني كنت اعتبر نفسي بمثابة الوالد الذي يحرص على سلامة أبنائه واستقامتهم وبعدهم عن مواطن الهلاك والفتنة.
لعلكم تذكرون – ايها الإخوة – أن ناساً منكم قد بالغوا في شتمي وظلمي وتحميل كتاباتي ما لا تحتمل..
ولعلكم لم تنسوا أنني اعتصمت بالصمت وأبيت الاستدراج إلى معارك جانبية لن يستفيد منها إلا أعداء ديننا، ومعاذ الله أن تكون هذه الدراسة نابعة من موقف شخصي، وحتى هؤلاء الذين أساؤوا لي فقد أشفقت عليهم عندما صُدموا بشر أفعالهم وتوقعاتـهم، وتخلى عنهم من كان بالأمس يشد عضدهم.
إن مثلنا – إخوتي الكرام – كمثل أسرة واحدة، لا بد أن يقسو الكبير فيها على الصغير، ولا بد أن يتطاول أحياناً صغيرها على كبيرها.. لكنها تبقى أسرة واحدة تحكمها علاقات وأواصر ثابتة. قال تعالى: إنما المؤمنون إخوة، وقال: لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبـهم ولكن الله ألف بينهم.
إنني أرفض في كل ما أكتبه سياسة الردود، ولا أرضى لنفسي أن أكون أسيراً للأحداث الآنية، لأن الزمن يمضي، والحدث ينسى، والمخالف قد يصبح صديقاً صدوقاً، ولا يجوز إحراق الجسور مع الإخوة مهما اشتد الخلاف.. وتبقى المواقف والكتابات التي تصلح لكل زمن، ولكل حدث.
إن عشرات الألوف الذين يرزحون في سجون الطغاة المتجبرين في عالمنا الإسلامي هم إخواني وأبنائي مهما اختلفت اتجاهاتـهم وتباينت مواقفهم، وعدوهم عدوي لأنه يحارب ديني ويعمل على إفساد عقيدة أبناء أمتي، ويكذب عندما يزعم أو تزعم أجهزة إعلامه خلاف ذلك.. وإن أسر هؤلاء المنكوبين المسجونين هم جزء من أسرتي، ولن أنسى وأنا أداعب أبنائي وأحفادي الصغار مصيبة هؤلاء الأطفال الذين فقدوا آباءهم.. ولن أنسى أيضاً سياسة الجلاوزة الذين يمنعون حتى المساعدات التي يقدمها المحسنون لهذه الأسر البائسة... فحتى هذه المعونات يمنعونـها عن هذه الأسر، والمحسن إذا تستر على صدقته التي يقدمها لهم يعتبرونه مجرماً إرهابياً ويستحق في أعرافهم الملعونة أشد أنواع العقوبات... إنني أعلم أنـهم يريدون من وراء

هذه السياسة فساد أعراض إخواني، وهلاك أسرهم وتشريد أطفالهم.
من هذا المنطلق كتبت بحثي هذا – أيها الإخوة – وما كتبته لإرضاء هذه الجهة أو تلك، ولا لأطعن إخواني وهم في وقت يحتاجون فيه إلى المساعدة - وحاشاي أن أفعل ذلك -، لأن الجزار هو جزار أولاً وأخيراً، ولن أطمع بإرضائه أو التقرب منه، وكيف أتقرب من عدو لله ولرسوله وللذين آمنوا.
وبعد هذه المعاني التي أحببت من خلالها أن يقرأ إخواني هذا البحث أعود إلى عرض الشبهات التي أثيرت مع الرد عليها:
<u>الشبهة الأولى:</u> إذا كانت جماعة من الجماعات المنسوبة إلى الجهاد قد وقعت بشيء من الغلو، فهي وحدها المسؤولة عن غلوها، ولا يجوز لك تعميم الأحكام وإطلاق صفة الغلو على جماعات الجهاد كلها.
الجواب: الغلو مجاوزة الحد الشرعي، ويقال غلا في الدين غلواً: أي تشدد وتصلب حتى جاوز الحد، ومجاوزة الحد قد يكون في مسألة من مسائلالعبادات، وقد وقع بذلك ناس من الصحابة رضي الله عنهم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:
" جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنـهم تقالوها، فقالوا:
أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول صلى الله عليه وسلم فقال: إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني" [83] . ومع أن هذا الغلو من الصحابة لا يعدو أن يكون تشدداً في العبادة لا تتجاوز آثاره الفرد أو الأسرة، فقد تصدى لهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وحذّرهم من الغلو في العبادة، ومن مخالفة سنته صلى الله عليه وسلم.

---

[83] – البخاري، كتاب النكاح، ومسلم، كتاب النكاح.

وهناك صنف آخر من الناس يغالون في مسألة أو أكثر من مسائل الاعتقاد، وبدافع من هذا الغلو يخوضون في أمور ليسوا أهلاً للخوض فيها، فيكفرون بالذنوب والمعاصي ويستبيحون دماء المخالفين وأموالهم و أعراضهم[84] .

وكلا هذين الصنفين موجود في جماعات الجهاد المعاصرة، فمنهم من هو متمسك بالسنة، مجانب للبدعة وأهلها، لكنه متشدد في مسألة الجهاد تشدداً يفتقر إلى التأصيل الشرعي، وأكاد أقول: إن غلوهم جزئي عملي، ولكن يمنعني من هذا القول دفْعُهمْ المنكر بمنكر أشد تسفك فيه الدماء، ويعم البلاء، والله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، ولكن هذا الغلو أيضاً لا يرقى إلى درجة الغلو في الاعتقاد.

ومن الجماعات المنسوبة إلى الجهاد من هم كالخوارج أو أشر منهم في تكفير المخالفين واستحلال دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وليست الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر حالة فريدة، وذلك لأن بذرة الغلو في الاعتقاد التي أنبتت هذه العقلية منتشرة في كثير من البلدان، ومن جهة أخرى فقناعاتـهم مضطربة وغير مستقرة، وقد يبيحون اليوم ما كانوا يحرمونه بالأمس.

وإذن: فليس الغلو الجزئي العملي – وإن كانت له أضرار ليست بالقليلة -، مثل الغلو في الاعتقاد الذي يقوم على التكفير واستحلال دماء المخالفين وأموالهم وأعراضهم.. وليس صحيحاً أنني قد سويت بين هؤلاء وأولئك، والصحيح أنني قد اعترفت بفضل ناس من الصنف الأول، ومن ذلك ردهم على الذين استباحوا أموال الناس وأعراضهم.

<u>الشبهة الثانية:</u> من أهم ما استدل به الإخوة لإثبات شرعية أعمالهم ومواقفهم فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية المشهورة في التتار، ثم تنفيذه العملي لمضمون هذه الفتوى في موقعة شقحب.

ولبيان بطلان مواقفهم أقول:

نقلنا فيما مضى من هذه الدراسة عن شيخ الإسلام أنه لا يرى الخروج عند وقوع الكفر البواح إلا إذا تحققت القدرة والاستطاعة، كما نقلنا عنه أنه لا يرى شرعية دفع المنكر بمنكر أعظم... وهاتان القاعدتان المهمتان

---

[84] – فصلنا الحديث عن هذا الصنف فيما مضى من هذه الدراسة.

تفسران كل موقف من مواقف ابن تيمية، وكل فتوى سواء كانت في التتار أو في غيرهم.
من المؤسف أن الإخوة يقرأون في تاريخ شيخ الإسلام ابن تيمية أحداث سنة اثنتين وسبعمائة، وفيها أصدر الشيخ فتواه في كفر التتار وفي وجوب قتالهم.
وتوحدت الأمة على هذه الفتوى التي استحسنها العلماء الذين حاروا في أمر التتار الذين يقولون لا إله إلا الله، ويشهدون الجمعة والجماعة، ويطبقون بعض شرائع الإسلام، ويدعون أن غزوهم لبلاد الشام كان بقصد تأديب حكامها الذين مرقوا من دين الإسلام!!. نعم هؤلاء الذين أفتى شيخ الإسلام بكفرهم، وقاتلهم تحت راية السلطان في موقعة شقحب (سنة 702) التي هزم التتار فيها.
لكن هؤلاء الإخوة لا يجيدون قراءة وتدبر أحداث سنة تسع وتسعين وستمائة... ففيها هزم التتار جيش بلاد الشام في معركة عند وادي السلمية، وفيها هرب السلطان وقضاة دمشق وكبار أعيانـها، وأصبحت المدينة من غير حكومة، وانتشر اللصوص وقطاع الطرق في مختلف أحياء المدينة ينهبون ويسلبون، وعاش الناس في ذعر لا مثيل له.. فما الذي فعله في هذه الظروف الشديدة الحرج؟!:
خرج مع عدد من كبار علماء دمشق، واجتمعوا بقائد التتار محمود قازان الذي كان قد وصل إلى بلدة النبك، وذلك بقصد أخذ الأمان لأهل دمشق، وكان لهم ذلك.
وسعى مرة ثانية للاجتماع بملك التتار عندما نـهب الغزاة الصالحية، وكان مما نـهبوه: مسجد الأسدية، ومسجد خاتون، ودار الحديث الأشرفية، وأحرقوا جامع التوبة بالعقيبة.. ونـهبوا أيضاً المزة وداريا، وأوقعوا مذابح فظيعة بأهل المدينة.. قلت: بعد هذه الجرائم المزرية التي ارتكبوها، لم يكن أمام شيخ الإسلام ابن تيمية إلا السعي إلى الاجتماع بملك التتار ليعرض عليه الوضع، وعاد بعد يومين دون أن يتمكن من الالتقاء به، حجبه عنه الوزير سعد الدين والرشيد مشير الدولة المسلماني، وهو ابن يهودي.
وفي ثامن رجب من العام نفسه خرج شيخ الإسلام ابن تيمية للمرة الثالثة إلى مخيم بولاي طالباً من هذا القائد

التتري فكاك من كان معه من أسرى المسلمين، وأجيب إلى طلبه فاستنقذ كثيراً منهم.
نصب التتار مجانيق بالجامع الأموي ليرموا بـها القلعة، وأغلقوا أبواب الجامع فتعطلت الصلاة فيه.. وضمنوا الخمارات، ومواضع الزنا من الحانات وغيرها.
أي فظائع أعظم من هذه الفظائع التي ارتكبها التتار في مدينة دمشق؟!.. رغم ذلك كله لم يطلب شيخ الإسلام ابن تيمية من الناس حمل السلاح لقتال التتر، ولو طلب منهم ذلك لتبعه معظم أهل دمشق لأنـهم كانوا يرون مساجدهم وهي تـهدم، وأحياءهم تنهب، وأعراضهم تـهتك، ومحارم الله تنتهك... لم يطلب الشيخ منهم ذلك لأنه كان يدرك بواسع علمه، وحسن تقديره للأمور أنه ما من شيء أخطر من حمل السلاح إذا كانت الأمة في حالة يرثى لها من الضعف والهوان، وكانت الاستطاعة غير متحققة.
كان دور شيخ الإسلام قاصراً على جانبين:
الأول: أخذ الأمان للناس من الطغاة التتر، فكان يراجع قادتـهم ويعرض عليهم أحوال المدينة وسوء المعاملة التي يلقونـها، ويذكرهم بالشعارات التي يرددونـها، وبالوعود التي كانوا قد وعدوا الناس بـها.. كما كان يطوف على أسوار المدينة لتخفيف المصاب وتذكير الناس بفضائل الصبر.
الثاني: كان يعمل بـهدوء من أجل تحقيق الاستطاعة، وكان يعلق آمالاً عريضة على بقاء قلعة دمشق بأيدي المسلمين. ومن أجل هذا كان يرسل الرسل إلى نائب القلعة يوصيه بعدم تسليمها، ولو لم يبق فيها إلا حجر واحد.. ولا بد أن مثل هذه الاتصالات كانت تتم بسرية كاملة لا يعلم الغزاة عنها شيئاً، كما أنه لا بد أن يكون لهذه الاتصالات دور مهم في تقوية عزيمة نائب القلعة ومن معه من الجند المحاصرين الذين يتهددهم الخطر من كل جانب.
ومن أجل تحقيق الاستطاعة سافر الشيخ إلى مصر ليستحث السلطان على وجوب نصرة أهل الشام وكان مما قاله له: إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه.. ولم يزل به حتى جرد العساكر إلى الشام.

قصارى القول: هناك عدة عوامل ساهمت في النصر الذي حققه المسلمون في موقعة شقحب:
منها: فتوى شيخ الإسلام واقتناع الأمة وعلمائها بصحتها وشرعيتها.
ومنها: عدم سقوط قلعة دمشق بأيدي التتار.
ومنها: مشاركة السلطان وجيشه بـهذه المعركة.
ولولا هذه العوامل مجتمعة لما تحققت الاستطاعة ولا تحقق النصر ولما كانت موقعة شقحب... فعلام يغفل إخواننا عن قراءة أحداث 699؟! أنصحهم أن يتدبروا موقف شيخ الإسلام في هذا العام، كما أنصحهم تجنب القراءات الانتقائية التي تتفق مع قناعاتـهم المسبقة.
<u>الشبهة الثالثة:</u> علمت بأن الإخوة في الجماعة الإسلامية المصرية متأثرون مما كتبته تحت عنوان: " المخالفون منذ النشأة وحتى المحنة"، ويرون بأنـهم هم المقصودون فيما ذكرته وخاصة في قولي:
" يضع اللبنات الأولى لتأسيس هذه الجماعة مجموعة من شباب الجامعات من أصحاب العواطف المتقدة".
فهل كنت حقاً أتحدث عن الجماعة الإسلامية المصرية ولكنني آثرت التلميح الذي يكاد يكون تصريحاً؟!.
أحدد الجواب على ذلك من خلال النقاط التالية:
1- إن طلاب الجامعات – في حدود ما أعلم – هم الذين أسسوا جماعات الجهاد كلها.
فالنظام الخاص في جماعة الإخوان المسلمين الذي أنشأته جماعة الإخوان عام 1940م،[أي قبل ظهور الجماعة الإسلامية المصرية في ثوبـها الجهادي بحوالي أربعين سنة] كان من الطلبة. يقول محمود عبد الحليم: " .. والطلبة هم العنصر الأساسي في جميع التكوينات.. وقد تخيرت مجموعة منهم توسمت فيهم الجد وعمق الفهم والاتزان، وعرضت عليهم الفكرة فاستجابوا لها وكانوا هم نواة هذا النظام"، وعندما تخرج محمود عبد الحليم من الجامعة، أسند مسؤولية النظام الخاص لعبد الرحمن السندي، وكان طالباً في كلية الآداب – السنة الأولى -، ولم يكن قد مضى على صلته بالجماعة إلا سنة واحدة[85] ، ومع ذلك كلّف برئاسة أخطر تنظيم جهادي في

---

[85] – انظر كتاب " الإخوان المسلمون .. أحداث صنعت التاريخ" 1/258 لمؤلفه محمود عبد الحليم، دار الدعوة.. ومما يجدر ذكره أن هناك بعض الأسماء من غير الطلبة كلفها الأستاذ البنا بالإشراف على هذا التنظيم لكن إشرافها كان فخرياً، ثم ابتعدت أو أبعدت عن هذا الإشراف بعد فترة زمنية قصيرة.

جماعة الإخوان، وكان لهذا التكليف الذي غلب عليه طابع الاستعجال آثار سلبية معروفة.
ما سمي بتنظيم 1965، أو تنظيم سيد قطب كان من الطلبة في الجامعات المصرية الذين لم يسجنوا عام 1954 لأنـهم كانوا صغاراً... هؤلاء الطلبة وعلى رأسهم: علي العشماوي ومحمد حسين غنام هم الذين رتبوا مسألة إدخال شحنة أسلحة من السودان إلى مصر، وكان ذلك قبل أن تبدأ صلتهم بالأستاذ سيد قطب الذي أراد أن يشغلهم بالمنهج والتربية وتأصيل سائر أمور الاعتقاد في نفوسهم، وشاء الله تعالى أن تقع المحنة قبل أن يكتمل البناء.
والطلبة هم الذين أسسوا تنظيم الفنية العسكرية عام 1974 بعد أن تعرفوا على الدكتور صالح سرية رحمه الله، وهو الذي وجههم هذه الوجهة.
تنظيم الطليعة السوري الذي نشأ في أواسط السبعينات كان من الطلبة في الجامعات السورية.
ولو شئت الاستمرار لذكرت أمثلة أخرى من البلاد العربية والأفغانية والماليزية وغيرها، فكيف فهم إخواننا في الجماعة الإسلامية بأنـهم هم المقصودون فيما ذكرته تحت عنوان: "المخالفون منذ النشأة وحتى المحنة "؟!.
2- عند الحديث عن نشأة هذه الجماعات طرحت السؤال التالي: "ما هي إمكانات وقدرات هذه الجماعات التي يتحدث باسمها محمد عبد السلام فرج – رحمه الله – وغيره من كتاب وقادة التيار الجهادي .. وهل يعتبر خروجهم شرعياً؟!".
ومن الملاحظ أنني في هذا السؤال أتحدث بشكل عام عن جماعات الجهاد، وليس عن جماعة معينة منها، ومن جهة أخرى فقد اخترت محمد عبد السلام فرج وكتابه " الفريضة الغائبة " بسبب سعة انتشاره بينهم، وكونه لا يمثل الشريحة المغالية في عقيدتـها، ومن جهة ثالثة فالذي أظنه أن محمد عبد السلام فرج ليس من الجماعة الإسلامية[86] ، وإن كان الجميع قبل قتل السادات كانوا يسعون إلى توحيد صفهم.
3- أخلص من كل ما ذكرت إلى القول: لم أكن أتحدث عن الجماعة الإسلامية مكتفياً بالتلميح – كما قيل -،

---

[86] – وهذا لا يعني أنه لو كان منهم لما تعرضت لكتابه بالنقد.

وليس هذا أسلوبي فيما أكتب، بل كنت أتحدث عن ظاهرة عامة في جماعات الجهاد، ولو كنت أقصد الجماعة الإسلامية لذكرت اسمها من غير أية مجاملة، كما ذكرته بعد حادث " الأقصر " وأشرت إلى الخطأ الذي ارتكبته.
وفي المقابل إذا كان الإخوة في الجماعة – وهم الذين يعرفون جماعتهم جيداً – يدركون أن هذه المواصفات التي ذكرتـها تنطبق عليهم، فليعملوا على إصلاح أخطائهم، وهذا الذي ينفعهم في دينهم ودنياهم، والحكمة ضالة المؤمن.
4- وإني لحريص بـهذه المناسبة على تسجيل الملحوظة التالية:
إن الجماعة الإسلامية المصرية من أقرب جماعات الجهاد إلى قلبي، وقد برز فيها في السنوات القليلة الماضية عدد من طلاب العلم، ولهؤلاء الإخوة الأفاضل كتابات جيدة نافعة، وبمناسبة صدور البيان عن القيادة التاريخية الذي يطلبون فيه من إخوانـهم وقف العمليات المسلحة فقد كتبت في مجلة السنة مقالاً تحت عنوان "نصيحتي للجماعة الإسلامية المصرية" اقتطف منه الفقرات التالية:
" كنت أحد الذين فوجئوا بصدور هذا البيان الذي كنت أتطلع وأتمنى صدوره، وذلك من أجل وضع حد لنـزيف دماء هؤلاء الشباب الذين يخوضون ببطولة نادرة معركة غير متكافئة، ولهذا فقد رحت أترقب تفاعل قيادة الجماعة في الخارج مع البيان، وهل سيستجيبون له أم سيرفضونه؟، وذلك لأن وحدة صف الجماعة مهمة عندي وعند كل من يعمل من أجل رص صفوف العاملين إلى الله وفق منهج أهل الحق.
وبعد أيام قليلة صدر بيان عن قادة الجماعة في الخارج يشيرون فيه إلى الأوضاع الحرجة التي يتعرض لها كل سجين، وقد يكون هذا البيان قد صدر تحت وطأة الإكراه، ولم يصدر عن النظام ما يشجع إلى اتخاذ مثل هذه المبادرة.
لم أفهم من بيان قيادة الجماعة في الخارج الرفض المطلق لمثل هذه المبادرة، ولم أفهم أيضاً أن هناك تعارضاً بين القيادتين قد يؤدي – لا سمح الله – إلى انشقاق في صفوف الجماعة، وذلك لأن هؤلاء الإخوة

الكرام قد عركتهم التجارب المرة، وصمدوا رغم الزلازل والأعاصير المتتالية التي قد تعرضوا لها من بداية عملهم، وحاول النظام اختراقهم وتفتيت وحدتـهم، ولكن محاولاته كلها تحطمت على صخرة صمودهم وثباتـهم، وترفعهم عن حطام الدنيا.
إن لي كلمة نصح فأرجو أن تتسع صدور الإخوة في الخارج لها، ويعلموا أنـها صادرة عن محب لهم، حريص عليهم.
لا أظن المحبوسين من قيادة الجماعة قد أكرهوا على إصدار مثل هذا البيان، لأن أجهزة الأمن الفرعونية عجزت خلال التحقيق وما أدراك ما التحقيق وما يصحبه من ضرب وسلخ وتعذيب جسدي ونفسي؟!، وعجزت خلال خمسة عشر عاماً وما رافقها من إغراءات كان من بينها عرض إطلاق سراح بعضهم مقابل موقف يتخذه، ولم يصدر عنهم طوال هذه المدة مثل هذا البيان وفضلاً عن ذلك ومهما وضع النظام من حواجز فمن الممكن الوصول إلى الإخوة المحبوسين ومعرفة حقيقة موقفهم.
يقول البعض: كيف تتخذ القيادة مثل هذا الموقف، وتقدمه مجاناً للدولة دون ثمن، وأقل ثمن لمثل هذا القرار الإفراج عن المحبوسين وإعادة المساجد التي انتزعت من الجماعة؟!.
إن الذي أراه أن النظام يحارب الجماعة كما يحارب غيرها من الإسلاميين نيابة عن إسرائيل وأمريكا، ومقابل ذلك يتلقى المساعدات المادية والمعنوية، واتخاذ مثل هذا القرار لا بد وأن يفقده شيئاً من المعونات التي تقدم له، ولهذا فإن من مصلحة هذا النظام بقاء الأمور كما هي عليه الآن.
ومن جهة أخرى فإن الجماعة بحاجة إلى إيجاد مثل هذا القرار لتراجع حساباتـها بـهدوء وتقوم مسيرتـها بعيداً عن كل تشنج وتأثيرات، وتسأل نفسها عن الخسائر والأرباح، وهل المصلحة الدعوية الشرعية تتطلب استمرار العمليات العسكرية أم لا؟... وهل هناك استطاعة، أم أن الاستطاعة مفقودة، وفي هذه الحال لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ولا يجوز دفع المنكر بمنكر أشد؟!.

ومن جهة ثالثة فإن اتخاذ مثل هذا القرار يحرج السلطة التي لا تتعامل مع مواطنيها إلا بـهذا الأسلوب الوحشي، كما أن الجماعة سوف تكسب عطف وتأييد كثير من الناس. ومن ثم فإن الساحة الدعوية بمصر بحاجة إلى اهتمام الجماعة الإسلامية لأن غيابـها طوال هذه المدة قد أحدث خللاً لم يسده أحد.
مرة أخرى أقول: أرجو من الإخوة في الخارج أن يعيدوا النظر بموقفهم، وما دفعني لتوجيه هذا النصح إلا حبي لهم وحرصي عليهم وعلى دورهم المنتظر. والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل"

نحو كيان جديد (الحلقة 38)

الحوار بين أهل السنة

السلفية بين الولاة والغلاة

محمد سرور زين العابدين

أكمل في هذه الحلقة ما عرضته في الحلقة السابقة، فأجيب على بقية الشبهات التي أثارها المخالفون وغيرهم، ثم أختم الرسالة مذكراً الإخوة بمقاصدي الحميدة ودوافعي الأخوية الصادقة.

* * *

الشبهة الرابعة: يعتقد القوم أنه لابد من الإعداد للجهاد، وهذا الاعتقاد لا خلاف عليه لو سلم من الغلو والتنطع، لكنهم يحصرون الإعداد بامتلاك السلاح والتدرب عليه. أجهزة الأمن من جهتها أصبحت تملك معلومات واسعة عن فكر هذه الجماعة، وهيكلها التنظيمي، والأسلوب الذي تتبعه في تسويق أفكارها في صفوف الشباب، وقد مكنتها هذه المعلومات من اختراقها وزرع العملاء في صفوفها بقليل من الجهد لأن القوم يغلب عليهم طابع التسرع في تنظيم الأعضاء، كما يتسرعون في طرح مسألة الخروج على الطواغيت الذين يفرضون على شعوبـهم الشرائع والقوانين الجاهلية المستوردة. لا أشك بأن هذا الأسلوب الطائش حرم العمل الإسلامي من طاقات دعوية ضخمة كان من الممكن أن توظف توظيفاً صحيحاً يقرَّ الله به عيون الذين يرجون نصر الله وتمكينه.. كما أنني لا أشك بأن هذا الأسلوب تسبب في كوارث ومصائب كثيرة منيت بـها هذه الجماعات بخاصة والجماعات الإسلامية كلها بعامة، وأكتفي بضرب مثالين على ذلك:

المثال الأول: في شقة متواضعة من شقق وأبنية القاهرة ذات الكثافة السكانية الهائلة، كان مجموعة من أعضاء جماعة جهادية لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة يأخذون درساً من دروسهم الدورية المعتادة على طريقة استخدام الأسلحة.

أحد أعضاء هذه المجموعة غادر الشقة بعد انتهاء الدرس، وكان في جيبه ورقة صغيرة لخص فيها أهم ما فهمه من هذا الدرس، وشاء الله أن تسقط هذه الورقة من جيبه دون أن يدري، وبعد سقوطها بلحظات أوقفته دورية من دوريات رجال الأمن اشتبهت به، ولكنها ما كانت تعلم شيئاً عن الشقة وما فيها من دروس وتخطيطات.. وتقدم غلام لا يتجاوز عمره السنوات الخمس، وقال للرجل المشتبه به:

هذه الورقة سقطت من جيبك.

لا، ليست لي، ولم يسقط من جيبي شيء.
انتبه رجال الأمن إلى هذا الحوار بين الغلام وضحيتهم، فأخذوا الورقة من يد الغلام، وهالهم ما ورد فيها من كلمات تنبئ عن أشياء وأشياء وراء صياغتها الموهمة، وكان لابد في هذه الحال أن يساق المتهم إلى أول وكر من أوكار أجهزة الأمن ليحقق معه، وإن شئتم فقولوا ليسلخ جلده عن لحمه.
اعترف المتهم بأمر الشقة وعنوانـها والتدرب على الأسلحة، وذكر اسم المدرب وكل ما يعرفه عن جماعته وأهدافها.. وسارع رجال الأمن إلى اعتقال المدرب، والمدرب اعترف تحت وطأة التعذيب الذي لا يحتمل بمن هم أعلى منه تنظيماً، وخلال أيام معدودة تمكنت المخابرات من اعتقال حوالي ألف شاب من مختلف المناطق والمدن المصرية.. وهؤلاء هم قيادة وأعضاء هذا التنظيم.
لم يكن هؤلاء الإخوة عند اعتقالهم قد صنعوا شيئاً ذا بال في طريق التغيير الذي كانوا يتطلعون إليه، بل ولم يكن أعضاء هذا التنظيم في المناطق النائية عن القاهرة عندما اقتادهم رجال المخابرات من منازلهم يعلمون أي شيء عن هذه الشقة وما حدث فيها.
من جهة أخرى، فقد كانت قيادة هذه الجماعة تردد وهي تربي أفرادها: إن الجماعات الجهادية التي سبقتنا تسرعت في أشياء كثيرة:
تسرعت في ضم عناصر مشبوهة، وكانت هذه العناصر سبباً في اختراق رجال الأمن لهذه الجماعات.
وتسرعت في مواجهة النظام قبل اكتمال الإعداد.
وتسرعت في الإعلان عن نفسها قبل أن تحدد منهجها وتصوراتـها، مما أوقعها في تناقضات كثيرة.
كان أعضاء هذه الجماعة مقتنعين بأنـهم يختلفون عن غيرهم من الجماعات الأخرى، وهم وحدهم المرشحون للتغيير وإقامة حكم الله في بلدهم لأنـهم قد تداركوا الأخطاء التي مني الغير بـها.. وها هم يرون بأعينهم، وبشكل لا يدع مجالاً للشك بأن غيرهم كان أفضل وأشد تحفظاً واتزاناً منهم، لأنـهم نفذوا عمليات كثيرة خلال سنين عجاف، ومع ذلك حافظوا على جماعاتـهم، أما هؤلاء الأخوة فقد فقدوا كل شيء قبل أن ينفذوا عملية واحدة.. لقد أصبحوا في حالة لا ينفع فيها الندم..

فالآمال الواسعة تلاشت، والأحكام القاسية صدرت ضد بعضهم، أما البعض الآخر فقد بقي رهن التوقيف الذي يمدد كل ستة أشهر.

المثال الثاني: كان بعض الإخوة المصريين يحدثونني عن الضابط عصام القمري رحمه الله، وكنت أظنه مجرد اسم من الأسماء التي برزت في قضية مقتل أنور السادات، وكلهم إخوة كرام جادوا بأرواحهم وبأعز ما يملكون في سبيل الله.. ولكنني ذهلت لما كتبه عنه اللواء فؤاد علام، ذهلت بحق لأن هذا اللواء من أشرس أعداء الجماعات الإسلامية في مصر وأشدهم خبثاً ودهاء.

يقول علام: ".. وبعد ذلك بدأت عملية اصطياد الصقور، ومن أبرز هذه العناصر عصام القمري الذي يعمل ضابطاً بالقوات المسلحة، وكان أسطورة المدرعات في أكتوبر 1973 م، لأنه دمر الكثير من الدبابات الإسرائيلية لم يكن في جسده موضع إلا وفيه علامة لشظية أو جرح واتسمت تصرفاته بالذكاء والدهاء".

لا أدري ما الذي كان اللواء يرمي إليه من وراء الحديث عن بطولة القمري في حرب أكتوبر؟!.. ربما كان يريد إبراز مواهبه في التحقيق، لكن الذي يعنينا نطرحه على شكل سؤال:

هذا البطل.. أسطورة المدرعات الذي لم يكن في جسده موضع إلا وفيه علامة لشظية أو جرح هل وضعته قيادته التي تمكنت من تنظيمه في جماعتهم في مكانه المناسب، وهل استثمرت بطولته استثماراً سليماً؟!.

يجيبنا على هذا السؤال فؤاد علام، وأسارع إلى القول: فؤاد علام عدو لئيم حاقد، والأصل الشك فيما يقوله ويكتبه، لكنني اخترت جوابه هنا لأنه لا يختلف في جوهره عن الرواية التي يذكرها الإخوة الذين يعرفون قصة عصام القمري وسبب اعتقاله.

يقول فؤاد علام: "والقمري بالذات كان معروفاً لدينا منذ فترة فقبل أحداث المنصة بستة أشهر اشتبه أحد المخبرين في شخص يسير في طريق الكورنيش بالمعادي.. ولما حاول القبض عليه تمكن من الهرب وألقى بالحقيبة التي كانت في يده.. وبفحص الحقيبة وجد بـها أوراقاً خاصة بأحد ضباط القوات المسلحة

يدعى الجمل وعصام القمري بالإضافة إلى قنبلتين ومواد متفجرة.
وأكدت المضبوطات وجود مجموعة من القوات المسلحة منخرطة في أعمال إرهابية ومنهم عصام القمري، وعلمنا بعد ذلك أن القوات المسلحة ضبطت المجموعة إلا عصام القمري الذي تمكن من الهرب إلى أن تم ضبطه في إمبابة".
ثم يتحدث اللواء عن اعتقال القمري فيقول:
"وعملية الضبط كانت مغامرة كبرى.. فقد عملنا أكثر من كمين لضبطه، أحدها في منطقة المقابر على الجانب الآخر لشارع صلاح سالم، وحاصرنا المنطقة بأكثر من [كردون] استعداداً لاقتحام المخبأ الذي يختفي فيه.. وأشرف على عملية الاقتحام ضابط من الأمن المركزي كان قوياً جداً وصوته جهوري اسمه صلاح بـهجت، وأصر النبوي[87] على حضور عملية الاقتحام والقبض على القمري.
وفي اللحظة التي كان فيها صلاح بـهجت ينادي على القمري لتسليم نفسه من خلال الميكروفون، رمى الأخير قنبلة أحدثت تفريغ هواء شديد في الحارة التي كان يقف فيها النبوي وسط كبار ضباطه، فجروا جميعاً.. وبعد لحظات انشغلوا في البحث عن النبوي ووجدوه على بعد كيلو متر من الموقع.. وهذه القصة قالها لي صلاح بـهجت والمعروف أنه كان محباً للنبوي ولم يضبط القمري في ذلك اليوم"[88].
وأخيراً اعتقلت أجهزة الأمن عصام القمري، وحقق معه فريق تشكل من المخابرات العامة، والمخابرات الحربية، ومباحث أمن الدولة، ويقول فؤاد علام:
حاول أثناء التحقيق إثارة الرعب في نفوسنا.. لدرجة أن بعض المحققين، اتصل بأهل منـزله، وطلب منهم ترك المدينة والذهاب إلى مكان آمن لأن هناك انقلاباً على وشك الوقوع.
إنه لأمر مثير للدهشة أن يرهب سجين وهو مكبل بالقيود ممثلي ثلاثة أجهزة معروفة بالبطش والتنكيل على المستوى العالمي، وإنه من غير شك ليملك قدرات ومواهب فائقة تدعونا إلى التساؤل مرة أخرى: هل

---

[87] – نبوي إسماعيل كان في هذه الفترة وزيراً للداخلية.
[88] – فؤاد علام أخطر لواء أمن دولة يروي: السادات المباحث والإخوان، كتاب أعده الصحفي كرم جبر، الناشر: دار الخيال، ص: 29، وكتاب: "الإخوان.. وأنا" لمؤلفه فؤاد علام، الناشر: أخبار اليوم.

وضعته قيادته التي تمكنت من تنظيمه في مكانه المناسب، وهل استثمرت بطولته استثماراً مناسباً؟!.
تجمع الروايات على أن أجهزة الأمن علمت بأمر تنظيم هذه المجموعة العسكرية – التي كان من بينها عصام القمري – من رفاقهم المدنيين بطريقة لا تخلو من طيش واستهتار.
وتجمع الروايات أيضاً على أن أجهزة الأمن عثرت فيما بعد على كمية من الأسلحة عائدة لعصام القمري عند رفاقه المدنيين، وإذا أخذنا رواية السلطة والتي لابد أن يكون فيها قسط كبير من المبالغة فإن: 24 قنبلة دفاعية، و30 جهاز تفجير، و 10 قنابل هجومية وما إلى ذلك لا يمكن أن تؤدي إلى تغيير الأوضاع في بلد مثل مصر، ولا أعتقد أن عاقلاً في الدنيا يقول بذلك.
بـهذه الطريقة الأسيفة الأليمة انتهت حياة هذا البطل، وذلك بعد فراره من السجن الذي أرعب النظام ووضعه في حالة استنفار، وتمكنوا من قتله في أحد شوارع القاهرة بعد عدد من الكمائن والمطاردات.
أيها الإخوة:
في كل بلد من بلداننا قُتل عشرات من الشباب الأبطال الذين يملكون مواهب وقدرات لا تقل عن مواهب وقدرات عصام القمري رحمهم الله جميعاً.
وفي كل بلد من بلداننا مجموعات حل بـها نفس المصير الذي حل بالجماعة التي كانت مجموعة منها تتدرب على استخدام الأسلحة في شقة من شقق القاهرة، وبعض هذه المجموعات اكتشف في وقت لا ينفع فيه الندم أنـهم كانوا مخترقين من عدوهم منذ بداية عملهم.
هؤلاء جميعاً قتلوا أو سجنوا بسبب مفاهيم خاطئة يجب إعادة النظر فيها وعدم الإصرار على فعلها.. وإنه لمما يدعو إلى الحيرة أن البعض يورّط غيره، ويستهين بدماء إخوانه، ويبقى هو بعيداً عن أية مغامرة.
أن لكم – أيها الإخوة – أن تعيدوا النظر بمواقفكم التي ثبت عقمها، ومن هذه المواقف الفاشلة اعتقاد بعضكم أن مجموعته وحدها قادرة على تغيير هذا الواقع، وإذا تواضع – هذا البعض – وقَبِلَ الحوار مع الجماعات الأخرى، فلا يرضى بأقل من قبول الآخرين بأفكاره ومواقفه.

ترى لماذا لا يكون الهدف المرحلي الأول من الإعداد: السعي الحثيث لقيام هيئة مستقلة من العلماء العاملين تجهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتدرس جميع الموضوعات المختلف فيها ثم تقدم الدراسات والفتاوى التي تبتغي بـها مرضاة الله وحده لا شريك له. قال تعالى: وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً [النساء: 83]، وإنه لا سبيل إلى حسم هذه الفوضى إلا بالاتفاق على مرجعية من العلماء القادرين على استنباط الأحكام من مظانـها.

<u>الشبهة الخامسة:</u> قالوا: سمعنا أنك رفضت استقبال من رغب منهم زيارتك والحديث معك في هذا الشأن، ألا تظن أن الحوار من أنجح وسائل الإصلاح؟!.
الجواب: إنني مقتنع بأهمية الحوار وكبير جدواه، وانطلاقاً من هذه القناعة كنت لا أرد من جاءني زائراً سواء كان يريد الحوار أو الجلوس معي والتعرف عليَّ، ولقد أوقعني هذا التساهل مع الآخرين في مواقف محرجة، ومن أهمها أن هذا الذي زارني يخرج من عندي ليحدّث الناس بأمور سمعها مني، ثم يجد من يصدقه ويساهم في نشر هذه الأقاويل التي لم أتلفظ بـها لا بحضور هذا الدعي ولا بغيابه، وفضلاً عن ذلك فإنني لا أعتقدها البتة، وبلغت الوقاحة ببعضهم إلى كتابة مقالات أو إلقاء محاضرات يروّج من خلالها هذه الأكاذيب، ثم يتعرض لها بالنقد المسهب.
وبعض من هؤلاء يريد أن يزورني ليفحمني بصحة "غلوه" ويقيم الحجة علي، وأي كلام يقوله فيما لو جاءني سيعتبره إفحاماً وإقامة حجة مع أنه يفتقد الحد الأدنى من العلم الشرعي.
وأمثال هؤلاء وأولئك غير مجد استقبالهم والدخول معهم في حوار، أما العقلاء من الإخوة منسوبي جماعات الجهاد، فإنني أستقبلهم بل وأسعى إليهم مستمعاً ومحاوراً ومتعاوناً في القناعات المشتركة وهي كثيرة والحمد لله.
أيها الإخوة الأفاضل: إننا نعيش في حقبة من الزمن يستطيع كل واحد من الناس أن يردد المفردات التي

تستخدمونـها فيما بينكم فتطربون لقوله وتعدّونه منكم مع أنه قد يكون مخرباً مفسداً، ودعوني أدلل على ذلك بفقرات من مقال نشرته صحيفة (الأنصار) العدد (105) تاريخ 14 صفر 1416، الموافق 13/7/1995 تحت عنوان: "دعوة للجهاد والإرهاب"، يقول الكاتب:
"كلمات في اللغة وصفت بالإرهاب وصاحبها إرهابي في كلّ كتاب: دمّر.. خرّب.. احرق.. أنبش.. اقتل.. اذبح.. فجر كل طرق الضلال.. كل البارات.. انبش قبور الظلم على الظلمة، واهدم قصور البغي على السفلة، واحرق كل كتاب زنديق وعلماني مرتد.. ثم احرقه.
كن إرهابياً.. كن متطرفاً.. كن متعصباً لله وللإسلام الحق. وإياك أن تصاحب مرتداً أو تجلس تتسامر مع وغد".
أدعوك لتفخخ سيارة بكل ما تملك من أموال لتنسف موكب [يذكر هنا أسماء بعض الرؤساء والملوك]..
أدعوك لتدمر بنكاً أشاع الربا والكفر.. أدعوك لتزرع لغماً مشركاً تحت قصور البغي فتهدمها.. أدعوك لتطلق رصاصة تقتل من اغتصب أختك أو شرد طفلك.. أدعوك لقتل كل من ارتدى بزة شرطة وعلق جماجم الموت على كتفيه، وشفتيه بدم أخيك المسلم".
"أدعوك لتذبح كل من أفتى لطواغيت الأرض بدم المسلم وعرض المسلم وسجن المسلم ولو تدلى من عنقه ألف مصحف أو لبس عمامة وكتم ما أنزل ربي من علم ليأكل في بطنه ناراً وزقوماً، أدعوك لتغتال مرتداً باع القدس في مدريد، ومنافقاً مرتداً باع القدس في تل أبيب، ومنافقاً ابن يهودية ألغى السنة النبوية وصلى العصر ثلاث ركعات ونشر الكفر بليبيا بدين القومية.. قذاف الهجس..".
"أدعوك لتكون جزاراً متفنناً في الذبح وتسمي الله وتذبح لله لعلك تخلّص الأرض والبشرية من مرتد، وينشر على يديك الحق بإذن الله. دعك من الجبن ما كان المسلم يوماً يرضى ليقبع تحت السجّان وشرفه يمزق ويهان ويترك السيف".
"اليوم تحاول أن تخرج للعالم باسم الله وبدين محمد ومعك السيف لتؤكد أن عرض المسلم وشرفه ليس بملعب لخنازير الأرض وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.. يأثم من ترك السيف، ويفسق من يلغي

السيف، انسف، دمر، خرب، انبش، أضف إلى قاموس الرعب كل مصطلحات الخوف، واعلم أن مسيرة شهر من الرعب ستصيب الباطل وأن الظلم وإن طال عليك أن يطلع فجرك إلا والدم على سيفك من قلب الظالم، وهيئات الظلم يفجرها المظلوم المؤمن وأن مسيرة شهر لم تعط إلا لنبيك ولأمته فدمر، انسف، احرق، اقتل، اهدم، اذبح، انبش، اغتال، خرب، كن إرهابياً متطرفاً بدين محمد، بالإسلام، يدعوك الإسلام للإرهاب فلا تجلس مثل النسوان". انتهى المقال.
فيما أظن أن أول ما يسأل عنه القارئ وهو يقرأ هذا المقال:
ترى من يكون الكاتب؟!، وهل هو جاد فيما يدعو إليه؟!، ثم لا يلبث أن يصل إلى الجواب في نـهاية المقال:
التوقيع: موحد، وموحد تعني أنه مجهول!!، وإذا افترضنا أنه يكتب عن قناعة وصدق، فكيف يطلب من الآخرين أن يتخلوا عن الجبن، ويجبن عن بيان اسمه؟ هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فالتدمير، والنسف، والتخريب يحتم على الكاتب أن يعود إلى بلده ليزاول فيها هذه الأفعال، أما أن تكون هذه البطولة حبراً على ورق في بلد أوربي ضمن له حرية القول بما يشاء، كما ضمن له مكافأة شهرية تسد حاجاته الضرورية، فمثل هذا الرجل يصدق فيه قول الشاعر:
دع المكـــارم لا تـــرحل لبغيتــها
واقعد فإنــك أنت الطـــاعم الكاسي
ثمة سؤال آخر لابد أن يفكر به القارئ: هل يكون هذا الكاتب المجهول رجل أمن خطير أراد من وراء هذا المقال أن يقول لمنظمات حقوق الإنسان، ولكل من يدافع عن هؤلاء المظلومين: إنـهم مجرمون قتلة يستبيحون دماء رجال الأمن وعلماء الأمة الذين يفتون على غير رغبتهم.. كما أنـهم يستبيحون تدمير مؤسسات الدولة العامة؟!.
وهل أراد كاتب المقال أن يقدم دليلاً ملموساً للنائب العام وهيئة الاتـهام ليستخدموه ضد المتهمين، وليقولوا للمحامين الذين يدافعون عنهم:
أما تخجلون من الدفاع عن متمردين يتبنون سياسة: "انسف، دمر، خرب، انبش، اذبح، اغتال.. كن إرهابياً متطرفاً.. وهذه هي مجلة ناطقة باسمهم؟.. وكيف لا

تقفون مع حكومة تحافظ على أمنها وسلامة رعاياها ومؤسساتـها؟، وهل رأيتم دولة في العالم تقف مكتوفة الأيدي ضد الخارجين عليها بقوة السلاح؟.
أيها الإخوة الأعزاء: هل رأيتم أحمق من مظلوم فعل ظالمه به كل ما يقدر عليه من تعذيب لا يحتمل، وهمجية لا تحضرني عبارة تحيط بنعتها، وخسة ودناءة قد تتعفف بعض الوحوش عن فعلها.. ثم يدين نفسه ويدين إخوانه بتهديدات هو غير قادر على فعلها؟.. أما كان الأولى من ذلك كله أن يبين مظلمته للناس جميعاً، ويطلب منهم النصرة والتأييد وشجب الظلم والظالمين؟.
قد يقول قائل: ها قد عدت إلى التعميم، وإلا فما علاقة عامة منسوبي الجهاد بمقال ورد في نشرة تتحدث باسم الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر والتي لا نشك بغلوها ومجافاتـها للمنهج الحق؟!.
وها هنا لابد من تذكير الإخوة بأن العدد من المجلة المذكورة الذي حوى هذا المقال صدر في وقت كان فيه معظمكم يؤيد هذه الجماعة، ولا يقبل فيها أي قول.. ثم تغير موقفكم فيما بعد، وصرتم تقولون فيها أضعاف ما كنا نقوله، وليست هذه هي المرة الأولى التي تغيرون فيها مواقفكم بطريقة يشوبـها الكثير من التناقض والاضطراب، ومن أجل مزيد من تنشيط الذاكرة، نعيد ذكر الخبر التالي: سئل ناس منكم ذات مرة عن موقفهم من هذه الجماعة وفلاسفتها الذين ركبوا الموجة، فأجابوا: موقفنا هو كموقف التلامذة من أساتذتـهم!!.
أيها الإخوة الأفاضل: نذكركم بالقاعدة الآتية التي أجمع عليها علماء الملة: "لا يجوز دفع المفسدة بمفسدة أعظم منها"، وواقع الحال يؤكد أنكم خالفتم هذه القاعدة عشرات المرات، فإلى أين أنتم سائرون؟!، إنني أربأ بقياداتكم أن يكونوا مثل صاحب المزرعة الذي يزاول مهنة تسمين الخراف، ثم يقدمها للجزار ليذبحها، وكلما انتهى فوج قدم لهذا الجزار فوج آخر، ورجائي إليكم إن انتابكم شك في ذلك أن تستعرضوا تجارب جماعات الجهاد خلال ربع قرن واحد ليس أكثر.
لقد اعتدنا على سماع خبر انفجار أو محاولة اغتيال، ثم تتجه الأنظار إلى من يسميهم الإعلام بالأصوليين.. تتجه الأنظار لهؤلاء دون غيرهم، وبعد أيام قليلة تعلن دوائر

الأمن عن ضبط الجناة.. ثم يشاهد الناس على شاشات التلفاز مجموعة من الشباب الملتحين وهم يمثلون الجريمة التي ارتكبوها.. ويتفق عقلاء الدنيا على أن هذه الجريمة لا تغير واقعاً ولا تضعفه بل تزيده قوة وشراسة وجبروتاً.

وأعود في نـهاية هذه الرسالة إلى ما بدأت به فأقول: إني ناصح لكم، معجب ببطولة بعضكم وبإنكارهم للذات، حريص على وحدة الصف الإسلامي، وعلى وجوب وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، مؤمن أشد الإيمان بأن الجهاد الذي فرضه الله تعالى لن يستطيع الطغاة إلغاءه، وهو ماض حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولكنني أريده جهاداً شرعياً يقوده علماء ربانيون. اللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تـهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.